في ضيافة الرحمن

تأملات ورؤى في مناسك
الحج والعمرة



محمد مهدي الآصفي

بسم الله الرحمن الرحیم

فی ضیافة الرحمن

کاتب:

محمدمهدی آصفی

نشرت فی الطباعة:

مشعر

رقمی الناشر:

مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

الفهرس

فى ضيافة الرحمن

اشارة

نام كتاب: فى ضيافة الرحمن
نويسنده: محمد مهدى الآصفى
موضوع: احكام و مناسک
زبان: عربى
تعداد جلد: ۱
ناشر: نشر مشعر
مكان چاپ: تهران
سال چاپ: ۱۴۳۱ ه. ق.
نوبت چاپ: ۱
ص: ۱

رحلهٔ إلى الله تعالى

قد كانت هذه الرحلهٔ بدعوهٔ من الله تعالى على لسان عبده وخليله إبراهيم (ع): (وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ)؛ وتتم الرحلهٔ كلها فى ضيافهٔ الله.

فالحجاج وفد الله وضيوفه تعالى، لا شک فى ذلک، والتلبيهٔ التى يرفعها الحجاج إلى الله تعالى فى الميقات، إعلان لإجابهٔ هذه الدعوهٔ التى أعلنها إبراهيم (ع) من جانب الله لعباده، ولا تزال أجيال المؤمنين يُلَبّون هذه الدعوهٔ جيلًا بعد جيل إلى اليوم، وإلى أن يأخذ الله الأرض ومن عليها.

و فى هذه الرحلهٔ بعد التلبيهٔ يدخل الحاج دورهٔ تدريبيهٔ رمزيهٔ للتحرر من أهم عقبتين فى الطريق إلى الله، وهما (الأنا) و (الهوى).

و يتم هذه المواجههٔ والتحرر الرمزيان من (الأنا) و (الهوى) فى بدايهٔ الرحلهٔ فى محرمات الإحرام بعد التلبيهٔ، مباشرهٔ، فإنّ تحريم المخيط من الأزياء للرجال،

ص:۱

ص:۲

ص:۳

ص:۴۰

ص:۵

ص: ۶

والتجرد عن الملابس والأزياء القومية والوطنية، وتحريم الجدال فى الحج يحمل معنى محاولة الحاج للتحرر من (الأنا) وتحريم ممارسة العلاقة الجنسية يحمل معنى محاولة التحرر من (الهوى) فى هذه الرحلة، ولو كان بصورة رمزية.

و هما يحملان واحدة من أعظم معارف الحج، وهى أنّ التحرر من سلطان الأنا والهوى، (و ليس من الأنا والهوى) هو الشوط الأول من الطريق ... وليس يتأتّى للعبد أن يسلك الطريق الصعب إلى الله، وهو يخضع لسلطان الأنا والهوى.

و تتمّ هذه الرحلة بصورة جماعية، فلا يُقْبل ضيوف الرحمان على الله فى هذه الرحلة فرادى، وإنما يقبلون على الله مجتمعين فى مكان واحد وزمان واحد.

و هى عبادة ورحلة فريدة فى نوعها، فلستُ أعرف عبادة يجمع المستطيعين للعبادة، من كل أقاليم الأرض من الموحّدين، فى مكان واحد وزمان واحد، غير هذه العبادة.

و كلما يكون الاقبال على الله جمعيّاً، يكون القبول من الله تعالى لعباده أسرع وأكثر؛ فيتقبّل الله تعالى المسيئين منهم بمن أحسن، وضعفائهم بأقويائهم.

ففى رحلة الصلاة فنقول كل يوم عشرة مرات: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) فنعرض على الله عبادتنا ضمن عبادة عباده الصالحين بصورة جمعيّة؛ هكذا (نعبد) ونطلب من الله الاستعانة، ضمن طلب الصالحين من عباده للاستعانة؛ هكذا (نستعين)، فإنّ الله تعالى لايرد عبادة الصالحين من عباده، ولايرد طلب الاستعانة من عباده الصالحين، وهو تعالى أكرم من أن يبعّض الصفقة الواحدة من الطلب، فيتقبّل البعض ويَرُدّ البعض.

ونحن نقدم عبادتنا لله، واستعانتنا به، صفقة واحدة مع سائر عباده، وهكذا (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ).

و كذلك فى رحلة الحج يقف الحجاج كلهم جميعاً فى عرفة، فى مكان واحد

ص: ۷

وزمان واحد، يرفعون أيديهم إلى الله تعالى بالدعاء والاستغفار، ليتقبل الله تعالى دعاء مسيئهم بدعاء محسنهم، واستغفار المسيئين منهم باستغفار المحسنين منهم.

و على العموم: الحج رحلة فريده فى نوعها إلى الله، ولستُ أعرف عبادة أخرى، تجمع الخصائص التى جمعها الله لهذه الرحلة، وهى رحلة العمر كله، فإنّ الحج الواجب حج واحد فى العمر كله، ومعنى ذلك أنّ المواهب التى يكتسبها الحاج فى الحج يكفيه لكل العمر، إذا أحسن الاستفادة منها والمحافظة عليها، وأنّ الزاد الذى يتزود به الحاج فى الحج، يغنيه لرحلة العمر كلها، إذا أحسن المحافظة عليها.

و ليس يتيسر لأغلب الحجاج الحج مرة أخرى ... غير الحج الواجب، ولذلك فإنّ من الضرورى جداً أن يحضّر الحاج نفسه تحضيراً كاملًا للتزود من مواهب الحج، و هى عظيمة وكثيرة، وكل حاج يتزود من هذه الرحلة الإلهية الفريدة بقدر ما يتسع له وعاء نفسه؛ ووعاء كل إنسان بقدر ما يحضّر نفسه لاستقبال مناسك الحج والتزود من موائد رحمة الله الواسعة فى هذه الضيافة الإلهية الفريدة ... وبقدر ما يحمل من فقه ووعى لمناسك الحج.

ولابدّ للحاج من هذا وذاك، من فقه أحكام الحج ومناسكه أولًا، ووعى معارف الحج وأسراره ثانياً؛ ولعل دعاء إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام) يشير إلى ذلك: (وأرنا مناسكنا).

وبين يدى القارى مجموعة من التأملات فى أعمال الحج ومناسكه، يحسن بالحاج أن يقرأها قبل الحج، إلى جانب قراءة دقيقة لفقه مناسك الحج، ليتأتى له أن يتزود من هذه المائدة الإلهية الواسعة المعدّة لضيوف الرحمان بأكثر ما يمكن لأمثالنا.

وقد كتبت أكثر هذه المواضيع خلال رحلة الحج فى المرات العديدة التى وفقنى

ص: ۸

الله تعالی له، وقد رغبت مجلهٔ (میقات الحج) أن تجمع هذه المقالات فی کتاب واحد، تقدمه إلی حجاج بیت الله الحرام، لعلّه ینفع ضیوف الرحمان فی التزود من مواهب هذه الرحلهٔ الإلهیهٔ العظیمهٔ.

فشکراً لفضیلهٔ السید قاضی عسکر، وفضیلهٔ الشیخ المقدادی اللذین تحمّلا عنی هذه المهمهٔ؛ جزاهما الله خیراً.

و أسأل الله تعالی أن ینفع به ضیوفه و وفده، وأن یجعله زاداً لکاتبه یُقدّمه بین یدیه، یوم یُقْدِمُ علیه تعالی ببؤسه، وفقره، وفاقته إلی رحمته، (یَوْمَ لا یَنْفَعُ مالٌ وَ لا بَنُونَ* إِلَّا مَنْ أَتَی اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِیمٍ).

محمّد مهدی الآصفی

النجف الأشرف/ فی شعبان ۱۴۳۰ ه-

ص: ۹

المراحل الثلاثة فی رحلة الحج

اشارة

ص:۱۰

ص: ۱۱

الرحلة الكادحة إلى الله

رحلـة الإنسان إلى الله تعالى رحلـة كادحـة متعبـة، تبـدأ ب- (الأنا والهوى) وتنتهى إلى لقاء الله ... يتم للإنسان فيها التحكم على (الأنا والهوى) بشكل كامل، (ولا يقضى عليهما).

و لايتمّ للإنسان هـذه السيطرة والتحكم فى (الأنا والهوى) إلّا بعـد جهـد شاق، وكدح عسير ... (إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا)، وهذا الكـدح العسير هو فى مواجهـة (الأنا والأهواء) المغروستين فى عمق النفس وفى مواجهـة (الفتن) الموزعـة على ساحـة الحياة، وما بين (الأنا والهوى) من جانب، و (الفتن) من جانب آخر، من التجاذبات القويّة المهلكة للنفس.

و هـذا هو معنى الابتلاء الـذى جعله الله تعالى على طريق الإنسان إليه عزّ شأنه، ولا يرقى الإنسان إلى الله إلّا من خلال هـذه الابتلاءات الصعبة، العسيرة الكادحة، والغاية فى هذه الرحلة الكادحة هى لقاء الله (فَمُلاقِيهِ).

و لكن هـذه الحركة الكادحة للتحرر من سلطان (الأنا) و (الهوى) و (المغريات والفتن) التى تعيق حركة الإنسان إلى الله، لا تتم إلّا من خلال الوسط الاجتماعى، والحشر فى وسط الناس، وليس من خلال الاعتزال عن الناس

ص: ۱۲

بالحیاة الرهبانیة.

فقـد جعـل الله تعـالی الطریق إلیه، للتحرر من سـلطان الأنـا والهوی والمغریـات التی تعیق حرکـة الإنسـان إلیه تعـالی، من خلال حرکة الجمهور المؤمن الراشـد، ولیس فی الرهبانیـة والاـعتزال و الخلوات، کمـا یسـلک الرهبـان الطریق إلی الله، بالهروب عن الناس والفتن والمغریات والمثیرات، لتسهیل أمر الحرکة إلی‌الله. (۱)فهذه ثلاث نقاط جوهریة فی الحرکة إلی الله:

مجاهدة الأنا والأهواء، لغرض التحکم فیها، ولیس لکبتها والقضاء علیها، والانتهاء إلی لقاء الله، وهو غایة هذا الطریق الصعب.

ثم اختیار الوسط الاجتماعی ساحة للانطلاق إلی الله ... وهذه هی النقطة الثالثة فی هذه الحرکة.

رحلة الحج

و الحج صورة مصـغرة رمزیة لهذه الحرکة الشاقة العسـیرة إلی الله، واختزال لمراحل هذه الرحلة الشاقة، وهو ینطوی علی هذه المراحل جمیعاً، ویتـدرج بالإنسان مرحلـة مرحلة إلی الله، ویدرّب الإنسان، ویمکّنه من طی هذا الطریق الصـعب، وکأنه دورة تدریبیة للسـلوک الشـاق إلی الله ... قـد قطعهـا أبونا إبراهیم (ع) بأمر من الله من قبل، وجاء بعـده أنبیاءالله:، ثم من بعـدهم رسول الله وخاتم الأنبیاء (ص) علی نهجه ومسـلکه بأمر من الله فی سـلوک هـذه المراحل الرمزیة إلی الله، ونحن نسـلک هذا الطریق، ونأخذ بهدیهم، لیعیننا الله تعالی علی سلوک المراحل الشاقة الکادحة إلی لقائه عز وجل (یا أَیُّهَا الإنْسانُ إِنَّکَ کادِحٌ إِلی رَبِّکَ کَدْحاً فَمُلاقِیهِ).

۱– لاـ نرفض مطلقاً الخلوت السـلوکیه التی یختارها السالکون إلی الله تعالی– ولکنها– لیست المنهـج العام فی الإسـلام للعبادة والتربیة والتزکیة والحیاة الاجتماعیة

ص: ۱۳

و تبتدأ هذه الرحلة (الاختزالية) بالميقات، وتنتهى بطواف الوداع (المعروف بطواف النساء)، ونحن نشير إن شاء الله إلى المراحل الثلاثة التى يقطعها الحاج فى هذه الرحلة النموذجية من الأنا والهوى إلى الله.

المرحلة الأولى: التحرر من الأنا و الهوى

اشاره

تبدأ هذه الرحلة من الميقات بتجاوز الذات والأنا، ومحاولة الانصهار فى المسيرة الإيمانية إلى الله تعالى؛ وهذه هى المرحلة الأولى فى هذه الرحلة الإلهية.

و يصبّ الناس بعد تجرّدهم (الرمزى) من حالة (الأنانية) و (الأنا) فى الحشد البشرى الكبير فى الطواف حول البيت، كما تصب السواقى والأنهر الصغيرة فى البحر الكبير، فلا تستطيع أن تميّز بعد ذلك موقع هذه السواقى من البحر الكبير.

بداية هذه الرحلة (الميقات)، حيث يحاول الإنسان أن يتجرّد عن ذاته وأهوائه وخصائصه التى تميّزه عن الآخرين بالإحرام، وينصهر فى المسيرة الإلهية الحاشدة، التى لا يتمايز فيها الأفراد.

فى الميقات تتساقط هذه الحواجز، وينصهر الناس فى الحشد الربانى العظيم المتدفق إلى المسجد الحرام، لا يتميز فيها العربى من الكردى والفارسى عن التركى، ولايتميز فيها الغنى عن الفقير.

إنّ الميقات حد فاصل بين (الأنا)، وبين الأُمّة المؤمنة.

ص: ۱۴

و قبل أن يدخل الحاج الميقات يعيش كما يعيش سائر الناس متمايزين، منفصلين، ولل- (أنا) تمييز وتشخيص، ولل- (أنا) تظاهر وبروز فى حياتهم، ولل- (أنا) سماته ومعالمه الواضحة فى حياتهم، فإذا دخل الميقات تضاءل (الأنا)، وخفّ صراخه وصوته، وفقد جملة من معالمه ومميّزاته، وفقد لونه وصيغته الصارخة؛ وهذا الانقلاب فى الشخصية ينبغى أن يتم فى (الميقات)، ويرمز إلى هذا الانقلاب (لباس الإحرام)، وقد قلنا إنّ الحج يعبر عن المعانى والمفاهيم التى ينطوى عليها بلغة الرمز.

عند الميقات يتجرّد الحاج من كل ملابسه، وما تحمله ملابسه من سمات شخصية، وطبقية، وقومية، وإقليمية. إنّ لباس الإنسان يحمل هوية الإنسان، ويحمل الإشارة إلى شخصية الإنسان وانتمائه القومى، والإقليمى، والعشائرى، وطبقته، ومهنته، ودرجته فى الثراء والفقر، والمستوى الاجتماعى.

فإذا بلغ الحاج الميقات تجرّد عن ملابسه، ولبس ثياب الإحرام إزاراً ورداء ... قطعتين من القماش، لم يستعمل فيهما الخيط كالآخرين، على نحو سواء، فى غير بذخ، ولا- ترف، ولا- تمييز، وخلع عن نفسه ملابسه التى كانت تحمل هويته، وتعبر عن شخصيته؛ إنّ هذه الخطوة الأولى فى الميقات تعبّر عن تجرّد الإنسان عن هويته، وشخصيته، وأنانيته، وعن عبور الذات وتجاوز (الأنا).

و كما يُجرّد الميّت عن ملابسه، لأنّ دور الأنا فى حياته قد انتهى، ولم‌يعد للأنا حجم ولا دور، لا شكل فى المرحلة الجديدة من حياته، كذلك الميقات، يتجرد فيها الحاج عن هويته و ذاتيته، وكأنّ الميقات مصفاة، وأول شىء تأخذه هذه المصفاة من الإنسان هو ذاته، فإذا تجرد عن الأنا، وانسلخ عن ذاته أو حاول ذلك، حقَّ له أن يتجاوز الميقات إلى الحرم، وما لم يتخلّص الإنسان عن ذاته، فلا يتمكّن أن يواصل الرحلة إلى لقاء الله ... فإذا خلص فى هذه المصفاة من ثقل الذات اجتاز

ص: ۱۵

الميقات توجه إلى الحرم.

و إنّ أكثر ما يثير المتاعب فى حياة الناس، ويعكّر العلاقة فيما بين الناس، هو التصادم والتخالف الـذى يحدث بين الذوات والأنانيات، وعندما تذوب الذات عند الإنسان، وتنصهر، ويخلص الإنسان عن طغيان (الأنا) ينتهى شطر كبير من مشاكل الإنسان ولقاءاته السلبية مع الآخرين، وما يستتبعه من صدام، وتردى العلاقة، وحالة الإثرة، والأنانية، وحبّ الذات، فإذا خلصت حياته من سلطان الذات والأنا سلم الإنسان من هـذه المشاكل والمتاعب التى تعج بها حياة الناس وتمكن من أن يضع حياته وعلاقاته الاجتماعية على أسس سليمة وأن يحكّم السلام فى علاقاته مع الآخرين.

التجمّل والترف

و فى الميقات يخلص الإنسان من خصلة أخرى من خصال (الأنا)، وهى خصلة ممدوحة لو كانت فى الحدود المعقولة التى لا تستأثر باهتمام الإنسان كله، ولا تملك إرادة الإنسان، ولا تَحْكُمها فإذا تحولت هذا الخصلة إلى خصلة حاكمة على إرادته كانت صفة ذميمة للإنسان.

و تلك هى خصلة التجمّل، فهى خصلة ممدوحة، فى الحدود التى تظهر على الإنسان نعم الله تعالى وفضله، فإذا تحوّلت إلى خصلة من خصال الـذات، مهمتها إبراز الـذات وإظهارها، لا إبراز نعم الله تعالى، كانت من البطر والرئاء، وتحولت إلى صفة ذميمة تسلبه القدرة على تحمّل الشظف، وسلوك طريق ذات الشوكة، والإسلام لا يكافح هذه الخصلة، وإنما يعدّلها ويهذّبها.

و فى الميقات يـدخل (الأنا) فى هـذه التصـفية الإلهيـة، ويلزمه الإحرام بالتخلى فى فترة الإحرام، من هـذه الخصـلة، ويحرّم عليه الطيب والتجمّل، حتى

ص: ۱۶

بالنسبة للنساء فيما يتجاوز الحد المألوف للمرأة فى التجمّل ليتمكّن الإنسان فى نفسه من هـذه الخصلة التى تشكّل حالة تظاهر للأنا، وحالـة ترف تؤثر تأثيراً سـلبياً على إرادة الإنسان وقـدرته فى مواجهة متاعب الطريق، إذا لم يعمل على تعديل هذه الخصـلة، وتهذيبها، وإرجاعها إلى نصابها الممدوح الذى يُقرّه الإسلام ويأمر به.

سلطان الهوى والشهوات

و فى الميقات يمرّ الإنسان بتصـفية ثالثـة، وهى تخليص الإنسان من سـلطان الهوى والشـهوات والغرائز، وهى مسألـة فى غايـة الدقة فى الإسـلام، وقد قلنا تخليص الإنسان من سـلطان الهوى والشـهوات، ولم نقل من الهوى والشـهوات، وبينهما فرق، وذلك لأنّ الإسـلام لا يكافح الأهواء والشـهوات فى نفس الإنسان، وإنما يعتبرها ضـرورة من ضـرورات الحياة، ومن دونها تختل الحياة، وإنما الذى يكافحها الإسلام هو سلطان الهوى والشهوات على الإنسان وإرادته.

و ليس الأهواء والشهوات فى حد ذاتها مصدر للانحراف، والسقوط فى حياة الإنسان، وإنّما الانحراف والسقوط يأتى من ناحية سلطان الهوى على إرادة الإنسـان، فـإذا تمكّنت الأـهواء والشـهوات من الإنسـان، وخضع الإنسـان لهـا عنـد ذلـك فقـط، يتمكن الشـيطان من الإنسان، ويتعرض للسـقوط والانحراف، ولذلك فإنّ المنهج الإسـلامى فى التربية يعمل على ترويض الأهواء وتطويعها لإرادة الإنسان، وتمكين الإرادة منها، دون أن يكافحها ويحاربها ويستأصلها ويصادرها.

و (الصوم) نموذج واضح لهذا المنهج التربوى، و (الميقات) هو الآخر يقع فى

ص: ۱۷

هذا الخط التربوی، ففی المیقات یتعرّض الإنسان لتصفیهٔ واسعهٔ فی (الأنا) و (الهوی)، یمتص منها سلطان الأنا والهوی، ثم یسمح له بالدخول فی رحاب ضیافهٔ الله تعالی، بعد أن یجرده من هذه النزعهٔ الحیوانیهٔ التی تطغی علی تصرفاته وتحکم إرادته وفعله.

و الهوی عندما یحکم الإنسان یتحول إلی مصدر للشرّ فی علاقات الإنسان وحیاته الاجتماعیهٔ، یسلب الأمن والسلام من حیاهٔ الناس، فلیس ما بین الناس من خلاف، وصراع، وصدام، مصدره الاختلاف فی الرأی غالباً، وإنما یعود السبب فی نسبهٔ کبیرهٔ وواسعهٔ من هذه الخلافات إلی عامل الهوی فی العلاقات الاجتماعیهٔ.

و للإمام الخمینی ۱ کلمهٔ ذات دلالهٔ عمیقهٔ فیما نقول؛ یقول ۱: (لو أنّ مائهٔ وأربعهٔ وعشرین ألف نبی عاشوا فی مکان واحد، لما اختلفوا فیما بینهم، لأنه لا سلطان للهوی فی نفوسهم).

فالمیقات نقطهٔ تحول وانقلاب فی حیاهٔ الإنسان وأهم ما فی هذا الانقلاب هو العبور من (الأنا) و (الهوی) وخصالهما فی حیاهٔ الإنسان، فإذا تجرد عن ذلک، کان مؤهلًا للدخول فی رحاب ضیافهٔ الله فی الحج، ومن عجب أنّ المذاهب الفکریهٔ المادیهٔ تؤکد عکس ذلک، علی تعزیز الأنا وتثبیته، واعتماد عنصر الاعتداد بالنفس وتنمیهٔ حالهٔ الغرور والعجب، بخلاف الإسلام الذی یضع منهجه التربوی علی أصل مکافحهٔ سلطان الأنا، وإضعافه، وتحجیمه، وتحویل الإنسان من محور سلطان الأنا إلی محور عبودیهٔ الله تعالی، وسلطانه فی حیاته، ویدعو الإنسان إلی التحلّل من هذا المحور، والارتباط بالمحور الربانی والانصهار فیه (قُلْ إِنَّ صَلاتِی ونُسُکِی ومَحْیایَ ومَماتِی

ص: ۱۸

لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ).(۱) و هذه هى المرحلة والسمة الأولى من سمات الحج.(۲)

***

المرحلة الثانية: الإنصهار فى الجماعة

اشارة

فإذا تجرّد الإنسان عن (الأنا)، وانسلخ عن ذاته، وجد نفسه فجأة فى وسط حشد بشرى كبير هادر، ينطلق من الميقات إلى الكعبة، كما تصبُّ الأنهر فى البحر.

من كل ميقات من هذه المواقيت التى وقّتها رسول الله (ص) يجرى نهر كبير من الناس، يتدفق ويصبّ فى الحرم حول الكعبة، فتتجمع هذه الأنهر حول البيت الذى رفع قواعده إبراهيم وإسماعيل ٨، وفى هذا الخضم البشريالمتلاطم لا يشعر الإنسان بذاته، ولا يشعر بكينونته الفردية ... وتذوب شخصية الفرد فى هذا التيار البشرى العظيم، ويتضاءل عنده الإحساس ب- (الأنا)، حتى لا يكاد يشعر به صاحبه، ويقوى عنده الإحساس (بالجماعة) و (نحن) و (الأُمّة) بدل (الأنا والأنا

۱- الأنعام: ۱۶۲

۲- لكى يكون تعبيرنا دقيقاً فى هذا البحث لابد أن أقول: إنّ هذه النقاط تعبّر عن حالة رمزية للمحاولة للتخلص عن سلطان الأنا والهوى وحالة البطر والرئاء فى حياة الإنسان، وتشعر الإنسان بهذه المحاولة لتحجيم سلطان الأنا والهوى فى حياته. وهى فى نفس الوقت تدخل الإنسان فى دورة تدريبية مؤقتة تمكنه من تحجيم سلطان الذات والهوى إذا رجع إلى ساحات حياته الّتى يألفها، وهى (البيت) و (السوق) و (الشارع). واستثناء المرأة من بعض هذه النقاط لاينفى الحقيقة التى قررناها آنفاً؛ فإن حالة الرفق بالمرأة واضح فى هذا الاستثناء، فيما يتعلق بأحكام المرأة فى الحج؛ ولاينفى ذلك الخط العام الذى شرحناه لدور الإحرام والميقات فى حياة الحجاج رجالًا ونساءاً.

ص: ۱۹

والأنـا)، فيملأ عليه كل حواسه ومشاعره، فلا ترى فی المطاف أفراداً يتحركون، وإنّما ترى كتلـة بشـرية واحـدة من الناس تطوف حول البيت العتيق.

و لـو أنّ الحـاج الـذی تجرد فی الميقـات لم يكن يصبّ فی المطـاف فی بحر الجماعـة المؤمنـة لكـان يضـيع ويفقـد مقومـات وجوده وشخصيته، كما يضيع الوجوديون اتباع جان بول سارتر، عندما يتجردون عن هوياتهم وماهياتهم التی خلقها الله تعالی عليها (۱)، ولكنّه لا يكاد يتجرّد من الأنا ومعالمه وحدوده حتی يستلمه البحر البشری الكبير فی المطاف، كما تصب سواقی الماء فی النهر الكبير، ويعود فی المطاف إلی لون جديـد من الحياة، وإلی حياة جديدة لم يألفها من قبل بهذه القوة والفاعلية، ولم يتذوقها بهذه الصورة؛ يموت فيه الأنـا، ويبعث الله فی نفسه الإحساس بالجماعـة، وينتقل إلی طور جديـد من الحياة، أهم خصائصه غياب الفرديـة وحضور الله تعالی فی حياته، وسط بحر متلاطم من الناس.

۱- مع فارق جوهری بين طريقـة تفكير (جان بول سارتر) معلم الوجوديـة المعاصـرة (اكزيسـتانياليسم) وبين المنهـج الإلهی فی إعـداد الإنسان للقاء الله.

إنّ المنهـج الإلهی فی إعـداد الإنسان لا ينفی أنّ هذه الخصال الفردية والاجتماعية والقيم واللّاقيم الموجودة عند الإنسان كله من خلق الله، ومغروسـة فی الفطرة ... يقول تعـالی: خُلِقَ الإِنْسانُ مِنْ عَجَلٍ الأنبياء: ۳۷، إِنَّ الإِنْسـانَ خُلِقَ هَلُوعاً* إذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً* وإذا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً المعارج: ۱۹- ۲۰، وَ كانَ الإِنْسانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا الكهف: ۵۴، خُلِقَ الإِنْسانُ ضَعِيفاً النساء: ۲۸.

إنّ الحياء مغروس فی الفطرة، فی خلق الله، وليس من إضافات الأعراف الاجتماعية، كما أنّ الشـهوات مغروسات فی الفطرة، فی مرحلة الخلق، وأنّ النزعات الفردية (الأنا، والحسد، والطمع، والإثرة، والجدل، والرياء، وحب المال والموقع ...) من خلق الله، فی عمق الفطرة، كما أنّ الخصال والنزعات الاجتماعية من خلق الله (الإيثار، والرحمة، والعاطفة، والإنصاف، وحب الآخرين ...).

بينما يری سارتر والمار كسـية أنّ هـذه الخصال والنزعات الفرديـة وكـذلك الاجتماعيـة من إضافات الحياة الاجتماعية، ويولد الإنسان ولا يحمل فی نفسه خصـلة من هـذه الخصال الفرديـة والاجتماعيـة، وإنما يضـيفه إليه الوسط الاجتماعی الـذی يعيشه الإنسان، ويأخذه الإنسان منه.

والإسلام ينفی هذه الكلية، من غير أن ينفی دور الوسط الاجتماعی والتربية فی تحكيم هذه الخصال.

والفارق الآخر بين النهـج الإلهی فی إعـداد الإنسان للقاء الله، والمناهـج البشـرية الوجودية والماركسـية (وهما متقاربان فی هذه النقطة بالـذات)؛ إنّ المنهـج الإلهی يـدعو إلی تحديـد وتعـديل هذه الخصال والنوازع الفردية، ولا يدعو إلی إلغائها، بينما لانعرف للوجودية والماركسية منهجاً تربوياً لتعديل هذه النوازع فی نفس الإنسان.

و هذا الموضوع يحتاج إلی بسط، ليس موضعه هنا.

ص: ٢٠

و يقوى هـذا الإحساس لـدى الإنسان فى المطاف، وفى السعى، وفى الموقف فى عرفات، وفى الإفاضـة إلى المزدلفـة، وفى المزدلفة، وفى منى، وفى العودة إلى الطواف والسعى، ويتضاءل لدى الإنسان المسلم الإحساس بالأنا، ويتأكد لديه الإحساس بالجماعة المسلمة، وبأنه عضو من جسم واحـد، وليس فرداً من مجموعـة إنسانيـة، وبأن هذه الأُمّة كيان واحد (١)، ومصير واحد، وما يصيبه من خير وشر يصيب الجميع، وما يصيب الجماعة يصيبه لامحالة، وبأنه وحده لايستطيع أن يتحرك إلى الله على خطى إبراهيم (ع) إلّا أن يذوب فى هذا الحشد البشرى الكبير المتجه إلى الله.

إنّ النـاس قبل أن يـدخلوا الميقات مجموعـة من الأفراد، يتمايزون فيما بينهم، ويتزايـدون، ويتكاثرون، ويتفاخرون، ويتجادلون، ويضـرّ بعضـهم بعضاً، ويعتدى بعضهم على بعض، وتجمعهم المجامع من المدن، والضواحى، والقرى، فتجتمع فى هذه المجامع هذه النزعات المتضاربـة، والأهواء المتخالفـة، والرغبات المتضادة، وتتقاطع، فتكون المجاميع البشـرية ساحـة للصـراع والخلاف؛ أمّا عنـدما يدخلون الميقـات، ويتجـاوزونه إلى الحرم، ويصـبّون من خلالـ قنوات المواقيت التى وقّتها رسول الله (ص) إلى الحرم، فإنهم يتحوّلون إلى أمّة واحـدة، يتحركون باتجّاه واحـد، ويلبّون دعوة واحـدة، ويلبسون زياً واحـداً، ويطوفون حول كعبـة واحـدة، ويسـعون فى مسار واحـد، ويؤدون مناسك واحـدة، لا يختلفون، ولا يتجادلون، ولا يتفاخرون، ولا يتضاربون، ولايؤذى بعضـهم بعضاً، وكأنّ الحرم يصـهرهم فى بوتقة واحدة، ويجعل منهم كياناً جديداً يختلف عما كانوا عليه.

حرم آمن

و أبرز خصائص هـذا التركيب الجديد للمجتمع البشـرى الذى يسـتحدثه (الحرم) فى حياة الناس هو الأمن والإحساس ب- (الأمن) إنّ هذا الأمن من نتائج هذا

١- إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وأنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ الأنبياء: ٩٢

ص: ۲۱

التركيب البشرى الجديد الذى يجده الناس فى الحرم، وهو فى نفس الوقت من أسبابه وموجباته.

فإنّ الناس إذا شعروا بالأمن، بعضهم من بعض، التقى بعضهم بعضاً فى غير حذر، وتعامل بعضهم مع بعض، وتلاقوا، وتآلفوا، وتعاونوا. فالأمن يُعدّ الناس، ليكونوا أمة واحدة، والأمن يعطى للناس هذه الفرصة التى تتطلبها عملية الانتقال من الحياة الفردية التى يعيشها عامة الناس إلى هذا النمط الجديد الذى يريده الله تعالى لعباده، والذى يرسم (الحرم) نموذجاً لها، كما يصح العكس أيضاً، فإنّ الأمن والإحساس بالأمن هو النتيجة الطبيعية لهذا اللون الجديد من الحياة الاجتماعية، فإنّ الناس عندما يحشرون فى الحرم لايختلفون، ولا يتشاجرون، ولا يتفاخرون، ولا يتزايدون، ولايتضاربون.

الحرم رقعة نموذجية لساحة الحياة

و الله تعالى يريد أن يكون وجه الأرض كله آمناً للناس، يعيش الناس بعضهم مع بعض فى أمن، ودعة، وسلام، لا يحقد بعضهم على بعض، ولا ينوى أحد لأحد شراً يؤثر بعضهم بعضاً على نفسه، ويحب بعضهم بعضاً.

يقول تعالى فى صفة المهاجرين والأنصار فى الصدر الأول من هذا الدين ...

و لكن الناس يرفضون أن يعيشوا كما يريد الله تعالى لهم.

ص: ۲۲

فجعل الله لهم من الحرم (رقعـة نموذجيـة) للحياة الآمنـة التى يريدها للناس بدعاء عبده وخليله إبراهيم (ع) (وإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هـذا بَلَداً آمِناً وارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَراتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ والْيَوْمِ الْآخِرِ). (۱) و قد اسـتجاب الله تعالى لدعاء عبده وخليله إبراهيم (ع) فقـال: (وَ إِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثابَةً لِلنَّاسِ وأَمْناً). (۲)و المثابـة، المحـل الـذى يثوب ويرجع إليه الناس، ويجمع الناس، وقـد جعل الله تعالى البيت مثابـة للنـاس، يجمع النـاس، ويرجعون إليه، ويقصـدونه من كـلّ فـجّ عميق، ثم جعله آمناً يأمن فيه الناس بعضـهم من بعض، ولا يحـذر فيه أحـد الآخرين على نفسه؛ يقول تعالى: (أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنا حَرَماً آمِناً) (۳)، وجعل رقعـة الحرم رقعة نموذجية لساحة الحياة كلها، كما جعل الشهر الذى يؤم فيه الحجاج البيت الحرام، وهو (ذو الحجة) من الأشهر الحرم.

يقول الله تعـالى: (وَ مَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً).(۴) وحتى (الجـدال) الذى يتضـمّن نوعاً من الصدام، يحرمه الله تعالى على الحجاج (فَلا رَفَثَ ولا فُسُوقَ ولا جِدالَ فِي الْحَجِّ). (۵) و الأمن فى الحرم أمن شامل يشـمل حتى الحيوان والنبات، فلا يجوز الصـيد فى الحرم، ولا يجوز قطع النباتات والأشـجار فيه، إلّا فى حالات خاصـة يذكرها الفقهاء، وحرمة الصـيد وقطع النباتات لاتخص حالة الإحرام، فإنهما تحرمان على المحُرِم والمحُل معاً فى منطقة الحرم.

و (الحرم) فى الإسلام عينة صغيرة لساحة الحياة كلها، والذى يحبّ أن يعرف

۱- البقرة: ۱۲۶

۲- البقرة: ۱۲۵

۳- العنكبوت: ۶۷

۴- آل عمران: ۹۷

۵- البقرة: ۱۹۷

ص: ٢٣

رأى الإسلام فى الحياة، فإنّ هذه العينة الصغيرة، والرقعة المحدودة من الأرض، تجسد تخطيط الإسلام لساحة الحياة الواسعة.

فإنّ (العلاقة) فيما بين الناس، والارتباط، والتلاقى، هو الإفراز الطبيعى للحياة الاجتماعية، فمن أجل هذه (العلاقة) و (اللقاء) و (التلاقى) خلق الله تعالى الإنسان اجتماعياً، وأعدّه للحياة الاجتماعية، ولايبلغ الإنسان الكمال والنضج الذى أعدّه الله تعالى له إلّا فى وسط هذه العلاقات واللقاءات، فى الحياة الاجتماعية؛ فلو أنّ إنساناً اعتزل الناس، وعاش وحده فى جزيرة قاصية فى البحر، لم يبلغ بالتأكيد النضج والكمال الذى أعده الله تعالى له، وهذه اللقاءات والعلاقات إنما تثمر، وتعطى، وتنتج فى حياة الإنسان، فيما إذا توفر له الجوّ السليم بالأمن والسلام؛ أمّا عندما تتكوّن هذه العلاقة فى جوّ من الريبة، والحذر، والخوف، والقلق، والعدوان، والكيد، والمكر، فإنّ هذه العلاقة والارتباط فيما بين الناس لا تكاد تثمر هذه الثمرة، ولا تكاد تبلغ بالإنسان النضج والكمال الذى يطلبه الإنسان فى الحياة الاجتماعية من خلال هذه العلاقات، بل قد تعود العلاقة فى مثل هذا الجوّ إلى نتائج سلبية فى حياة الإنسان، وهو كثير.

فالإسلام يخطط بناءاً على هذا الفهم، لإقامة شبكة العلاقات فيما بين الناس، وتنظيمها، وتهذيبها، وتحديدها بالحدود الإلهية الآمنة فى حياة الناس، ليجعل العلاقة فيما بين الناس فى الحياة الاجتماعية فى جوّ آمن وسليم، فيأمن الإنسان الآخرين على نفسه فى حضوره، وغيبته، وفى نفسه، وعرضه، وماله، كما يأمنه الآخرون على أنفسهم و أعراضهم وأموالهم فى الحضور والغياب، ويعيش فى جوّ من الأمن الشامل، ويبنى علاقاته كلها مع الآخرين فى هذا الجوّ الآمن، فى السّراء والضّراء، وفى التجارة والبيع، وفى الزواج والعلاقات الاجتماعية، وفى علاقاته مع أصدقائه وزملائه، وفى علاقاته مع أعضاء أسرته، وفى ارتباطه بمن هو فوقه ومن هو دونه، وحينما يأخذ

ص: ٢۴

وحينما يعطى، وحينما يحتاج إلى الآخرين، وحينما يحتاج إليه الآخرون.

يخطط الإسلام و يعمل ليجعل (العلاقة) فيما بين الناس فى الحياة الاجتماعية على كلّ الأصعدة فى جوّ من الأمن والسلام، لتعطى هذه (العلاقة) الثمرات المطلوبة منها فى الحياة الاجتماعية، ويسعى الإسلام فى هذا التنظيم والتخطيط الشامل للعلاقات الاجتماعية، ليجعل الحياة الاجتماعية حياة آمنة مطمئنة، يعيش الناس فيها بسلام.

(و الحرم)- كما قلنا- عيّنة صغيرة نموذجية من الحياة الآمنة والمطمئنة التى يطلبها الإسلام ... و (الإحرام) عينة أخرى نموذجية للحالة التى يطلبها الإسلام للناس فى الحياة الاجتماعية فى علاقة بعضهم ببعض.

و يعود الحجاج من (الإحرام) و (الحرم) إلى واقع حياتهم، ليأخذوا معهم النموذج الإلهى للحياة وللعلاقات الاجتماعية، ويعيشوا حياتهم بها، أو بما يقرب منها.

***

المرحلة الثالثة: الإنتقال إلى المحور الإلهى

وهذه هى المرحلة الثالثة من رحلة الحجّ الإبراهيمى

فى المرحلة الأولى يتخلّص الإنسان من فرديته، و أنانيته، و أعراض هذه الأنانية.

و فى المرحلة الثانية يصبّ فى الحرم فى الجماعة المسلمة، وينصهر فى هذه الجماعة (الأُمّة).

و فى المرحلة الثالثة وهى الغاية الأخيرة فى هذه الرحلة تصبّ هذه الجماعة فى المطاف حول الكعبة، لتطوف حول الكعبة.

و الكعبة فى لغة الحجّ الرمزية: هى المحوريه الإلهية فى حياة الإنسان، وإذا

ص: ۲۵

استطاع الإنسان فی المرحلة الأولی من هذه الرحلة أن یتخلص من جاذبیة محور (الأنا) فی حیاته، فإنّ المحور الإلهی یجذبه جذباً قویاً بطبیعة الحال إلی المحور الربانی.

و انجذاب الإنسان إلی هذا المحور أمر طبیعی کامن فی عمق فطرة الإنسان، و (الأنا) هو الذی یحجز الإنسان عن هذه الجاذبیة، فإذا تحرّر الإنسان عن حاجز سلطان (الأنا) فإنّ الجاذبیة الإلهیة تجذبه و (الطواف) بعد الإحرام من المیقات یرمز لذلک.

و علیه فإنّ حرکة الطواف نقلة رمزیة تعلیمیة فی حیاة الإنسان من الأنا إلی الله تعالی، و تعبیر رمزی عن التوحید فی حیاة الإنسان المسلم، إلّا أنّ هذا التوحید لیس هو التوحید النظری الذی یعرفه الناس، وإنما هو توحید العبودیة لله، وتوحید الحبّ، والولاء، والاهتمام، کما ترسمه الآیة المبارکة: (قُلْ إِنَّ صَلاتِی ونُسُکِی ومَحْیایَ ومَماتِی لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِینَ* لا شَرِیکَ لَهُ وبِذلِکَ أمِرْتُ وأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِینَ). (۱)إنّ الطواف یرمز إلی الحرکة الإنسانیة الدائمة والمستمرة حول هذا المحور الإلهی فی التاریخ، وإننا لننظر من بعید إلی حرکة التاریخ، فنری: أنّ حرکة التاریخ تجسّد (التوحید) فی حیاة الإنسان، وأنّ الأنبیاء: وأممهم- إلّا فی فترات قصیرة- یجسّدون هذه الحرکة البشریه الدائمة حول محور الألوهیة، فنشعر بحرکة واحدة متصلة متواصلة، یتلقاها رسول من رسول، ونبی عن نبی، منسجمة وعلی صراط واحد، هو صراط الله المستقیم، ولکن عندما ندخل نحن ضمن هذه الحرکة، فسوف نواجه ألواناً من المضایقات، والأذی، والمشاکسات من الهوی فی داخل أنفسنا، ومن الطاغوت فی المجتمع، ومن شیاطین الجن والإنس، الذین یضایقون الناس فی حرکتهم إلی الله، ومن التنافس، والتنابذ، والاختلاف، والتقاطع داخل الحرکة، فیما بین المؤمنین أنفهسم.

و حرکة الطواف حول الکعبة تجسد هذا الواقع بالدقة ... فإذا أطلّ الإنسان من

۱- الأنعام: ۱۶۲- ۱۶۳

ص: ۲۶

أعلى إلى المطاف، يرى حركة دائرية لجماهير الطائفين بصورة مستمرة، وكأن أرض المسجد الحرام تطوف بهم حول البيت على شريط متحرك فى حركة منظمة وهادئة، أمّا إذا دخل فى المطاف، التقى بالوجه الآخر لهذه الحركة الإنسانية حول المحور الإلهى، من المعاناة، ومواجهة العقبات، والمضايقات، والتدافع، وهو يختلف اختلافاً كبيراً عن الوجه الأول الهادئ والمريح.

لماذا عبر الانصهار فى الجماعة؟

فى هذه الرحلة نحن نفهم المنطلق والغاية فى حركة الإنسان بصورة دقيقة، فالمنطلق الذى ينطلق منه الإنسان هو تجاوز الأنا والذات، ويعبّر الإحرام فى الميقات عن هذا المنطلق.

و الغاية هى الحركة إلى الله تعالى، وتوحيد الله تعالى، ويرمز الطواف إلى هذه الغاية.

و لكن الإنسان فى الحج يصل إلى هذه الغاية عبر الانصهار فى الجماعة المسلمة، ومن دون الانصهار فى الأُمّة المسلمة لا يمكن الوصول إلى هذه الغاية.

إنّ التخطيط الإسلامى للحج يؤكّد على ضرورة حضور الأُمّة المسلمة، وتواجدها فى موسم الحج، من كلّ فجّ عميق.(۱)

(وَ أَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالًا وعَلى كُلِّ ضامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ). إنّ هذا الأذان، والأمان الجمعى، والدعوة الإلهية العامة للحج من قبل الله ورسوله، والاستجابة، والتلبية الجمعية من قبل الناس، من كلّ فجّ عميق، يشكل بالتأكيد بعداً هاماً من أبعاد الحج.

و عندما نستعرض آيات الحج، و (الكعبة) و (البيت) فى القرآن، منذ أن رفع إبراهيم وإسماعيل القواعد من البيت، نجد اهتماماً كبيراً بحضور جمهور الناس فى

۱- الحج: ۲۷

ص: ۲۷

هـذا البیت، وفی هذا الموسم، وأبلغ ما فی ذلک تعبیر القرآن عن بیت الله بأنه بیت الناس: (إِنَّ أَوَّلَ بَیْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِی بِبَکَّهَٔ مُبارَکاً وهُدیً لِلْعالَمِینَ* فِیهِ آیاتٌ بَیِّناتٌ مَقامُ إِبْراهِیمَ ومَنْ دَخَلَهُ کانَ آمِناً ولِلَّهِ عَلَی النَّاسِ حِجُّ الْبَیْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَیْهِ سَبِیلًا). (۱) و من عجب أنّ الله تعالی یخصّ الناس- عباده- بأول بیت، وأشرف بیت، ویعلن عنه أنه بیت للناس، ثم یدعو الناس إلیه: (وَ لِلَّهِ عَلَی النَّاسِ حِجُّ الْبَیْتِ).

و فی دعاء إبراهیم (ع) نجد أنّ إبراهیم، خلیل الرحمن، عندما أودع أهله وذریته بهذا الوادی القاحل غیر ذی زرع، دعا الله تعالی أن یجعل أفئدهٔ من الناس تهوی إلیهم: (فَاجْعَلْ أَفْئِدَهًٔ مِنَ النَّاسِ تَهْوِی إِلَیْهِمْ وارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ یَشْکُرُونَ). (۲)و نقرأ فی سورهٔ البقرهٔ: (وَ إِذْ جَعَلْنَا الْبَیْتَ مَثابَهًٔ لِلنَّاسِ وأَمْناً). (۳) فالبیت مثابهٔ للناس، یجتمع الناس حوله، ویثوب إلیه الناس، ویجمع الناس من کل حدب وصوب، ثم نقرأ أننا فی سورهٔ المائدهٔ:

(جَعَلَ اللَّهُ الْکَعْبَهَٔ الْبَیْتَ الْحَرامَ قِیاماً لِلنَّاسِ).(۴)

فالکعبهٔ تقوّم حیاهٔ الناس، وتَقوُم حیاهٔ الناس بها، وعند الإفاضهٔ یأمر الله تعالی عباده أن لا ینفرد بعضهم عن بعض فی الإفاضهٔ، وإنما یفیض کل منهم من حیث أفاض الناس: (ثُمَّ أَفِیضُوا مِنْ حَیْثُ أَفاضَ النَّاسُ واسْتَغْفِرُوا اللَّهَ). (۵) إذن حضور جمهور الناس حول البیت، وتواجدهم فی الموسم، وانصهار الفرد فی البیت والحرم فی وسط جمهور الناس، شیء أساس فی الحج، فی طریق حرکهٔ الإنسان، فی هذه الرحلهٔ الإبراهیمیهٔ، إلی الله تعالی.

۱- آل عمران: ۹۶- ۹۷

۲- إبراهیم: ۳۷

۳- البقرهٔ: ۱۲۵

۴- المائدهٔ: ۹۷

۵- البقرهٔ: ۱۹۹

ص: ۲۸

ونتساءل بعد ذلک لماذا؟

ونتساءل بعد ذلک لماذا؟ (۱)

و هو سؤال هامّ یرتبط بسرّ من أسرار هـذا الـدین، فإنّ هـذا الدین یحرک الإنسان إلی الله تعالی، ولکن من خلال الحضور فی وسط الناس ... ولیس من داخل الکهوف والمغارات فی أعالی الجبال.

فالحج حرکـة إلی الله، ولکن من خلال الانصـهار فی الناس، والصـلاة معراج کل مؤمن، ولکن من خلال الجماعـة، وحتی الاعتکاف الـذی هو نحو من الخلوة یتمّ فی المسـجد الحرام، ومسـجد النبی (ص)، والمسـجد الجـامع فی الکوفـة، والمسـجد الجامع فی أیّ بلـد، ولیس فی مساجـد الصـغیرة، فنسـأل مرة أخری: لمـاذا لاـ تتم حرکـة الإنسان إلی الله فی الحـج إلّا من خلال الانصـهار فی الناس، ومن خلال الحضور فی وسط الناس؟

۱- یوجد نوعان من الخلوات السلوکیه:

خلوات للتأمـل والتفکیر، وهی خلوات مشـروعة، وقـد کان رسول الله ۹ یمـارس هـذه الخلوات قبل المبعث، ولم یرد نهی فی الشـریعة عنها، ولکنها محدودة.

والنوع الثـانی من الخلوات، خلوات للعبـادة ومجاهـدة النفس وکفّ النفس عن شـهواتها وأهوائهـا، واعتزال الحیـاة الاجتماعیـة الحافلة بالمغریات والمزالق ... وقد نهت الشریعة عن هذا النوع من الخلوات واعتبرتها من الرهبانیة المحظورة فی الإسلام.

وقـد روی أنّ رسـول الله ۹ جلس یومـاً للنـاس ووصف یوم القیامـة ولم یزدهم علی التخویف، فرقّ النـاس، وبکوا، فـاجتمع عشـرة من الصـحابة فی بیت عثمـان بن مظعون، واتفقوا علی أن یصوموا النهـار، ویقوموا اللیـل، ولاـ یقربوا النسـاء، ولاـ الطیب، ویلبسوا المسوح، ویرفضوا الدینا، ویسـیحوا فی الأرض، ویترهّبوا؛ فبلغ ذلک النبی (ص) ... فأتی منزل عثمان، فأخبرته زوجته بذلک، فأتی هو وأصحابه إلی النبی (ص)، فقـال: إنی لم أؤمر بـذلک، ثم قـال: إنّ لأنفسـکم علیکم حقـاً، فصوموا وأفطروا، وقوموا ونـاموا، فإنی أصوم، وأفطر، وأقوم، وأنـام، وآکـل اللحم والـدسم، وآتی النسـاء، فمن رغب عن سـنتی فلیس منی، ثم جمع النـاس، فقال: ما بال قوم حرّموا النساء، والطیب، والنوم، وشـهوات الـدنیا..، وأمـا أنـا فلست آمرکم أن تکونوا قسیسـین ورهبانـاً، إنه لیس فی دینی ترک اللحم والنساء واتخاذ الصوامع، إنّ سیاحة أمتی فی الصوم، ورهبانیتها فی الجهاد. (عوالی اللئالی ۴۲: ۲)

وفی روایـة أخری، جاءت امرأة عثمان بن مظعون إلی النبی ۹ فقـالت: یا رسول الله! إنّ عثمان یصوم النهار، ویقوم اللیل، فخرج رسول الله مغضبـاً یحمل نعلیه، حتی جاء إلی عثمان، فوجده یصلّی، فانصرف عثمان حین رأی رسول الله ۹، فقال له: یا عثمان! لم یرسلنی بالرهبانیة، ولکن بعثنی بالحنیفیة السـهلة السـمحة، أصوم وأصـلّی، وألمس أهلی، فمن أحبّ فطرتی فلیستنّ بسنتی، ومن سنتی النکاح. (بحارالانوار ۲۲: ۲۶۴)

ص: ۲۹

والجواب:

إنّ من غير الممكن أن يتجاوز الإنسان (الأنا) فى عزلة من الناس، وهو شرط أساس فى الحركة إلى الله تعالى.

إنّ الإنسـان قـد يتصور إذا اعتزل النـاس وابتعـد عن الحياة الاجتماعيـة، يتحرّر من الأنا والهوى، ولكنه يخطئ كثيراً، فإنّ نزعات الأنانية تبقى مطويـة فى خبايا دهاليز النفس العميقة، وهو غير شاعر بها، فإذا دخل الحياة الاجتماعية، واحتك بالناس وأثاره الناس، برزت هذه النزعات المخبوءة على السطح الظاهر من شخصيته، ولا يمكن اجتثاث هذه النزعات، والقضاء عليها، إلّا فى وسط الحياة الاجتماعية.

إنّ هـذه النزعـات لاـيمكن استئصالهـا إلّا من خلال صـراع مرير مع النفس فى وسط الحياة الاجتماعيـة، ولا شك أنها تختفى فى حياة العزلـة والرهبانيـة، وتبقى كامنة ومختفية فى النفس، ولكنها عندما تصادف فرصة مناسـبة، وجوّاً مناسـباً، تبرز مرة واحدة، ولذلك نجد فشل وانتكاسة الكثير من التجارب الرهبانية عند أوّل احتكاك بالحياة الاجتماعية.

إنّ الحقيقـة المؤسـفة فى هـذه التجارب التجريديـة للنفس: أن النوازع الفرديـة لم تنته، ولم تمت أثناء التجربـة الرهبانية، ولكنها تخمد لعدم وجود الوسط الملائم لبروزها وحركتها، وعند أول احتكاك بواقع الحياة الاجتماعية تعود قوية نشطة.

و لـذلك لابـدّ من هذا الوسط الاجتماعى، والحياة الاجتماعية، والحضور فى وسط المغريات، والمثيرات، والفتن (١)، ليستطيع الإنسان أن يتجاوز (الأنا) بصورة كاملة.

و حقيقـة أخرى لا تقل أهميـة عن الأولى، وهى أنّ حركة الإنسان إلى الله تعالى حركة شاقة، عسـيرة، وصـعبة، ولا يسـتطيع الإنسان أن يطوى هذا الطريق

١- وليس معنى ذلك أن يعرض الإنسان نفسه لمزالق الشيطان، ويحضر مواقع الفتنة، وبين هذا وذاك فرق لا يخفى على اللبيب.

ص: ۳۰

وحـده، فإذا حشـر نفسه فی الجماعـة المؤمنـة، وانصـهر فی وسط الأُمّهٔ، هان علیه السـیر، واسـتطاع أن یطوی معهم هذا الطریق بکفاءهٔ، وجدارهٔ، ویسر.

لذلک نقول فی الصـلاهٔ، ونکرّر فی کلّ یوم عشـر مرات: (إِیَّاکَ نَعْبُدُ وإِیَّاکَ نَسْتَعِینُ)، بصـیغهٔ الجمع، ولیس بصیغهٔ المتکلم لوحده، فإنّ الطریق إلی الله طریق صعب، ولیس من شک أنّ سلوک هذا الطریق وطیّ هذه المسافهٔ مع الجماعهٔ المؤمنهٔ، آمن، وأسلم، وأیسر.

و لذلک نجد أنّ الطریق إلی الله تعالی یتمّ فی الإسلام عبر الحضور فی الجماعهٔ المسلمهٔ، والانصهار فیها، ولیس بمعزل عنها.

الأبعاد الثلاثهٔ للحج:

تلک هی المراحل الثلاثهٔ التی یرسمها الحج، بلغته الرمزیهٔ الخاصهٔ:

۱- مرحلهٔ تجاوز الذات.

۲- مرحلهٔ الانصهار فی الجماعهٔ.

۳- مرحلهٔ الحرکهٔ إلی الله.

و هـذه المراحـل الثلاثـهٔ هی الأـطراف الثلاثـهٔ فی علاقات الإنسان، فإنّ للإنسان علاقـهٔ بالله تعالی أولًا، وعلاقـهٔ بالمجتمع ثانیاً، وعلاقهٔ بنفسه ثالثاً.

و هذه العلاقات الثلاثهٔ منظورهٔ جمیعاً فی الحج فی هذه المراحل الثلاثهٔ، ومن عجب أن تکون علاقهٔ الإنسان بالجماعه وانصـهاره فیها، هو الجسـر الـذی یوصل الإنسان إلی الله تعالی، ولیس هو الحاجز والحجاب والعقبـهٔ، کما فی التصورات الرهبانیـهٔ المجافیـهٔ لروح هذا الدین.

***

ص: ۳۱

البيت الحرام

اشارة

ص:۳۲

ص: ۳۳

(جَعَلَ اللهُ الْکَعْبَةَ الْبَیْتَ الْحَرامَ قِیاماً لِلنَّاسِ)(۱) .

یطلق «البیت الحرام» فی القرآن علی الکعبة المشرفة، وتتضمن هذه الکلمة مفردتین:

(البیت) و (الحرام).

وفیما یلی سأتحدث إن شاء الله عن کل من هاتین الکلمتین، ونبدأ بالحدیث عن (البیت).

۱- البیت

اشارة

یکثر فی القرآن استعمال (البیت) فی الکعبة الشریفة، وفیما یلی نذکر طائفة من آیات کتاب الله، التی أطلقت کلمة (البیت) علی (الکعبة):

(وَ إِذْ یَرْفَعُ إِبْراهِیمُ الْقَواعِدَ مِنَ الْبَیْتِ وَ إِسْماعِیلُ)(۲) .

(فَمَنْ حَجَّ الْبَیْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُناحَ عَلَیْهِ أَنْ یَطَّوَّفَ بِهِما) (۳).

(وَ إِذْ جَعَلْنَا الْبَیْتَ مَثابَةً لِلنَّاسِ وَ أَمْناً)(۴) .

۱- المائدة: ۹۷

۲- البقرة: ۱۲۷

۳- البقرة: ۱۵۸

۴- البقرة: ۱۲۵

ص: ۳۴

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِی بِبَکَّهَ مُبارَکاً)(۱) .

(وَ لِلَّهِ عَلَی النَّاسِ حِجُّ الْبَیْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَیْهِ سَبِیلًا)(۲).

مقوّمات البيت:

ولا بد من أن نقف وقفة تأمل قصيرة عند هذه الكلمة.

إن للبيت مقومات ثلاثة:

۱- فالبيت يجمع شمل الأسرة الواحدة من نسيج حضاری واحد.

۲- وفی البيت يجد الإنسان (سكناً) واستقراراً لا يجده فی غيره، وفی أی مكان آخر علی وجه الأرض. يقول تعالی (وَ اللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً) (۳).

و (السكن) هو ما يطمئن إليه الإنسان، ويجد فيه استقراره النفسی، ويركن إليه.

وقد عَدَّ الله تعالی (الصلاة) و (الليل) و (الدار) الّتی يؤوی إليها الناس سكناً.

يقول تعالی: (وَ صَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ) (۴).

فالإنسان يسكن إلی الصلاة والدعاء واللجوء إلی الله تعالی، ويجد فی كلّ ذلك سكناً، تطمئن به نفسه وقلبه (أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) وطمأنينة القلوب، وسكون النفس من مقولة واحدة.

والليل، يسكن إليه الإنسان، ويجد فيه راحة من زحمة النهار ومتاعبه، يقول تعالی: (وَ جَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً) (۵).

۱- آل عمران: ۹۶

۲- آل عمران: ۹۰

۳- النحل: ۸۰

۴- التوبة: ۱۰۳

۵- الانعام: ۹۶

ص: ۳۵

والدار التی یسکنها الإنسان هی الأخری سکن وقرار له. یقول تعالی: (وَ اللهُ جَعَلَ لَکُمْ مِنْ بُیُوتِکُمْ سَکَناً)(۱) .

۳- إضافةً الی ما یتذوقه الإنسان فی البیت من (السکن والاستقرار النفسی) ... یجد فی البیت (الأمان) أیضاً، فإنَّ للبیت فی المجتمعات البشریّة حرمة وأماناً، وقد یخترق الظالمون هذه الحرمة ویدخلون الرعب الی (البیوت)، ولکن یبقی الأصل فی (البیت) الحرمة والأمان، ولیس لأحد الحقُّ أن یخترق هذه الحرمة والأمان إلا بموجب القانون الذی یحمی حرمة المجتمع وأمن المجتمع؛ وحرَّم القرآن علی الذین آمنوا أن یدخلوا بیوتاً غیر بیوتهم إلا بعد الاستیناس والسلام والإذن من أصحابها، یقول تعالی: (یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُیُوتاً غَیْرَ بُیُوتِکُمْ حَتَّی تَسْتَأْنِسُوا وَ تُسَلِّمُوا عَلی أَهْلِها ذلِکُمْ خَیْرٌ لَکُمْ لَعَلَّکُمْ تَذَکَّرُونَ* فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِیها أَحَداً فَلا تَدْخُلُوها حَتَّی یُؤْذَنَ لَکُمْ وَ إِنْ قِیلَ لَکُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْکی لَکُمْ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ عَلِیمٌ)(۲) .

(البیت) والانتماء الحضاری

یعیش الناس علی وجه الأرض علی حالتین حالة الانتماء الحضاری وحالة اللاانتماء، والحالة الأولی هی: حالة الحیاة البیتیة، والحالة الثانیة هی: حالة الغربة الحضاریة واللاانتماء.

وحالة (البیت) هی حالة الانتماء والتآلف والتعاون، وفی هذا النمط من الحیاة یُحِسّ الإنسان بالعلاقة العضویة بالمجتمع الذی یحتضنه ویؤویه، ویتذوق التآلف والتعارف فی الحیاة الاجتماعیة، وهذه الحالة هی حالة الإنسان الذی ینتمی

۱- النحل: ۸۰

۲- النور: ۲۷، ۲۸

ص: ۳۶

الى البيت.

والحالـة الأخرى هى حالـة اللاانتماء، وهى حالـة لا حضاريـة يفقـد فيها الإنسان الإحساس بالعلاقة العضويّة بالمجتمع الذى يعيش فيه، ويفقـد فيها الإحساس بالتآلف والتعارف، ويسيطر عليه شـعور غريب ب- (الغربـة)، وهـذه الحالة هى حالة الإنسان الذى لا ينتمى الى بيت.

ومن يقرأ رواية (الغريب) (۱)... يشـعر بصورة دقيقة بعمق الشـعور بالغربة فى نفس الإنسان المعاصـر، وهذه هى حالة عدم الانتماء الى بيت يجمع شمل المجتمع.

إذن فى حياة الناس حالتان: حالة البيت، وحالة اللابيت.

وحالة البيت ليست حالة واحدة، بل حالتين: بيت التوحيد وبيت الشرك، ونتحدث الآن عن هذين البيتين فى حياة الناس.

بيت التوحيد وبيت الشرك:

يعبّر كـل من هـذين البيتين عن حالـة الإنتماء الحضاريـة فى حياة الإنسان، غير أن البيت الأوّل انتماء الى أسـرة التوحيـد، والبيت الثانى انتماء الى أسرة الشرك، وكل منهما انتماء، ولا يصح أن نتصور أن حالة الشرك والكفر لا تعبر عن الإنتماء غير أن الانتماء انتماءان.

وكـل من هـذين الإنتمـاءين يتألّف من نسـيج حضارى تحكمه شـبكة من العلاقات العضويـة. والقرآن يقرر هـذه الحقيقـة فى كل من هـذين البيتين، يقول تعـالى عن العلاقـة العضويـة داخل البيت الأول: (وَ الَّذِينَ آوَوْا وَ نَصَـرُوا أُولئِكَ بَعْضُـهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ) (۲) الذين آووا ونصـروا فى التاريخ، وعلى وجه الأرض أسـرة واحدة، أينما كانوا من الأرض، ومن التاريخ ... بعضـهم أولياء بعض، ولا تضـعف وشيجة

۱- ۱ قصة وجودية معروفة لالبيركامو مترجمة إلى العربية تعبر عن حالة الغربة الحضارية للإنسان.

۲- المائدة: ۵۱

ص: ۳۷

الولاء بالفواصل المكانية والزمانية الشاسعة ولا باختلاف اللغات والألوان والدماء.

ولوشيجة (الولاء) أصولها وأحكامها ومقوماتها. وهذه الوشيجة هى التى تحفظ أُسرة التوحيد من التفكّك والتفرق والتمزق، والعقم والتعطيل فى التاريخ.

إلّا أنّ هذه العلاقة العضوية لا تخصّ أسرة التوحيد ... فإن الذين كفروا، فى أنحاء الأرض وفى التاريخ أيضاً، أسرة واحدة، على وجه الأرض، فى مواجهة أسرة التوحيد، رغم كل الخلاف الثقافى والسياسى والعسكرى فيما بينهم، داخل هذه الأُسرة.

يقول تعالى فى الوشيجة الحضارية داخل الأسرة الكافرة: (وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ)، ويقول تعالى عن حالة النفاق والمنافقين: (الْمُنافِقُونَ وَ الْمُنافِقاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ) ((۱))، ولا أعرف تعبيراً أدق فى تصوير حالة الانتماء والعلاقة العضوية داخل هذه الأسرة من قوله تعالى: (بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ) وقوله تعالى: (بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ) و فى داخل هذه الأسرة الكبيرة أُسرٌ صغيرة أيضاً (بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ) على درجات مختلفة من القوة والضعف، ولكن تبقى القاعدة الثابتة فى كلّ الحالات، وفى المجتمعات الصغيرة والمجتمع الكبير أنها بعضها من بعض.

وليس معنى ذلك أن الأسرة الكافرة تابعة لمحور ولاء واحد، فهى قد تكون ولاءات متعددة، وصدق الله تعالى فى التعبير عن هذه الحقيقة حيث يقول: (اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِياؤُهُمُ الطَّاغُوتُ) (۲) فالذين كفروا لهم ولاءات عديدة، إلا أنهم لهم براءة واحدة، لا يختلفون فيها وهى البراءة من الذين آمنوا.

۱- ۲ التوبة: ۶۷

۲- البقرة: ۲۵۷

ص: ۳۸

یقول تعالی: (ما یَوَدُّ الَّذِینَ کَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْکِتابِ وَ لَا الْمُشْرِکِینَ أَنْ یُنَزَّلَ عَلَیْکُمْ مِنْ خَیْرٍ مِنْ رَبِّکُمْ) (۱) ویقول تعالی: (وَ لا یَزالُونَ یُقاتِلُونَکُمْ حَتَّی یَرُدُّوکُمْ عَنْ دِینِکُمْ إِنِ اسْتَطاعُوا) (۲) وهذه البراءة الواحدة تجعلهم صفاً واحداً کتلة واحدة، کلما اقتضی الأمر، فی مواجهة الأمّة المسلمة، وتکسبهم بذلک حالة الولاء الواحدة، فتکون عندئذ کما قال ربنا: (بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ) و (بَعْضُهُمْ أَوْلِیاءُ بَعْضٍ). فالذین کفروا، إذن رغم کلّ الصراع والخلاف المنتشر بینهم أمة واحدة، وأسرة واحدة، وکتلة واحدة فی مواجهة الذین آمنوا، ولنقرأ بیان هذه الحقیقة الخطیرة من کتاب الله: (یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْیَهُودَ وَ النَّصاری أَوْلِیاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِیاءُ بَعْضٍ) . وفی سورة الأنفال: (وَ الَّذِینَ کَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِیاءُ بَعْضٍ).(۳)

إذن هناک فی التاریخ بیتان، وعلی وجه الأرض (بیتان) و (أسرتان) و (جبهتان) و (انتماءان) انتماء الی الله ورسوله وإلی الذین آمنوا، وهذا هو الانتماء الأول، وله عمق وجذور ضاربة فی التاریخ منذ إدریس، ونوح، وإبراهیم

والامتداد الآخر انتماء إلی الذین کفروا، وهذا هو الانتماء الثانی.

وکل منهما (بیت)، تحکمه علاقات البیت الواحد، من حیث الولاء والبراءة.

أیّ البیتین أَقدم؟

إذا عرفنا أنّ هناک بیتین فی التاریخ، وعلی وجه الأرض، فإنَّ من الطبیعی أن نتساءل أیّ البیتین أسبق وأَقدم فی التاریخ ... بیت التوحید أم بیت الشرک؟

۱- البقرة: ۱۰۵

۲- البقرة: ۲۱۷

۳- المائدة: ۵۱

ص: ۳۹

الـذی یقرره القرآن: أن النـاس کـل النـاس کـانوا علی هـدی التوحیـد بـالفطرة، ثـم اختلفـوا بعـد ذلـک فبعث الله تعـالی فیهم النـبیین والمرسلین مبشرین ومنذرین.

یقول تعالی: (وَ ما کانَ النّاسُ إِلّا أُمَّةً واحِدَةً فَاخْتَلَفُوا)(۱) .

ویقول تعـالی: (کـانَ النّاسُ أُمَّةً واحِـدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِیِّینَ مُبَشِّرِینَ وَ مُنْـذِرِینَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْکِتابَ بِالْحَقِّ لِیَحْکُمَ بَیْنَ النّاسِ فِیمَا اخْتَلَفُوا فِیهِ) (۲).

إذن البیت الأول فی التاریخ هو (بیت التوحید)، ولما اختلف الناس وانشـقّوا عن التوحید أقاموا لأنفسهم بیتاً بدیلًا، بدلًا عن البیت الذی أقامه الله تعالی لهم.

فکان هذا البیت الثانی متأخّراً عن البیت الأول، وانشقاقاً علی البیت الأول، وخروجاً علی أصوله وقیمه وأحکامه.

الصراع بین البیتین:

ومنـذ أن انشقَّ البیت الثـانی عن البیت الأـول اسـتقر بینهمـا الصـراع الی الیوم، ولا یزال الصـراع قائماً بینهما، حتی یقضـی الله أمراً کان مفعولا.

والصـراع بین هـذین البیتین من حتمیـات التاریـخ، ورغم کل شـراسَهْ الشـرک فی ضـرب قلاع التوحیـد، فإن بیت التوحیـد بیت مقاوم وصـعب، وبیت الشـرک بیت موهون وضـعیف کبیت العنکبوت، یتخـذه العنکبوت لیکون لها وقایـهْ وأمناً، فتمزقه الریاح وتبدده (مَثَلُ الَّذِینَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللّهِ أَوْلِیاءَ کَمَثَلِ الْعَنْکَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَیْتاً وَ إِنَّ أَوْهَنَ الْبُیُوتِ لَبَیْتُ الْعَنْکَبُوتِ لَوْ کانُوا یَعْلَمُونَ).(۳)

۱- یونس: ۱۹

۲- البقرهْ: ۲۱۳

۳- العنکبوت: ۴۰

ص: ۴۰

الكعبة بيت الموحدين

وقرّر الله تعالى أن تكون الكعبـة المشـرفة بيتاً للموحـدين، يجمع شـملهم من نقاط شتى من الأرض، ويوحدّ جهة حركتهم على امتداد التأريخ، ويؤلّف بين قلوبهم، ويوحّدها، برغم الفواصل المكانية والزمانية الكثيرة، ويؤلّف بين قلوبهم، ويُعرّف بينهم.

والمعمار الأول لهذا البيت هو إبراهيم (ع) وابنه إسماعيل:

و قداستولى المشركون على البيت ردحاً من الزمان، ولكن هذا البيت للمتقين حصراً بقرار من الله تعالى صاحب البيت.

وهذا فارق جوهرى بين هذا البيت، وبيوت الشرك، فإن أولياء هذا البيت المتقون حصراً، حتى إذا تسلط عليه الجائرون والمشركون.

وأما غير هذا البيت من بيوت الشرك والكفر فلا يتولاه إلا الجبابرة والطغاة، والصادون عن سبيل الله.

و روّاد هذا البيت، بعكس روّاد البيوت الأخرى، هم الطائفون والعاكفون والركع السجود.

وهذا هو الفارق الجوهرى الآخر بين هذا البيت والبيوت التى يقيمها الكافرون

ص: ۴۱

لأنفسهم فى الأرض.

فإن هذا البيت رواده الطائفون، العاكفون، الركع السجود، المسبحون، الذاكرون، بينما يرتاد البيوت التى يقيمها الكافرون أهل البطر وأهل الرياء من الناس، ومن لا يطلب فى عمله وحركته وجه الله.

الكعبة البيت الأول على وجه الأرض

والكعبة، بصراحة القرآن، أول بيت وضع للناس، يقول تعالى:

كان لابد لأسرة التوحيد فى التاريخ، وعلى وجه الأرض، من موضع يجمع شملهم، ويوحّد جهة حركتهم، ويقرّب، ويعرّف، ويؤلف بينهم، فأَمَر الله تعالى إبراهيم وإسماعيل ببناء الكعبة المشرفة؛ ليتخذه الناس (أهل التوحيد) بيتاً لهم، وليكون لهم سكناً، وأَمناً، ومحلا يجمع شملهم.

وهو أول بيت للناس، وبعد ذلك عمّر أولياء الله بيوتاً كثيرة للناس على وجه الأرض.

وأما البيوت التى أقامها المشركون للبطر والرياء فلم تكن لخدمة الناس وتوجيههم إلى الله، وإنما كانت لتضليل الناس، واستعبادهم، وصدّهم عن سبيل الله، ولم تكن بأمر الله، وإنما كانت بإغراء وإغواء من الشيطان، لدعوة الناس إلى الانشقاق على التمرد على حدود الله، وليأوى إليه المنشقون على حدود الله وأحكامه.

ص: ۴۲

الکعبهٔ (بیت الله) و (بیت الناس)

الکعبهٔ، بصراحهٔ القرآن (بیت الله) وفی نفس الوقت (بیت الناس) أیضاً.
وسوف نقدم إن شاء الله توضیحاً لهاتین النسبتین للکعبهٔ الشریفهٔ فیما یلی:

بیت الله

الکعبهٔ (بیت الله) بصریح القرآن؛ نسبه الله تعالی إلی نفسه، ونسبه إلیه تعالی عبده وخلیله إبراهیم، وأنبیاؤه (علیهم السلام).
یقول تعالی لعبدیه وخلیلیه إبراهیم وإسماعیل (علیهما السلام): (طَهِّرا بَیْتِیَ لِلطَّائِفِینَ وَ الْعاکِفِینَ وَ الرُّکَّعِ السُّجُودِ).(۱) وینسب إبراهیم (ع) البیت إلی الله، فیقول کما یحدثنا القرآن: (رَبَّنا إِنِّی أَسْکَنْتُ مِنْ ذُرِّیَّتِی بِوادٍ غَیْرِ ذِی زَرْعٍ عِنْدَ بَیْتِکَ الْمُحَرَّمِ)(۲) والله تعالی بَوَّأ لإبراهیم (ع) مکان البیت من الأرض یقول تعالی:
والله تعالی أمر إبراهیم (ع) أن یطهر بیته ویُعِدّه للطائفین والعاکفین والقائمین والرکع السجود من عباده (وَ طَهِّرْ بَیْتِیَ لِلطَّائِفِینَ وَ الْقائِمِینَ وَ الرُّکَّعِ السُّجُودِ).
وأمر الله تعالی عبده وخلیله إبراهیم أن یعلن فی الناس حجّ هذا البیت، ویدعو الناس إلیه.
والله تعالی جذب أفئدهٔ الناس من کلّ فجّ عمیق إلی هذا البیت، وإلی

۱- الحج: ۲۶
۲- إبراهیم: ۳۷

ص: ۴۳

الاستجابه لأذان إبراهيم (ع) (يَأْتُوكَ رِجالًا وَ عَلى كُلِّ ضامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ). (۱)

منزلة الكعبة عند الله:

وهذا البيت أحبّ بقاع الأرض إلى الله تعالى.

روى الصدوق فى الفقيه، عن سعيد بن الأعرج، عن أبى عبد الله (ع)، قال: أحبّ الأرض إلى الله تعالى مكة، وما تربة أحبّ إلى الله عز وجل من تربتها، ولا حجر أحبّ إلى الله من حجرها، ولا شجر أحبّ إلى الله من شجرها، ولا جبال أحبّ إلى الله من جبالها. (۲)وروى الكلينى عن ابن أبى عمير عن زرارة، قال: كنت قاعداً إلى جنب أبى‌جعفر (ع)، وهو مستقبل الكعبة، فقال: (أما إنّ النظر اليها عبادة).

فجاءه رجل، من بجيلة يقال له: عاصم بن عمر، فقال لأبى جعفر (ع): إن كعب الأحبار كان يقول: إنّ الكعبة تسجد لبيت المقدس فى كل غداة.

فقال أبو جعفر (ع): فما تقول فيما قال كعب الأحبار؟ فقال: صدق. القول ما قال‌كعب.

فقال أبو جعفر (ع): كذبت وكذب كعب الأحبار معك، وغضب.

قال زرارة: ما رايته إستقبل أحداً بقول: كذبت، غيره.

قال (ع): ما خلق الله عز وجل بقعة فى الأرض أحبّ إليه منها؛ ثم أومأ بيده نحو الكعبة، ولا أكرم على الله عز وجل منها، لها حرّم الله عز وجل الأشهر الحرم فى كتابه، يوم خلق السماوات والأرض ثلاثة متوالية للحجّ: شوال، وذو القعدة،

۱- الحج: ۲۷

۲- من لا يحضره الفقيه ۲/ ۱۶۲

ص: ۴۴

وذو الحجة، وشهر مفرد للعمرة، رجب.(۱) وقد تظافرت الروايات: إنّ النظر إلى الكعبة عبادة.

روى حريز عن أبى عبد الله (الصادق) (ع) قال:

النظر إلى الكعبة عبادة، والنظر إلى الوالدين عبادة، والنظر إلى الإمام عبادة. وقال: مَن نظر إلى الكعبة كتبت له حسنة، ومحيت عنه عشر سيئات. (۲) وعن سيف التمار عن أبى عبد الله (ع) قال: من نظر إلى الكعبة لم يزل تكتب له حسنة، وتمحى عنه سيئة حتى ينصرف ببصره عنها. (۳)وعن أبى عبد الله الصادق (ع)، قال: من أيسر ما يعطى من ينظر إلى الكعبة أن يعطيه الله بكل نظرة حسنة، وتمحى عنه سيئة وترفع له درجة.(۴)

بيت الناس

والكعبة بيت الناس، جعله الله للناس بيتاً، يَأوون ويثوبون إليه، ويتآلفون ويتعارفون فى رحابه؛ يقول تعالى: (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبارَكاً).(۵) فما هى علاقة هذا البيت بالناس، بعد علاقته بالله تعالى؟

من خلال كتاب الله نتعرف على وجوه ثلاثة لهذه العلاقة.

فهو مسجد للناس أولًا، ومثابة للناس ثانياً، وقوام معايش الناس، ومصالحهم فى الدنيا، ومنازلهم ومواقعهم من الله فى الآخرة ثالثاً.

وإليكم إيضاحاً لهذه الأنحاء الثلاثة من علاقة البيت بالناس من خلال

۱- الكافى، الفروع ۲۳۱: ۱، ووسائل الشيعه ۳۶۳: ۹

۲- وسائل الشيعة ۳۶۴: ۹

۳- المصدر نفسه.

۴- المحاسن للبرقى ۶۹

۵- آل عمران: ۹۶

ص: ۴۵

كتاب‌الله.

۱- الكعبـة مسـجد للناس، وفى رحابها يجتمع الطائفون، العاكفون، القائمون، الراكعون، الساجـدون، المسـبحون، الـذاكرون الله كثيراً؛ ليذكروا الله كثيراً، ويسبحوه، ويطوفوا له، ويعكفوا فى بيته.

يقول تعالى:

ويقول تعالى:

ويُسْكن إبراهيم أبو الأنبياء (ع) ذريته عند البيت الحرام؛ ليقيموا فيه لله الصلاة.

إذن، فقـد وضع الله تعالى هـذا البيت للناس؛ ليتخـذوه مسـجداً، ومصـلى ومطافاً، ومقاماً بين يديه تعالى ... ومن هذا البيت ينطلق الناس الى الله، وفى هذا البيت أَمر الله تعالى عباده أن يعبدوه، ويوحّدوه، ويسبحوه ويذكروه كثيراً.

۲- والكعبـة مثابـة للناس يثوبون إليها، فيجتمع بعضـهم ببعض، والخلف بالسـلف، والإنسان بنفسه، يقول تعالى: (وَ إِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثابَةً لِلنَّاسِ) ومن طبيعة الحياة الدنيا أنها تشتت، وتُقَطِّع وتُغيّب.

تشتت الناس بعضهم عن بعض.

وتُقَطّع الناس عن أصولهم.

ص: ۴۶

وتُغيب الإنسان عن نفسه.

وهـذا التشتيت والتقطيع والتغييب، يَضُـرُّ الإنسان، ويفسده ويغرّبه (يشـعره بالغربَة)، ويحجبه عن أصوله وشـمله، فلابد للإنسان من محل يثوب إليه، يجمع شملهم بعضهم ببعض، ويصل الإنسان بأصوله، ويعيد الإنسان الى نفسه.

والكعبة هى هذه المثابة التى جعلها الله تعالى للناس، فهى تجمع الناس كل سنة مرة منذ أن أذّن إبراهيم (ع) فى الناس بالحج إلى اليوم (وَ أَذِّنْ فِی النَّاسِ بِالْحَجِّ یَأْتُوکَ رِجالًا وَ عَلی کُلِّ ضامِرٍ یَأْتِینَ مِنْ کُلِّ فَجٍّ عَمِیقٍ).

ویجمع النـاس فی کل یوم خمس مرات من شتی مناطق الأرض، یسـتقبلونها فی صـلواتهم، یقول تعالی: (فَوَلِّ وَجْهَکَ شَـطْرَ الْمَسْـجِدِ الْحَرامِ وَ حَیْثُ ما کُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَکُمْ شَطْرَهُ). (۱) فیجد المسـلمون الموحّدون، الذین أسلموا وجوههم لله علی ملّة إبراهیم فی الکعبة مثابة لهم، تجمعهم کلّما تشتتوا، وتوحّد حرکتهم کلما تفرقت بهم المذاهب والمسالک فی الحیاة الدنیا.

وتصـل الخلف بالسـلف، کلما قطعت الحیاة الـدنیا هـذه الأواصـر التی تربط الأبناء بالآباء، فیعیـدهم البیت الحرام إلی آبائهم وأصولهم إبراهیم وإسماعیل، ویأمرهم الله تعالی أن یتخذوا من مقام إبراهیم مصلی (وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِیمَ مُصَلًّی).

فیـذکّرهم (المقام) بإبراهیم، و (الحجر وزمزم) بإسـماعیل و (الصـفا والمروة) بهاجر، ویـذکرهم البیت الحرام بالأنبیاء الذین طافوا بهذا البیت، وحجوا إلیه (علیهم السلام).

وإذا عاد الناس الذین أسلموا لله حنفاء، بعضهم إلی بعض، وعادوا إلی أصولهم وأسلافهم ... عادوا إلی أنفسهم، ولم یضیعوا فی زحمة الحیاة.

فالکعبة تشعر هذه الأمة بعرضها العریض علی وجه الأرض، وعمقها

۱- البقرة: ۱۴۴

ص: ۴۷

فی التأريخ.

إن المسلم الذی یحضر ضمن هذا الحشد الهائل من حجاج بیت الله الحرام ... یلمس فی الحج حجمه وعمقه ونفسه، فیلمس حجمه الحقیقی فی الحشد الهائل الذی یقصد الحج من مختلف مناطق الأرض، ویلمس فی الحج عمقه الحقیقی، عندما تذکره الکعبة وأجواؤها بجذوره التأریخیه الضاربة فی أعماق التاریخ، ویشعره الحج بأنه فرع من الشجرة الطیبة التی تضرب أصولها فی أعماق الأرض، وفروعها فی السماء، وأعظم من هذا کله أنّه یجد نفسه عند الکعبة عندما یتعرف علی أصوله وأسرته وبیته.

وهذا هو البعد الأول من هذه المعرفة وهو بعد «الولاء».

والبعد الثانی هو بعد «البراءة»، فإن البیت الحرام کما یصل الإنسان بالله تعالی، وبأصوله وجذوره الممتدة فی التأریخ، وبأسرة التوحید الکبیرة علی وجه الأرض، کذلک یقطعه عن المشرکین ویفصل بینه وبین أسرة الکفر والشرک علی وجه الأرض وفی التأریخ.

ففی رحاب الکعبة إذن یثوب الناس إلی أصولهم، وأسرتهم، وبیتهم، ویتمیزون، وینفصلون عن المشرکین والکفار.

یقول تعالی: (وَ أَذانٌ مِنَ اللهِ وَ رَسُولِهِ إِلَی النَّاسِ یَوْمَ الْحَجِّ الأَکْبَرِ أَنَّ اللهَ بَرِیءٌ مِنَ الْمُشْرِکِینَ وَ رَسُولُهُ). (۱) ۳- والکعبة تؤمّن معیشة الناس، وتقوّم معایشهم فی دنیاهم، کما تُقوّم آخرتهم.

وهذه الحقیقة یذکرها الله تعالی لعبده وخلیله إبراهیم (ع) عندما أمره أن یؤذّن فی الناس بالحج.

۱- التوبة: ۳

ص: ۴۸

(وَ أَذِّنْ فِی النَّاسِ بِالْحَجِّ یَأْتُوکَ رِجالًا وَ عَلی کُلِّ ضامِرٍ یَأْتِینَ مِنْ کُلِّ فَجٍّ عَمِیقٍ* لِیَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَ یَذْکُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِی أَیَّامٍ مَعْلُوماتٍ عَلی ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِیمَهِٔ الْأَنْعامِ). (۱) کما أنّ هذه القضیهٔ وردت فی دعاء إبراهیم (ع)، عندما أودع أهله وذریته بوادٍ غیر ذی زرع عند البیت المحرم لیقیموا الصلاهٔ.

فقد دعا الله تعالی أن یجعل أفئدهٔ من الناس تهوی إلیهم، ویرزقهم من الثمرات.

(فَاجْعَلْ أَفْئِدَهًٔ مِنَ النَّاسِ تَهْوِی إِلَیْهِمْ وَ ارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ یَشْکُرُونَ). (۲) وقد استجاب الله دعاء عبده وخلیله إبراهیم (ع).

الکعبهٔ قیام للناس

فالکعبهٔ إذن قضیهٔ کُبری وأساسیهٔ فی حیاهٔ الناس، لا یستغنی عنها الناس فی دنیاهم، ولا فی آخرتهم، ولا یستغنون عنها فی سلم أو فی حرب، ولا فی ولاء من یجب ولاؤه، ولا فی البراءهٔ عمن تجب البراءهٔ عنه.

فهی إذن قوام حیاهٔ الناس، یقول تعالی: (جَعَلَ اللهُ الْکَعْبَهَٔ الْبَیْتَ الْحَرامَ قِیاماً لِلنَّاسِ).(۳) و «القیام» هو ما یُقوّم حیاهٔ الناس.

وقد ذکر الله تعالی فی کتابه المال، وقال عنه: إنه قیام للناس، قال تعالی: (وَ لا تُؤْتُوا السُّفَهاءَ أَمْوالَکُمُ الَّتِی جَعَلَ اللَّهُ لَکُمْ قِیاماً).(۴)

۱- الحج: ۲۷- ۲۸

۲- إبراهیم: ۳۷

۳- المائدهٔ: ۹۷

۴- النساء: ۵

ص: ۴۹

والكعبة، قيام للناس، يُقَوِّم حياة الناس ومعايشهم فى الدنيا، كما تُقوّم آخرتهم، فيَستقيم بها دينهم ودنياهم وآخرتهم.

وقد روى: «لا يزال الدين قائماً ما قامت الكعبة». (۱)فإن الكعبة تُقوّم دين الناس ودنياهم، وتدفع عنهم العذاب الذى يستحقه الناس بأعمالهم.

عن أبى عبد الله الصادق (ع) قال: لو ترك الناس الحجّ أنزل عليهم العذاب. (۲) وعن عبد الرحمن بن أبى عبد الله، قال: قلت لأبى عبد الله (ع): إنّ ناساً من هؤلاء القصاص يقولون: إذا حج الرجل حجة ثم تصدّق ووصل كان خيراً له، فقال: كذبوا، لو فعل هذا الناس لعُطِّل هذا البيت، إن الله عز وجل جعل هذا البيت قياماً للناس. (۳)

الكعبة مباركة

وجعل الله الكعبة مباركة فى الحياة، تستنزل رحمة الله تعالى وبركاته على الناس، يقول تعالى:

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبارَكاً وَ هُدىً لِلْعالَمِينَ). (۴) فهى من منازل رحمة الله على الناس.

روى معاوية بن عمار، عن أبى عبد الله (ع) قال: إنّ الله تبارك وتعالى جعل حول الكعبة عشرين ومائة رحمة، منها ستون للطائفين، وأربعون للمصلين، وعشرون للناظرين. (۵)

۱- وسائل الشيعة ۱۴: ۸

۲- المصدر نفسه ۱۳: ۸

۳- المصدر نفسه ۱۴: ۸

۴- آل عمران: ۱۹۶

۵- وسائل الشيعة ۳۶۳: ۹

ص: ۵۰

وعن الحسن بن راشـد عن أبی عبـد الله (ع)، قـال: «قال أمیر المؤمنین (ع): إذا خرجتم حجاجاً الی بیت الله، فأکثروا النظر الی بیت الله، فإن لله مائة وعشرین رحمة عند بیته الحرام: ستون للطائفین، وأربعون للمصلین، وعشرون للناظرین»(۱) .

هذا إجمال من رسالة الکعبة ودورها فی حیاة الناس، فهی تشدّهم بالله تعالی وبأولیائه، وتشدّهم بأسرة التوحید علی وجه الأرض، وفی التاریـخ، وتجمع شـملهم، وتؤلف بین قلوبهم، وتوحد حرکتهم، وتعرّف بینهم، وتؤلف بین قلوبهم، وتعیدهم إلی أنفسـهم، وتُقوّم لهم معایشهم فی دنیاهم، ومنازلهم من الله فی آخرتهم.

۲- الحرام

اشارة

الحرام والحرمة بمعنی الحظر والمنع.

یقول تعالی:

(وَ لا تَقُولُوا لِما تَصِفُ أَلْسِـنَتُکُمُ الْکَذِبَ هذا حَلالٌ وَ هذا حَرامٌ).(۲) (قُـلْ أَ رَأَیْتُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ لَکُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَراماً وَ حَلالًا قُـلْ آللَّهُ أَذِنَ لَکُمْ أَمْ عَلَی اللَّهِ تَفْتَرُونَ). (۳) وتأتی کلمـة الُمحرّم بنفس المعنی، یقول تعالی: (قُلْ لا أَجِدُ فِی ما أُوحِیَ إِلَیَّ مُحَرَّماً عَلی طاعِمٍ یَطْعَمُهُ). (۴)کما أنّ «الحَرْم» وهو المنطقة المحیطة بالبیت الحرام منطقة حظر ومنع، ویطلق علیه الحرم بهذا الاعتبار.

۱- المصدر نفسه ۳۶۵: ۹

۲- النحل: ۱۱۶

۳- یونس: ۵۹

۴- الأنعام: ۱۴۵

ص: ۵۱

یقول تعالی:

(أ وَ لَمْ نُمَکِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً یُجْبی إِلَیْهِ ثَمَراتُ کُلِّ شَیْءٍ) (۱).

والشهر الحرام هو کذلک شهر حظر فیه الله تعالی القتال.

یقول تعالی: (یَسْئَلُونَکَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرامِ قِتالٍ فِیهِ قُلْ قِتالٌ فِیهِ کَبِیرٌ وَ صَدٌّ عَنْ سَبِیلِ اللَّهِ وَ کُفْرٌ بِهِ). (۲) یقول الراغب فی (المفردات): و «الحَرَم» سمی بـذلک لتحریم الله تعالی فیه کثیراً مما لیس بمُحرم فی غیره من المواضع، وکذلک «الشـهر الحرام». (۳) والعلاقة بین (ما یحُرّمه الله تعالی) وبین (من یُحَرَّم علیه) و (ما یُحَرَّم فیه) علاقة عکسیة.

وتوضیح ذلک:

إنّ ما یحرّمه الله تعالی من قول وفعل فلا بد من أن یکون ذلک لسـبب فیه من فساد أو دناءة کالشـرک والفحشاء، وقول الزور والباطل والعدوان، أو أن الله تعالی یکرهه لعباده، ولو لظرف خاص من مکان أو زمان.

وأما من یحرم الحرام علیه، ویضع الله تعالی علیه الحرمه والنهی فإن ذلک إشـعار بقیمته ومنزلته عنـد الله، ومهما کثرت علیه المحرمات عند الله کان ذلک دلیلًا علی منزلته وقیمته.

فلیس علی الحیوان تکلیف من حرام وحلال، ولیس علی المجنون والطفل تکلیف، فالتکلیف بالحرمـة إشـعار بقیمـة المکلف عند الله، کما أنّ کثرة الحرمات فی مکان أو زمان إشعار بقیمة ذلک المکان والزمان عند الله.

فإذا کان یحرم فی المسجد ما لا یحرم فی غیره، کالإجناب ودخول الجنب مثلًا،

۱- القصص: ۵۷

۲- البقرة: ۲۱۷

۳- مفردات الراغب حرف الحاء: ۱۱۵

ص: ۵۲

وتتأكد فيه حرمة اللهو واللغو الباطلين فإنّ ذلك إشعار بأن قيمة المسجد أعظم عند الله من قيمة غيره من الأماكن.

وإذا كان يحرم فى الأشهر الحرم ما لا يحرم فى غيرها، أو تتأكد فيها الحرمة، دون غيرها من الأشهر ... فذلك لأهمية هذه الأشهر ومنزلتها عند الله تعالى.

وبنفس الميزان نقول: إنّ اعتبار الكعبة الشريفة والمسجد الحرام، ومنطقة الحرم منطقة حظر ومنع، يكثر فيها الحظر والمنع من عند الله على الناس، ويحظر الله تعالى فيها على الناس ما لا يحظر فى غيره ... لأهمية هذه البقعة المباركة والمنطقة من الأرض.

ولذلك وصف الله تعالى الكعبة بالحرام، فقال تعالى: (جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرامَ) ووصف الله المنطقة بالحرم فقال تعالى: (أَ وَ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً) ووصف الله تعالى المسجد بالحرام فقال تعالى: (فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ)(۱) .

ومن هذا التفصيل نريد أن نخلص إلى النتيجة التالية: كل ما يحرمه الله تعالى على عباده فهو سبحانه وتعالى راغب عنه كاره له، وإذا حرّم الله تعالى على عباده المحرمات فهو إشعار بحبه لهم، ورغبته فيهم، ومهما أكثر الله تعالى المحرمات على عباده كان ذلك إشعاراً لحبه لهم، ورغبته فيهم، وتنزيهه لهم عنها، وكذلك المكان والزمان.

فمهما أكثر الله تعالى من المنع والحظر والحرمة على مكان أو زمان ك- (الحرم) و (المسجد الحرام) و (الأشهر الحرم) و (شهر رمضان) كان ذلك إشعاراً بقيمة متميزة لذلك المكان عند الله تعالى.

والآن، بعد هذا التوضيح ل- (الحرام) نتحدث عن المحرمات، التى حرمها الله تعالى على الناس فى (البيت الحرام) وحُرُمات هذا البيت.

۱- البقرة: ۱۴۴

ص: ۵۳

حُرُمات البيت الحرام

۱- البدء بالقتال: حرم الله تعالى على المسلمين أن يبدأوا الكفار بالقتال عند المسجد الحرام، إلّا أن يبدأ الكفار قتال المسلمين عنده، فيجوز عندئذ قتالهم وصدّهم عن العدوان، يقول تعالى:

(وَ اقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَ أَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَ الْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَ لا تُقاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ حَتَّى يُقاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذلِكَ جَزاءُ الْكافِرِينَ* فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (۱).

فينهى الله تعالى المسلمين من قتال الكفار عند المسجد الحرام، إلا أن يكون الكفّار هم البادِئون بالقتال.

ثم يقول تعالى عن القتال فى الحرم عند المسجد الحرام، وفى الأشهر الحرم (الشَّهْرُ الْحَرامُ بِالشَّهْرِ الْحَرامِ وَ الْحُرُماتُ قِصاصٌ فَمَنِ اعْتَدى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدى عَلَيْكُمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) (۲).

فأجاز الله تعالى للمسلمين أن يقتصّوا من المشركين إذا قاتلوهم فى الأشهر الحرم، أو عند المسجد الحرام، وأجاز للمسلمين أن يقاتلوهم كما يقاتلهم المشركون فيه ويعاملوهم بالمثل.

والحرمات التى تشير إليها الآية الكريمة بقوله تعالى: (وَ الْحُرُماتُ قِصاصٌ) هى حرمة «الشهر الحرام» وحرمة «المسجد الحرام» وحرمة «الحرم».

فإذا تجاوز المشركون على هذه الحرمات، وقاتلوا المسلمين فيها جاز للمسلمين معاملتهم بالمثل.

عن ابن أبى عمير، عن معاوية بن عمار، قال: قال رسول الله (ص) يوم فتح

۱- البقرة: ۱۹۱، ۱۹۲

۲- البقرة: ۱۹۴

ص: ۵۴

مكـۀ: «إنّ الله حَرَّم مكۀ يوم خلق السـماوات والأرض، وهى حرام إلى أن تقوم الساعۀ، لم تحِلَّ لأحد قبلى، ولا يَحلَّ لأحد بعدى، ولم تحل لى إلّا ساعۀ من نهار» (۱).

وعن أبى عبـد الله الصادق (ع) فى حـديث فتح مكۀ إنّ النبى (ص) قال: «ألا إنّ مكۀ محرمۀ بتحريم الله، لم تحل لأحد كان قبلى، ولم تحل لى إلا ساعۀ من نهار إلى أن تقوم الساعۀ، لا يختلى خلاها، ولا يقطع شجرها، ولا ينفر صيدها، ولا تحل لقطتها إلا لمنشد» (۲).

۲- حرمۀ تلويث الكعبۀ بالشرك، وحرمۀ الإبقاء على مظاهر الشرك وآثاره حول الكعبۀ، ووجوب تطهيرها منه.

والشـرك حرام على كـل حال وفى أى مكان، ويجب تطهير الأرض منه فى كل مكان، ولكن هـذه الحرمـۀ، وهـذا الوجوب فى الحرم أعظم وأبلغ وآكد.

فإنّ الشرك بالله العظيم رجس يلوّث كل شىء يصيبه، ويفقده دوره ويسلبه خصائصه ويعطّله.

والإنسان خليفۀ الله، وليس فى الكون كله صـفۀ أشـرف من هذه الصفۀ، وليس لشىء دور أعظم من هذا الدور (خلافۀ الله)، ومع ذلك فإذا أشـرك الإنسان فَقَدَ كُلَّ خصائصه وكرامته، وسـقط مرۀ واحدۀ، كما لو أنه خَرَّ من السـماء دفعۀ واحدۀ (وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ الرِّيحُ فِى مَكانٍ سَحِيقٍ). (۳) ويُحوِّل الشرك الإنسان من محور خلافۀ الله إلى محور الصدود والإعراض عن الله، وكذلك الكعبۀ المشرفۀ إذا أصابتها لوثۀ الشرك أفقدتها خصائصها وبركاتها،

۱- وسائل الشيعۀ ۶۸: ۹

۲- المصدر نفسه ۶۹: ۹

۳- الحج، ۳۱

ص: ۵۵

ودورها الكبير والمبارک فی حیاة الناس.

ولکی یتم تفعیل دور الکعبـة فی حیاة الناس، وتعدّ الکعبة الشـریفة، لتکون منطلقاً لعروج الإنسان إلی الله تعالی، لابد من تطهیر الکعبة من الشرک، یقول تعالی: (وَ إِذْ بَوَّأْنا لِإِبْراهِیمَ مَکانَ الْبَیْتِ أَنْ لا تُشْرِکْ بِی شَیْئاً وَ طَهِّرْ بَیْتِیَ لِلطَّائِفِینَ وَ الْقائِمِینَ وَ الرُّکَّعِ السُّجُودِ) (۱).

فلا- یعرج النـاس إلی الله من الطواف حول البیت والقیـام والرکوع والسـجود بین یـدی الله فی رحـاب البیت الحرام، إن لم یطهر الناس الکعبة من رجس الشرک.

وقد عهد الله تعالی بذلک إلی إبراهیم وإسماعیل (علیهما السلام).

یقول تعالی: (وَ عَهِدْنا إِلی إِبْراهِیمَ وَ إِسْماعِیلَ أَنْ طَهِّرا بَیْتِیَ لِلطَّائِفِینَ وَ الْعاکِفِینَ وَ الرُّکَّعِ السُّجُودِ)(۲) (۳) .

۳- حرمة إدخال المشرکین إلی المسجد الحرام، ووجوب إقصائهم عنه.

یقول تعالی:

(إِنَّمَا الْمُشْرِکُونَ نَجَسٌ فَلا یَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرامَ) (۴).

۴- تحریم قطع الحشیش والشجر من الحرم للمُحل والمحرم.

هکذا عنون صاحب الوسائل هذا العنوان.

وروی عن حریز عن أبی عبد الله الصادق (ع) بسند معتبر قال: «کل شیء ینبت فی الحرم فهو حرام علی الناس أجمعین» (۵).

۱- البقرة: ۱۲۵

۲- تفسـیر التطهیر فی هـذه الآیـة المبارکة بتنظیف البیت من القمامة والنجاسات المادیة لا یناسب الاهتمام البلیغ الذی یعطیه الله تعالی لهذا الأمر، فیعهد الی إبراهیم واسماعیل (علیهما السلام)، والله اعلم.

۳- البقرة: ۱۲۵

۴- التوبة: ۲۷

۵- وسائل الشیعة ۱۷۲: ۹

ص: ۵۶

۵- يحرم الصيد في الحرم وتنفيره مطلقاً للمحرم والمحل.

وروى الكليني عن حريز عن أبي عبد الله الصادق (ع) بسند صحيح، قال: «قال رسول الله: ألا إنّ الله عز وجل قد حَرَّم مكة يوم خلق السماوات والأرض، وهي حرام بحرام الله إلى يوم القيامة، لا ينفر صيدها، ولا يعضد شجرها، ولا يختلي خلاها، ولا تحل لقطتها إلا لمنشد»(۱) .

۶- يحرم في الحرم كل ذنب، وتعظم حرمته عند الله حتى لو كان مثل شتم الخادم وضربه، وليس شأن الحرم شأن غيره من الأماكن، فإنّ كل ذنب حرام في أيّ مكان، وفي أيّ زمان، ولكن هذه الحرمة في الحرم أعظم وأبلغ وآكد.

وقد كان بعض الفقهاء والصالحين يتحرجون من الإقامة في جوار الحرم خشية أن يصدر منهم ذنب، فيعاقبهم الله تعالى عليه بالعذاب الأليم.

يقول تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ الَّذِى جَعَلْناهُ لِلنَّاسِ سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَ الْبادِ وَ مَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذابٍ أَلِيم)(۲) .

يذكر المفسرون في تفسير قوله تعالى: (ومن يرد فيه بإلحاد ...): أن الذي يريد في البيت إلحاداً بظلم فالله تعالى يذيقه العذاب الأليم.

والإلحاد هو العدول عن القصد والاعتدال.

وروى الطبرسي عن ابن عباس والضحاك ومجاهد وابن زيد أنّ الإلحاد هو استحلال الحرام وركوب الإثم(۳) .

وقد صحّت النصوص المعتبرة أنّ كلّ إثم إلحاد.

فقد جاء بسند معتبر عن الحلبي قال: سألت أبا عبد الله (ع) عن قول الله

۱- المصدر نفسه ۱۷۵: ۹

۲- الحج: ۲۵

۳- مجمع البيان للطبرسي ۸۱: ۴

ص: ۵۷

عزّوجل: (وَ مَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ) فقال: «كل الظلم فيه إلحاد حتى لو ضربت خادمك ظلماً خشيت أن يكون إلحاداً»، فلذلك كان الفقهاء يكرهون سكنى مكة (۱).

وروى أبو الصباح الكنانى قال: سألت أبا عبد الله (ع) عن قوله عزّ وجلّ (وَ مَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ) فقال: «كل ظلم يظلمه الرجل على نفسه بمكة من سرقة، أو ظلم أحد، أو شىء من الظلم، فإنى أراه إلحاداً، ولذلك كان يتّقى أن يسكن الحرم»(۲) .

وعن رسول الله (ص): «جعل الله الحسنات فى الحرم مضاعفة والسيئات مضاعفة» (۳).

۷- يحرم ملاحقة المجرم الذى أقدم من خارج الحرم على جريمة تستوجب قصاصاً أو حدّاً أو تعزيراً ففر الى الحرم، احتراماً للحرم، وأمنه، ولكن يضيّق عليه، ويمنع من الشراء من الأسواق حتى يضطر للخروج من الحرم.

وقد استدل الفقهاء على ذلك بقوله تعالى:

(وَ مَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً) (۴)(۵) .

روى ثقة الإسلام الكلينى بسند معتبر عن معاوية بن عمار قال: سألت أبا عبدالله (الصادق) (ع) عن رجل قتل رجلًا فى الحل، ثم دخل الحرم، فقال: لايقتل، ولا يطعم، ولا يسقى، ولا يباع، حتى يخرج من الحرم، فيقام عليه الحدّ قلت: فما تقول فى رجل قتل فى الحرم أو سرق؟ قال: يقام عليه الحدّ فى الحرم صاغراً؛ لأنه

۱- وسائل الشيعة ۳۴۱: ۹

۲- المصدر نفسه ۳۴۱: ۹

۳- المصدر نفسه ۳۳۶: ۹

۴- آل عمران: ۹۷

۵- راجع «آيات الأحكام للجزائرى» ۷: ۲

ص: ۵۸

لم یر للحرم حرمهٔ، وقد قال الله عز وجل: (فَمَنِ اعْتَدی عَلَیْکُمْ فَاعْتَدُوا عَلَیْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدی عَلَیْکُمْ)(۱) .

وروی أیضاً بسند معتبر عن الحلبی، عن أبی عبد الله (ع) قال: سألته عن قول الله عزّوجل: (وَ مَنْ دَخَلَهُ کانَ آمِناً). قال: «إذا أحدث العبد فی غیر الحرم جنایهٔ، ثم فَرَّ إلی الحرم لم یسع لأحد أن یأخذه فی الحرم، ولکن یمنع من السوق، ولا یبایع ولا یطعم، ولا یسقی، ولا یتکلم، فإنه إذا فعل ذلک یوشک أن یخرج فیؤخذ، وإذا جنی فی الحرم جنایهٔ أقیم علیه الحد فی الحرم، لأنه لم یرع للحرم حرمهٔ» (۲).

عن عبد الله بن سنان أنه سأل أبا عبد الله (الصادق) (ع) عن قول الله عزوجل: (وَ مَنْ دَخَلَهُ کانَ آمِناً) قال: «من دخل الحرم مستجیراً به کان آمناً من سخط الله، ومن دخله من الوحش والطیر کان آمناً من أن یهاج أو یؤذی، حتی یخرج من الحرم» (۳).

والنصوص بهذا المعنی کثیرهٔ.

فإذا کان لا ـ یجوز ملاحقهٔ المجرم فی الحرم، ولا ـ یجوز تنفیر الصید وتهییجه وأذاه فلا ـ یجوز بشکل آکد وأبلغ ترویع المسلمین وإرعابهم فی رحاب حرم الله، وتعظم حرمته عند الله.

روی محمد بن مسلم، عن أبی جعفر الباقر (ع) قال: سألته عن قوله تعالی (وَ مَنْ دَخَلَهُ کانَ آمِناً). قال: «یأمن فیه کل خائف مالم یکن علیه حدّ من حدودالله» (۴).

۱- وسائل الشیعهٔ ۳۳۷: ۹

۲- المصدر نفسه ۳۳۷: ۹، ح ۲

۳- المصدر نفسه ۲۰۲: ۹

۴- المصدر نفسه ۳۳۹: ۹

ص: ۵۹

والذی یقرأ اهتمام القرآن بأمْن هذا البیت لا یشک فی أنّ للأمن دوراً أساسیاً فی رسالة البیت.

وقد کان (أمن البیت) من دعاء إبراهیم (ع).

(وَ إِذْ قالَ إِبْراهِیمُ رَبِّ اجْعَلْ هذا بَلَداً آمِناً).(۱) (وَ إِذْ قالَ إِبْراهِیمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً). (۲) وبین الدعاءین فرق.

فی الدعاء الأول یدعو إبراهیم (ع) أن یجعل الله الکعبة بلداً أمناً، ویبدو أنّ هذا الدعاء کان قبل أن یحل الناس بجوار الکعبة فیکون بلداً، فدعا الله تعالی أن یجعل البیت بلداً آمناً.

وفی الدعاء الثانی یدعو الله تعالی أن یجعل هذا البلد آمناً، ویبدو أن الدعاء کان بعد أن حلّ الناس بجوار البیت.

ومن اهتمام القرآن بأمن البیت: القَسَمُ بالبلد الأمین، یقول تعالی: (وَ التِّینِ وَ الزَّیْتُونِ* وَ طُورِ سِینِینَ* وَ هذَا الْبَلَدِ الأَمِینِ)(۳) .

ویمنّ الله تعالی علی المؤمنین: أن جعل لهم الحرم آمناً، تجبی إلیه الثمرات من کل حدب، ومکّنهم منه ...

(أ وَ لَمْ نُمَکِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً یُجْبی إِلَیْهِ ثَمَراتُ کُلِّ شَیْءٍ) (۴).

فقد مَنَّ الله تعالی علیهم إذن، فی هذه الآیة مرتین.

مَکَّنَهم من حرمه، بعد أن کان بید المشرکین وتحت نفوذهم وهذا هو المنّ الأول.

۱- ۳ البقرة: ۱۲۶

۲- ۴ إبراهیم: ۳۵

۳- التین: ۱، ۲، ۳

۴- القصص: ۵۷

ص: ۶۰

وجعله آمناً فی وسط دنیا صاخبهٔ وهائجهٔ بالحروب، ویتخطف الناس من حوله وهو المنّ الثانی.

یقول تعالی: (أَ وَ لَمْ یَرَوْا أَنَّا جَعَلْنا حَرَماً آمِناً وَ یُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ) (۱).

۸- یحرم التمکین لولایهٔ الظالمین علی البیت الحرام، الذین یصدون الناس عن سبیل الله وعن المسجد الحرام، ویعطلون دور هذا البیت، ویجب تمکین المتقین من ولایهٔ البیت الذین یُعدّون البیت ویطهّرونه للطائفین والقائمین والركّع السجود.

یقول تعالی: (وَ ما لَهُمْ أَلَّا یُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَ هُمْ یَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَ ما کانُوا أَوْلِیاءَهُ إِنْ أَوْلِیاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ) (۲).

وقد أوعد الله تعالی الذین کفروا، والذین یصدون الناس عن سبیله والمسجد الحرام بالعذاب الألیم فقال تعالی:

(إِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا وَ یَصُدُّونَ عَنْ سَبِیلِ اللَّهِ وَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ الَّذِی جَعَلْناهُ لِلنَّاسِ سَواءً الْعاکِفُ فِیهِ وَ الْبادِ وَ مَنْ یُرِدْ فِیهِ بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذابٍ أَلِیمٍ)(۳) .

فأنذر الذین یصدّون عن المسجد الحرام، الذی جعله الله تعالی للناس عامهٔ بالعذاب الألیم.

ویندّد القرآن بأولئک الظالمین الذین یصدون الناس عن المسجد الحرام:

(هُمُ الَّذِینَ کَفَرُوا وَ صَدُّوکُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ) (۴) فَیَحرّم علی الناس تمکین الظالمین من ولایهٔ البیت الحرام، ویجب علیهم تحریر هذا البیت من نفوذ الطاغوت وسلطانه، کما یجب علیهم تمکین المتقین منه؛ وقد وصف الله تعالی هذا البیت

۱- العنکبوت: ۶۳

۲- الانفال: ۳۴

۳- الحج: ۲۵

۴- الفتح: ۲۵

ص: ۶۱

ب- (العتيق) فقال تعالى: (ثُمَّ مَحِلُّها إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ) (۱).

وقال تعالى: (وَ لْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ) (۲).

والعتيق من العتق، وهو التحرير. فهذا البيت حَرّره الله تعالى من قبضة الظالمين مثل أبرهة، وعتاة قريش، ولم يجعل الله لأحد عليه سلطاناً في دينه، ولم يمُلِّكه أحداً من الناس حتى يكون بيتاً للناس جميعاً.

يقول الجزائري في آيات الأحكام في معنى العتيق: إنه لا يملكه أحد من الناس.

ثم ذكر في معناه أيضاً: أنه عُتِق من الجبابرة، وحفظه منهم كأبرهة وغيره(۳) .

عن أبي جعفر الباقر (ع) في جواب من سأل: لِمَ سمَّى البيت عتيقاً؟ قال: هو بيتٌ حرٌ عتيق من الناس لم يملكه أحد (۴).

۱- الحج: ۲۹

۲- الحج: ۲۹

۳- آيات الأحكام للجزائري ۲۶: ۲

۴- وسائل الشيعه ۳۴۷: ۳

ص:۶۲

ص: ۶۳

التلبیهٔ

اشارهٔ

ص:۶۴

ص: ۶۵

الحج «دعوة» و «تلبية»:

دعوة من الله- تعالى- لعباده أن يَحِلُّوا ضيوفاً عليه، عند بيته المحرّم، ويطلبوا قِراه، ويستفتحوا أبواب رحمته الواسعة. وإبراهيم (ع) خليل الرحمن، و أبوالأنبياء و رائد التوحيد، هو رسول الله- تعالى- إلى عباده، والمبلّغ عن الله في هذه الدعوة.

يقول تعالى: (وَ أَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالًا وَ عَلى كُلِّ ضامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ)(۱) ، هذه هي الدعوة.

وأما التلبية فهي من ناحية الذين دعاهم ربّهم إلى بيته (وَ أَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِ) يُشهرون فيها استجابتهم لدعوة ربّهم، ويعلنون الاستجابة كلّ سنة في جموع غفيرة حاشدة في الميقات من كلّ فجٍّ عميق.

ويرفعون إلى الله تعالى هذه التلبية كلّ سنة في رحاب الميقات بالتلبيات الأربعة التي علّمناها رسول الله (ص): «لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ، لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ».

۱- الحج: ۲۷

ص: ۶۶

روی عبید الله الحلبی عن أبی عبد الله (الصادق) (ع) قال: سألته لِمَ جُعِلَتْ التلبیة؟ فقال: «إنّ الله- عزّ وجلّ- أوحی إلی إبراهیم (ع): (وَ أَذِّنْ فِی النَّاسِ بِالْحَجِّ یَأْتُوکَ رِجالًا) فنادی فأجیب من کلّ فجٍّ عمیق یلبّون» (۱).

وسنتحدّث- إن شاء الله- عن کلّ من «الدعوة» و «التلبیة».

الدعوة:

الحجّ ضیافة الله- تعالی- لعباده، فهو عزّ شأنه استضافهم فی بیته المحرّم فی موسم الحج، کما أنّ الصیام ضیافة أخری فی شهر رمضان المبارک، وفی کلا الضیافتین یدعو الله- تعالی- عباده إلی أفضل مواهبه ونعمه.

والمواهب والنعم التی یدعو الله- تعالی- عباده إلیها فی الحج تختلف عمّا نألفه ونعرفه فی حیاتنا الدنیا من المواهب الإلهیة والنعم، حتی عن تلک التی یهبها لعباده الصائمین فی شهر رمضان.

فإنّ دعوة الحج تتضمن الدعوة إلی «التوحید» و «التسلیم» و «الإخلاص» و «الکدح فی سبیل الله» و «التجرّد عن الأنا والهوی» و «الانقطاع إلی الله» و «انتزاع الغل والحقد من النفوس»، کما تتضمن الدعوة: الالتزام بقیم العبودیة الخالصة لله وحده.

هذهِ هی الدعوة، والتلبیة استجابة لهذه الدعوة الإلهیة من العباد لدعوة الله- تعالی- لهم علی لسان نبیّه إبراهیم (ع).

الدعوة والوعد بالاستجابة:

ومن جمال هذه الدعوة الإلهیة- التی أشْهَرها إبراهیم خلیل الرحمن بأمر من الله تعالی فی عباده: (وَ أَذِّنْ فِی النَّاسِ بِالْحَجِّ یَأْتُوکَ رِجالًا وَ عَلی کُلِّ ضامِرٍ یَأْتِینَ

۱- بحار الأنوار ۱۸۴: ۹۹؛ وعلل الشرایع: ۴۱۶

ص: ۶۷

مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ)- أنّ الله تعالى وعد عبده وخليله إبراهيم عندما أمره بإشهار هذه الدعوة ... إستجابة عباده لهذه الدعوة، (يَأْتُوكَ رِجالًا وَ عَلى كُلِّ ضامِرٍ).

فكأنّ الدعوة من الله لعباده، وإشهار الدعوة بأمر من الله، والاستجابة للدعوة بضمان ووعد من الله تعالى لعبده وخليله إبراهيم (ع).

ومنذ أنّ وعد الله- تعالى- إبراهيم عبده وخليله بالاستجابة لهذه الدعوة يُقْدم في كلّ عام حشد غفير من الحجاج من الميقات إلى البيت الحرام ليلبّوا هذه الدعوة.

الدعوة إلى التلبية الطوعية:

وكل ما في هذا الكون يلبّي أمر الله طائعاً، منقاداً في كلّ شيء لله تعالى، إلّا أنّ الله- تعالى- أكرم الإنسان بالدعوة إلى عبادته وطاعته طوع إرادتهم، وأكرمهم بهذه التلبية الطوعية.

وتختلف التلبية «الطوعية» عن التلبية «القهرية» أنّ الحركة منّا إلى الله حركة واعية، وبالحركة الواعية يبلغ الإنسانمن الكمال والعروج إلى الله ما لا يصله بغيرها.

وهي ميزة وتكريم خصّ الله بها من اصطفى من خلقه؛ والنقطة المقابلة لهذا التكريم هي «السقوط» والهلاك إذا رفض الإنسان الاستجابة لله طوعاً، وعن إختيار؛ إنّ في كل استجابة طوعية لدعوة الله تعالى عروج إلى الله، وفي كل إعراض وصدود عن الله تعالى سقوط وهلاك.

وخصّ الله الإنسان وأكرمه بهذا الخيار «الصعب» (إِنَّا عَرَضْنَا الأَمانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَ الأَرْضِ وَ الْجِبالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَ أَشْفَقْنَ مِنْها وَ حَمَلَهَا الإِنْسانُ إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولًا)(۱) .

في ضيافة الرحمن ؛ ؛ ص۶۸

۱- الأحزاب: ۷۲

ص: ۶۸

الدعوة من الله والتلبية من العباد:

اشارة

وتكريم آخر للإنسان فى أصل الـدعوة؛ فإنّ الـدعوة عادة من صاحب الحاجـة، والتلبية ممن يملك هذه الحاجة، والله تعالى هو الغنى، وعباده الفقراء إليه: (يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللَّهِ وَ اللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)(۱) .

وشاء الله أن يُكْرِم عباده بأن دعاهم إلى عبادته، وهو الغنى عن عبادة عباده له، وشاء الله أن تكون التلبية من عباده الفقراء إليه.

وحقّ عليهم أن يطلبوا من الله- تعالى- أن يأذن لهم بالعبودية والعبادة، ولكن الله- تعالى- بدأهم بهذه الدعوة، وأكرمهم بالتلبية والاستجابة، وهو غاية ما يمكن أن يبلغه الكرم، وإذا كانت هذه الدعوة من الله غاية الجود والكرم من الله، فإنّ الإعراض والصدود عنها غايـة اللؤم من الإنسان، وإذا كانت الاستجابة لهـذه الـدعوة من سـعادة الإنسان، فإنّ من بؤس الإنسان وشـقائه الإعراض والصدود عن الاستجابة لهذه الدعوة.

ولهذا السبب قلت: إنّ الاستجابة لدعوة الله- تعالى- عروج إلى الله، والصدود والإعراض عنها سقوط وهلاك للإنسان.

وكيف انعكس الأمر- فى هـذه الـدعوة الإلهيـة- وانقلب العبـد فى فقره وحاجته من موقع الطالب والـداعى والسائل إلى موقع «التلبية»؛ وكان الله تعالى هو صاحب الدعوة والطلب، وهو غنى بذاته عن خلقه وعباده.

إنّ لهـذا الانقلاب فى المواقع سرّاً، وهو خصـلة الكرم والجود الذاتيـة والأصـيلة فى الذات الإلهية، فهو سـبحانه وتعالى يُحبُّ أن يجود على عباده، ويُحبُّ أن يكرمهم وأن يحسن إليهم، كما نحتاج نحن إلى جوده وكرمه وإحسانه.

وحبّ الجود والكرم والإحسان والعطاء صفة من صفات ذاته عزّ شأنه، وليس

۱- فاطر: ۱۵

ص: ۶۹

على الإنسان إلّا أن يضع نفسه في مواضع جوده وكرمه وإحسانه وعطائه تبارك وتعالى، وهـذه حقيقـة من حقائق العلاقة بين الله تعالى وعباده، وهذه الحقيقة تفتح على الإنسان أبواباً من المعرفة.

فكما نحتاج نحن إلى رحمـة الله تعالى وفضـله يحبّ الله تعالى أن يجود برحمته وفضـله على عباده؛ وهـذه العلاقـة قائمـة بين كلّ غنى وفقير؛ ولا تقلّ حاجة الغنى إلى العطاء والكرم عن حاجة الفقير إلى الغنى، في حالة سلامة الفطرة.

والله تعـالى غنى عن عبـاده، وغنـاه في ذاته، فلاـ يحتـاج عبـادَه وخلقه في شـيء، ولكنّه يحبّ أن يجود عليهم، ويكرمهم، ويعطيهم من فضله ورحمته، كما نحتاج نحن إلى رحمته وفضله وجوده.

وهذا هو سرّ دعوة الله لعباده بالإقبال عليه، والدخول في رحاب ضيافته، والوقوف على أبواب رحمته، في شهر ذى الحجة، في عرفات، عند بيته المحرّم، وفى شهر الصيام، فيدعو الله تعالى عباده لدعائه؛ ليستجيب لهم برحمته وفضله.

وهـذه الألطاف من سـنن الكرم الإلهى؛ يقول تعالى: (ادْعُونِى أَسْـتَجِبْ لَكُمْ) فتحل دعوة العبـد، في هـذه الآيـة الكريمـة بين دعوة الله تعالى واستجابته.

فالله عزّ شأنه يـدعو عباده لـدعائه ليسـتجيب لهم (ادْعُونِى أَسْـتَجِبْ لَكُمْ)، فيقع دعاء العبـد بين «دعوته» تعالى له بالدعاء، و «اسـتجابته» سبحانه لدعائه.

والله عزّ شأنه يحبّ دعاء عباده، ويشتاق إلى مناجاتهم، ويحب الاستجابة لدعائهم.

عن رسول الله (ص): «إنّ الله أحبّ شـيئاً لنفسه، وأبغضه لخلقه، أبغض لخلقه المسألـة، وأحبّ لنفسه أن يُسـأل، وليس شـىء أحبّ إلى الله– عزّ وجلّ– من أن يُسأل فلا يستحى أحدكم من أن يسأل الله من فضله، ولو شسع نعل» (۱).

۱– فروع الكافى ۱۹۶: ۱؛ من لا يحضره الفقيه ۲۳: ۱

ص: ۷۰

وعن أبی عبـد الله الصـادق (ع): «أکـثروا من أن تـدعو الله، فـإنّ الله یحبّ من عبـاده المـؤمنین أن یـدعوه، وقـد وعـد عبـاده المـؤمنین الاستجابهٔ» (۱).

وفی الدعاء الذی علّمه أمیر المؤمنین (ع) لکمیل بن زیاد النخعی (رحمهٔ الله):

«وأمرتهم بدعائک، وضمنت لهم الإجابهٔ» ودعاء العبد یقع بین تلک الدعوهٔ وهذه الإجابهٔ.

التلبیهٔ جوهر العبودیهٔ:

التلبیهٔ هی الاستجابهٔ.

والاستجابهٔ لله فی مساحتین: مساحهٔ الدعوهٔ ومساحهٔ الأحکام والأمر والنهی.

والله تعالی یدعو عباده، ویأمرهم. وبینهما فرق. فإنّ الدعوهٔ هی أساس الأحکام والأوامر الإلهیهٔ.

یـدعو عبـاده إلی مـا یحییهـم، ویطلـب من عبـاده أن یسـتجیبوا لـدعوته: (یـا أَیُّهَـا الَّذِینَ آمَنُـوا اسْـتَجِیبُوا لِلَّهِ وَ لِلرَّسُـولِ إِذا دَعـاکُمْ لِما یُحْیِیکُمْ)(۲) ، ویأمر عباده ویحکمهم.

والله تعـالی یحکم عباده فی التکوین والتشـریع؛ یحکم عباده فی التکوین بالقضاء والقـدر، بألوان الابتلاء، والفتنـهٔ، والجوع، والمرض، ونقص من الأموال والأنفس والثمرات؛ ولیس للناس حیلهٔ فی ذلک کلّه، والله– تعالی– یطلب من عباده أن یسـتجیبوا لحکمه وأمره فی قضائه وقـدره، ویطمئنوا إلیه، ویفوّضوا أمرهم إلیه– تعالی– فی کلّ ذلک، ویسـلّموا أمرهم له تسـلیماً، (وَ أُفَوِّضُ أَمْرِی إِلَی اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِیرٌ بِالْعِبادِ)، هذا فی مساحهٔ التکوین.

والله تعالی یحکم عباده فی مساحهٔ التشریع بالأمر والنهی. ویطلب منهم أن

۱– وسائل الشیعهٔ ۱۰۸۶: ۴ ح ۸۶۱۶

۲– الأنفال: ۲۴

ص: ۷۱

يستجيبوا له فى أمره وحكمه ويسلّموا تسليماً (ثُمَّ لا يَجِدُوا فِی أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَ يُسَلِّمُوا تَسْلِيماً) (۱).

التلبية، لدعوة الله وحكمه:

والاستجابة لدعوة الله تعالى هى الإيمان والإسلام؛ والإعراض عن دعوة الله تعالى، هو الكفر، والشرك، والريب، والشك، والنفاق.

والاستجابة لقضاء الله تعالى وقدره وأحكامه على عباده فى الابتلاء، والفتنة، والفقر، والجوع، والموت، والمرض، هى التفويض، والرضا، والتسليم، والاطمئنان، والثقة بحكم الله تعالى.

وقد ورد فى الدعاء: «واجعلنى بقسمک راضياً قانعاً، وفى جميع الأحوال متواضعاً»، «واجعل نفسى مطمئنة بقدرک، راضية بقضائک».

وخلاف ذلک «الاعتراض» و «التذمر» و «الشکوى» من أمر الله وحکمه.

ولا ينفع الإنسان إعتراض وتذمر عن أمر الله، وحكمه، وقضائه، وقدره فى مساحة التكوين، فإنّ الله- تعالى- يقهر عباده بقضائه وقدره، ولكنه يطلب من عباده أن يستجيبوا لقضائه وقدره، ويسلّموا أمرهم إليه تسليماً، ويفوّضوا إليه أُمورهم تفويضاً، ويطمئنّوا إلى قضائه وقدره، دون اعتراض وتذمر.

والاستجابة لأمر الله وحكمه فى التشريع هى الطاعة والانقياد عن طوع وإرادة.

وخلاف ذلک الذنب، والمعصية، والفسوق.

وفى مساحة القضاء والقدر هى التسليم و التفويض؛ وخلاف ذلک هو الجزع من أحکام الله وعدم الرضا به.

۱- النساء: ۶۵

ص: ۷۲

العقل مبدأ التلبیهٔ والاستجابهٔ:

والاستجابهٔ لله بکلّ أقسامها هی جوهر العبودیهٔ لله تعالی.

و قیمهٔ الإنسان فی الاستجابهٔ لله تعالی.

و وزن الإنسان ومقامه عند الله بمقدار عبودیته وتسلیمه له تعالی.

و الاستجابهٔ لله هی العبودیهٔ والتسلیم، و «العقل» هو مبدأ هذه الاستجابهٔ.

روی سماعهٔ عن أبی عبد الله الصادق (ع): «خلق العقل، وهو أوّل خلق خلقه من الروحانیین عن یمین العرش من نوره، فقال له: أقبل فأقبل، ثمّ قال له: أدبر فأدبر» (۱).

وهذه الروایهٔ تتحدّث بلغهٔ الرمز، وهی لغهٔ مألوفهٔ فی الروایات الإسلامیهٔ، والإقبال هنا الاستجابهٔ لأمر الله تعالی، وهو ما ذکرنا آنفاً أنّه جوهر العبودیهٔ لله تعالی. والعقل ینهض بهذه الرسالهٔ فی حیاهٔ الإنسان ویتبعه القلب ویقترن به.

مراتب الاستجابهٔ والتلبیهٔ:

وللاستجابهٔ أربع مراتب بعضها فوق بعض.

المرتبهٔ الأُولی من الاستجابهٔ: هی الاستجابهٔ التکوینیهٔ لله تعالی، فکلّ شیء فی الکون مسخّر لأمر الله، یجری بأمره.

(وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ وَ النُّجُومَ مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ) (۲).

(وَ سَخَّرَ لَکُمُ اللَّیْلَ وَ النَّهارَ وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ وَ النُّجُومُ مُسَخَّراتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیاتٍ لِقَوْمٍ یَعْقِلُونَ) (۳).

والإنسان جزء من هذا الکون، ومقهور لإرادهٔ الله ومسخّر لأمره تعالی فی شطر

۱- بحار الأنوار ۱۰۹: ۱

۲- الأعراف: ۵۴

۳- النحل: ۱۲

ص: ٧٣

من شخصيته بالضرورة؛ وهذه الاستجابة التكوينية تعمّ المؤمن والمنافق والكافر، من دون فرق.

المرتبة الثانية من الاستجابة: الاستجابة لأمر الله تعالى، بمعنى الطاعة وعدم الاعتراض، وهى أدنى مراتب الاستجابة له تعالى، فى التشريع والتكوين.

فإنّ للاستجابة مرتبتين:

١- الاستجابة بمعنى التسليم وعدم الاعتراض لأمر الله تعالى وحكمه فى ساحة التشريع والتكوين.

٢- الاستجابة بمعنى الرضا بأمر الله و حكمه فى التشريع والتكوين.

ونقصد نحن بالاستجابة هنا المعنى الأول؛ وسيأتى الحديث عن الاستجابة بالمعنى الثانى فى (المرتبة الثالثة) من هذا التقسيم، وهى فوق الاستجابة بمعنى التسليم بدرجة.

والاستجابة بمعنى التسليم، روح الإسلام وجوهره.

وقد روى عن أمير المؤمنين (ع) فى هذا الشأن: «لأنسبنَّ الإسلام نسبة لم‌ينسبه أحد قبلى، ولا ينسبه أحد بعدى: الإسلام هو التسليم، والتسليم هو التصديق، والتصديق هو اليقين، واليقين هو الأداء، والأداء هو العمل»(١) .

و التسليم بهذا المعنى لأمر الله فى ساحة التشريع هو الإسلام لله تعالى.

يقول تعالى: (وَ مَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ و َهُوَ مُحْسِنٌ)(٢) .

(فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ و َمَنِ اتَّبَعَنِ ...)(٣) .

(وَ أُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعالَمِينَ)(۴) .

١- بحار الأنوار ۶٨: ٣٠٩

٢- النساء: ١٢۵

٣- آل عمران: ٢٠

۴- غافر: ۶۶

ص: ۷۴

وهو طاعة الله عزّ وجلّ ورسوله (ص).

يقول تعالى: (قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ) (۱).

(وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)(۲) .

(أَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَ أَنْتُمْ تَسْمَعُونَ) (۳).

وكما يحبّ الله تعالى من عباده التسليم له فى أحكامه وحدوده وشريعته، يحبّ منهم التسليم فى قضائه وقدره.

وهو من خصائص الإيمان، ولا شک فى أنّ الإنسان يحبّ العافية فيما يرزقه الله تعالى.

ولكن المؤمن إذا أنزل به البلاء سلّم أمره إلى الله تعالى.

يروى أن صبياً لأبى جعفر الباقر (ع) كان قد مرض واشتدّ مرضه، فقلق الإمام الباقر (ع) و بان ذلک على وجهه، فمات الطفل فانبسط وجه الإمام الباقر (ع) واطمأن، فتعجّب من ذلک أصحابه.

فقال (ع): «إنّا لنحبّ أن نعافى فيمن نحبّ، فإذا جاء أمر الله سلّمنا فيما يحبّ»(۴) .

وعن أبى الحسن الرضا (ع) عن أبيه موسى عن جعفر (عليهما السلام) قال: «أمرنى أبى (يعنى أبا عبد الله (ع)) أن آتى المفضل بن عمرو فأعزّيه بإسماعيل، وقال: اقرء المفضل السلام، وقل له: أصبنا بإسماعيل فصبرنا، فاصبر كما صبرنا. إذا أردنا أمراً وأراد الله أمراً سلّمنا لأمر الله»(۵) .

۱- آل عمران: ۳۲

۲- آل عمران: ۱۳۲

۳- الأنفال: ۲۰

۴- بحار الأنوار ۳۰۱: ۴۶

۵- المصدر السابق ۱۰۳: ۸۲

ص: ۷۵

وروى عن الإمام الصادق (ع): «لم يكن رسول الله يقول الشيء قد مضى لو كان غيره»(۱) .

وهذه المرتبة من التسليم في الاستجابة لأمر الله- تعالى- تجرى في أحكامه تعالى في التشريع والتكوين على نحو سواء.

المرتبة الثالثة من الاستجابة: الاستجابة والتسليم لأمر الله عن رضا، وهذه مرتبة فوق المرتبة السابقة وتجرى في التشريع والتكوين كذلك على نحو سواء.

عن رسول الله (ص): «أعبد الله في الرضا، فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير» (۲).

وفي هذه الرواية تفكيك واضح بين مرتبتين من الاستجابة و المرتبة العليا هي الاستجابة والتسليم عن رضا، فإن لم يتمكّن العبد من هذه المرتبة فليصبر، ويسلّم أمره لله تعالى عن صبر على قضاء الله وقدره، ولا يعترض، ولا يتذمر، ولا يشكو من قضاء الله.

وليس معنى «الرضا» بأمر الله أن لا ـ يحبّ الإنسان لنفسه ولن يحبّ شيئاً، ولكن معنى ذلك أنّ العبد إذا عرف أنّ الله يحبّ ما يكره رضى بما يحبّ الله، وجعل رضاه تبعاً لرضا الله عزّ وجلّ.

روى عن أبي عبد الله الصادق (ع):

«إنّا قوم نسأل الله ما نحبّ فيمن نحبّ، فيعطينا، فإذا أحبّ ما نكره فيمن نحبّ رضينا» (۳).

والمرتبة الرابعة للاستجابة: هي الاستجابة عن حبّ وشوق إلى الله تعالى،

۱- تنبيه الخواطر: ۴۱۷

۲- المحجة البيضاء ۴:۱۰۴: ۵

۳- بحار الأنوار ۱۳۲: ۸۲

ص: ۷۶

ودعوته، وأمره، وقضائه.

والحبّ والشوق مرتبة فوق مرتبة الرضا.

وأحسن حالات العبادة والإقبال على الله والاستجابة لدعوته تعالى وأمره وذكره، هو ما يكون عن شوق وحبّ.

عن رسول الله (ص):

«أفضل الناس من عشق العبادة فعانقها، وأحبّها بقلبه، وباشرها بجسده، وتفرّغ لها، فهو لا يبالى أصبح من الدنيا على عُسر أم على يُسر»(۱) .

يروى هارون بن خارجة عن أبى عبد الله الصادق (ع) قال:

«إنّ العبّاد ثلاثة: قوم عبدوا الله عزّ وجلّ خوفاً فتلك عبادة العبيد، وقوم عبدوا الله تبارك وتعالى طلب الثواب فتلك عبادة الأجراء، وقوم عبدوا الله حبّاً له فتلك عبادة الأحرار، وهى أفضل العبادة»(۲) .

عن يونس بن ظبيان قال: قال الصادق جعفر بن محمد (ع):

«إنّ الناس يعبدون الله عزّ وجلّ على ثلاث أوجه: فطبقةٌ يعبدونه رغبةً فى ثوابه، فتلك عبادة الحرصاء، وهو الطمع؛ وآخرون يعبدونه خوفاً من النار، فتلك عبادة العبيد، وهى الرهبة؛ ولكنى أعبده حبّاً له عزّ وجلّ، فتلك عبادة الكرام، وهو الأمن لقوله عزّ وجلّ: (هُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ) (۳)، ولقوله عزّ وجلّ: (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ)(۴) ؛ فمن أحبّ الله عزّ وجلّ أحبّه الله، ومن أحبّه الله كان من الآمنين» (۵).

۱- أُصول الكافى ۸۳: ۲

۲- وسائل الشيعة ۴۵: ۱، مكتبة الإسلامية، طهران

۳- النمل: ۸۹

۴- آل عمران: ۳۱

۵- وسائل الشيعة ۴۶: ۱؛ عن علل الشرائع: ۱۶؛ والمجالس: ۲۱؛ والخصال ۸۸: ۱

ص: ٧٧

وعن أمير المؤمنين (ع):

«إنّ قوماً عبدوا الله رغبةً فتلك عبادة التجار، وإنّ قوماً عبدوا الله رهبةً فتلك عبادة العبيد، وإنّ قوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الأحرار» .(١)

يقول الشيخ محمد مهدى النراقى فى كتابه القيّم «جامع السعادات» فى التعليق على الروايات الواردة فى «عبادة الأحرار»:

«لا ـ ريب فى أنّ العبادة على الوجه الأخير لا ـ نسبة لمنزلتها ودرجتها إلى درجة العبادة على الوجهين الأوّلين، فإنّ من تنعّم بلقاء الله والنظر إلى وجهه الكريم يسخر ممّن يلتفت إلى وجه الحور العين» (٢).

«تكبيرة الإحرام» و «التلبية»:

وقد أودع الله تعالى فى «الحج» كنوزاً من الوعى، والإخلاص، والانفتاح، والإقبال على الله، والإعراض عمّا دون الله، والكدح، والتسليم، والتوحيد، والاخلاص، والتوكل، والذكر، والولاء، والبراءة، وغير ذلك من أبواب المعرفة والكدح إلى الله، ومفتاح هذه الكنوز جميعاً «التلبية»، ولا ينال الحاج ما أودع الله تعالى فى الحجّ من هذه الكنوز إلّا إذا أحسن التلبية.

ومن لا ـ يحسن التلبية لا ـ ينال من حجّه الكثير، وكلّ ما كان حظّ الحاج أكثر من الإقبال والانفتاح على الله فى التلبية، كان حظّه من مواهب الحجّ أكثر.

وشأن «التلبية» فى الحجّ شأن «تكبيرة الإحرام» فى الصلاة، فإنّ الصلاة كنز، ومفتاح هذا الكنز تكبيرة الإحرام؛ ومن أحسن «تكبيرة الإحرام» فى الصلاة فتح الله تعالى عليه كنوز الصلاة، ومن لم يحسن تكبيرة الاحرام، كانت صلاته هيكلًا من دون روح.

١- نهج البلاغة بتحقيق صبحى صالح ٥١٠: ٣ حكمة رقم ٢٣٧

٢- جامع السعادات ١١٧: ٣

ص: ۷۸

فإنّ كلًّا من الصلاة والحج، رحلة إلى الله تعالى، وكلّ رحلة إلى الله عروج وصعود. ولابدّ فى هذا العروج من أن ينفصل عن هذه الدنيا ويقلع عنهـا إقلاعاً كاملًا بصورة مؤقتـة خلال هـذه الرحلـة، وما لم يقلع الإنسان فى صـلاته وحجّه عن دنياه، وما لم يتحرّر من الأواصـر والعلائق التى تشدّه إلى هذه الدنيا شدّاً، لايستطيع الإنسان أن يجد فى صلاته وحجّه ذوق العروج والسفر إلى الله.

وليس يـدعو الإسـلام الناس إلى أن ينفصـلوا عن دنياهم التى لابدّ لهم منها، ولايريد منهم أن يعرضوا عن هذه الدنيا وما فيها، من لذّة، ونعيم، وعلائق، و وشائـح تشـدّهم بها، و إنّما يطلب منهم أن يتحرّروا فى حياتهم من أسـر التعلّق بهذه الدنيا وحبّها والافتتان بها؛ وهذا رأى الإسلام فى التعامل مع الدنيا.

تكبيرة الإحرام مفتاح الصلاة:

فإذا أقبل العبد على الله- تعالى- فى صلاته فلابدّ من أن يفصل نفسه عن هذه الدنيا وما فيها من علائق ووشائج ولذّة وفتنة فصلًا كاملًا، لكى يستطيع أن ينعم بلذّة العروج والصعود إلى الله فى الصلاة.

ففى هـذه الرحلـة العجيبـة التى يكرم الله- تعـالى- بهـا عباده فى كلّ يوم خمس مرّات، يمرّ الإنسان بآفاق رحبـة من الحمـد، والعبادة، والاسـتعانة بالله، والتوحيد، والتعظيم، والدعاء، والتسبيح، والتأليه، والذكر، والشـكر، والتضـرّع، والإبتهال، والمناجاة، والتسليم له، وما لا طاقـة لى على إحصـائه من آفاق العبوديـة لله، وليس بإمكان الإنسان أن يقطع هـذه الآفاق الرحبـة المباركـة من لقاء الله، ما لم ينفصـل بشـكل كامل عن هذه الدنيا وما فيها، من لذّة، ونعيم، وعلائق، ووشائج، وهمّ، وحرص، وقلق، وانشـغال، فإنّها تصرفه وتشغله عن آفاق اللقاء فى هذه الرحلة.

وأشدّ ما فى الصلاة، هو هذا الانفصال والإقلاع عمّا حول الإنسان من العلائق

ص: ۷۹

والوشائج ومن الهمّ والتفکیر فی الدنیا والانشغال بها، فإذا أمکنه أن یقلع فی صلاته عن ذلک کلّه، أمکنه أن یعرج فی صلاته إلی الله، وأن یتمتع فی هذه الرحلة بلذّة لقاء الله، وأن یعیش فیها آفاق اللقاء الرحبة المبارکة، وأن یتمتع بمواهبها وکنوزها.

ومفتاح ذلک کلّه «تکبیرة الإحرام»، فإنّها إذا أدّاها مقیم الصلاة أداءً صحیحاً تفصله مرّة واحدة- وبحرکة سریعة خفیفة عمّا حوله- فصلًا سریعاً قویّاً.

فإنّ تکبیرة الإحرام تتضمّن بُعدین، أحدهما یتضمّن الآخر، وهما معاً یقوّمان معنی هذه التکبیرة العظیمة التی یفتح بها المصلّی صلاته.

البُعد الأول: تکبیر الله تعالی وتعظیمه؛ والله کبیر عظیم، ذو الجلال، والکبریاء، والعظمة، إلّا أنّ هذا التکبیر یتضمّن معناً رقیقاً یستحقّ الکثیر من التأمل والتفکیر، وهو معنی «أفعل التفضیل» فی هذه الکلمة، ومقارنة کبریاء الله تعالی إلی وضاعة الدنیا، وجلال الله إلی حقارة ما یشغله ویصرفه عن الله؛ فکلّ ما فی هذه الدنیا ممّا دون الله حقیر وضیع بالقیاس إلی الله، ومتاع زائل، ومن سقط المتاع ومتاع الغرور، بالقیاس إلی ماعندالله من النعیم الذی لایزول.

(اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَیاةُ الدُّنْیا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَ زِینَةٌ وَ تَفاخُرٌ بَیْنَکُمْ وَ تَکاثُرٌ فِی الأَمْوالِ وَ الأَوْلادِ کَمَثَلِ غَیْثٍ أَعْجَبَ الْکُفَّارَ نَباتُهُ ثُمَّ یَهِیجُ فَتَراهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ یَکُونُ حُطاماً وَ فِی الْآخِرَةِ عَذابٌ شَدِیدٌ وَ مَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوانٌ وَ مَا الْحَیاةُ الدُّنْیا إِلَّا مَتاعُ الْغُرُورِ)(۱) .

ومتاع مثل هذا المتاع زائل ووضیع لا یستحق أن یصرف الإنسان ویشغله عن الله ذی الجلال والاکرام، ولو للحظة واحدة، ولا یحسن به أن یرافقه فی هذه الرحلة، فیشغله عن الله، ویصرفه عنه تعالی، ولو لبعض الوقت، وببعض الانشغال

۱- الحدید: ۲۰

ص: ٨٠

والانصراف، فإنّ الله أكبر من كلّ ذلك وأجلّ وأعظم، وهو الباقى وما فى هـذه الـدنيا زائل، وهو الحقّ وما فى هـذه الدنيا باطل، وهو العظيم وما فى هـذه الدنيا حقير. وهذا هو البُعد الثانى الذى تتضـمّنه تكبيرة الإحرام؛ وهذا البُعد نستنبطه من معنى «أفعل التفضيل» فى التكبيرة.

ويستحب أن يفتح الـذى يقيم الصـلاة صـلاته بسبع تكبيرات، ليؤكّد ويعمّق فى نفسه حالـة الإقلاع والفصل عن الـدنيا، ويتجاوز بها الحجب التى تحجبه عن الله تعالى، ليمكنه بعد ذلك أن ينطلق إلى الله فى هذه الرحلة العجيبة.

وقد روى فى تعليل التكبيرات السبعة فى افتتاح الصـلاة: «أنّ النبى (ص) لمّا أسرى به إلى السماء قطع سبعة حُجب، فكبّر عند كلّ حجاب تكبيرة، فأوصله الله- عزّ وجلّ- بذلك إلى منتهى الكرامة» (١).

والتلبية مفتاح الحج:

وينطلق الحاج إلى الحجّ من «الميقات» ب- «التلبية»، والتلبية مفتاح الحجّ، كما أنّ التكبيرة مفتاح الصـلاة، ومن دون التلبية لا يتمكّن الحاج من أن ينطلق فى هـذه الرحلـة المباركـة التى شقّ طريقها إليها أبونا إبراهيم (ع)، وعمّقه، ووكـده ابنه المصطفى خاتم الأنبياء (ص).

ولا- يتأتّى للإنسان أن ينطلق إلى الله فى هـذه الرحلـة الإبراهيمية فى الاستجابة لـدعوة الله تعالى، من دون أن يفتح كلّ قلبه فى هـذه الاستجابة، ويلبّى الـدعوة إلى هذه الضيافة التى ينعم بها الله تعالى على عباده فى كلّ سنة، عند بيته المحرّم، بكلّ مشاعره وأحاسيسه وعقله وقلبه.

ولا- تتأتّى له هـذه الاستجابة وهـذا الانفتاح على هـذه الـدعوة إلّا إذا كان يُعرِض فى هـذه الرحلـة- على الأقل- عن كلّ دعوة أخرى يدعوه إليها ما فى

١- وسائل الشيعة ٧٢٢: ۴

ص: ۸۱

هذه الدنیا من متاع الحیاهٔ الدنیا- بصورهٔ مؤقتهٔ-، ویصرف نفسه و قلبه عن کلّ ما یشغل باله وهمّه عن هذه الدعوهٔ.

إنّ التلبیهٔ من فعل القلب، وأفعال الجوانح تختلف عن أفعال الجوارح.

فلیس فی وُسع القلب أن یکون له فی وقت واحد همّان واهتمامان، وانشغالان، وانصرافان واستجابتان، وذکران، بعکس الجوارح التی یمکنها أن تمارس فی وقت واحد أکثر من فعل واحد.

یقول تعالی: (ما جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَیْنِ فِی جَوْفِهِ)(۱) .

فلیس فی جوف الإنسان إلّا قلب واحد، ولیس للقلب الواحد إلّا اهتمام واحد.

فإمّا أن یصرف الإنسان هذا الإهتمام فی الاستجابهٔ إلی الله تعالی، وإمّا أن یصرفه إلی غیر الله، أو یعطّل الإنسان قلبه، ویبلّده، فیکون محلًا لکل شاردٍ ووارِدٍ ویکون مثله مثل الحوانیت، فیها من کل بضاعهٔ وسلعهٔ.

التلبیهٔ إستجابهٔ وإعراض:

والتلبیهٔ استجابهٔ وإعراض، إستجابهٔ لدعوهٔ الله- تعالی- وإعراض عن کلّ دعوهٔ أخری، ممّا تلقاها فی هذه الدنیا.

ولیس یدعو الإسلام المسلمینَ إلی الإعراض عن الدنیا، ولیس ینهی الإسلام عن الإقبال علی هذه الدنیا وفتنها، وإنّما یدعوهم إلی أن یجعلوا إستجابتهم لها فی طول استجابتهم لدعوهٔ الله وامتدادها، ولیس فی عرضها، وإلی جنبها.

وأمّا فی «الحج» فلا یتمکّن الحاج أن یستجیب لهذه الدعوهٔ الإلهیهٔ وأن یقطع آفاق هذه الرحلهٔ الإبراهیمیّهٔ المبارکهٔ إن لم یمحّض قلبه واهتمامه وإستجابته لله

۱- الأحزاب: ۴

ص: ۸۲

تعالی، ولا یتأتّی له هـذا التمحیض إن لم یعرض عن أیة دعوة أخری فی هذه الدنیا، حتی لا تشـغله دعوة عن هذه الدعوة، ولا تصـرفه مغریات دعوات الدنیا وعواملها وفتنها عن دعوة الله تعالی لعبادة الله.

و «التلبیة» تتضمّن هذین المعنیین معاً، الاستجابة لله، والإعراض عن غیر الله، والانفتاح علی الله والانقلاب عمّا دون الله.

الانقلاب الذی یحدث فی «المیقات» بفعل «التلبیة»:

و «التلبیة» تفصل الحاج فی المیقات فصلًا کاملًا عن دعوات هذه الدنیا ومغریاتها، وفتنها، وإثاراتها مرّة واحدة، ویصبّ الحجاج من کلّ فـجّ عمیق فی المیقات بأزیاء مختلفـة وهموم کثیرة واهتمامات عدیدة، فیصـیغهم الله تعالی فی «المیقات» صـیاغة جدیدة وینتزعهم من کـلّ رغبـاتهم، وهمومهم، وإهتمامـاتهم إنتزاعـاً کاملًا ب- «التلبیـة»، ویمحّضـهم للاسـتجابة لـدعوته تعالی، وینزعهم أزیاءهم، ویوحّد نسکهم، وزیّهم، وهمّهم، وإهتمامهم، وعملهم، ومسارهم، ویَصُبَّهُم فی مصبٍّ واحد إلی بیته المحرّم.

و مبدأ کلّ ذلک ومنطلقه «التلبیة»، فإنّ التلبیة توحّد فی نفس الحاج شتات الهموم والاهتمامات والاستجابات والرغبات، وتوحّد همّهم واهتمامهم ورغباتهم واستجاباتهم باتّجاه الاستجابة إلی دعوة الله تعالی.

إنّ «التلبیة» تجمع شتات إهتمامات الإنسان فی همّ واهتمام واحد، وتجمع بنفس الطریقة شتات إهتمام الناس وتعدد مذاهبهم فی الحیاة الدنیا فی إتجاه واحد.

إنّ الحیاة الدنیا تُشَتِّتُ الإنسان إلی هموم واهتمامات شتّی، وتُشَتِّتُ الناس إلی مصالح ومذاهب شتّی.

ص: ۸۳

والميقات يجمع شتات الناس فى همّ واحد، واهتمام واحد، وزىّ واحد، وطريق واحد.

و «التلبية» هى وسيلة هذا التوحيد، وفى الوقت نفسه توجّه هذا الحشد البشرى الهائل الواحد إلى الله الواحد القهّار.

فهى توحّد الإنسان (الفرد) وتوجهه إلى الله.

وتوحّد الناس (المجتمع) وتوجّههم إلى الله.

وهذا التحول العظيم يجرى فى «الميقات» بفعل «التلبية» و «الميقات»، و «الحرم» وعاء هذا التحول، و «التلبية» عامل هذا التحول.

وغايـة الحـجّ أن تتحوّل ساحة الحياة كلّها إلى «الميقات» و «الحرم»، ويكون لكلمة «لا إله إلّا الله» فى ساحة الحياة الواسـعة نفس الفعل والدور الذى يكون لكلمة «التلبية» فى الحج، وأن ينقل الحجّاج «الحرم» إلى واقع حياتهم فى «السوق».

ومن بؤس الناس وشقائهم أنّهم ينقلون «السوق» إلى «الحرم»، بخلاف ما يريده الله تعالى.

إنّ «التلبية» تعيدُ بناء الفرد والمجتمع.

وهذا البناء يتمّ على صعيدين:

توجيه الناس إلى الاستجابة لله تعالى، وهو البُعد الأوّل.

وتوحيد الناس بهذا الاتجاه، وهو البُعد الثانى.

والبُعد الأول يوحّد شتات هموم الإنسان واهتماماته، والبُعد الثانى يوحّد شتات مذاهب الناس ومصالحهم وأعمالهم.

ويحبّ الله تعالى أن ينقل الحجاج هـذه «الوحدانية الموجّهة» إلى حياتهم فى الأسواق، وفى مواقع الحكم والسـياسة، وساحات الصـراع ... ومن عجب أنّ الناس

ص: ۸۴

ينقلون شتات أهوائهم وميولهم ومذاهبهم إلى «الميقات» و «الحرم» للأسف.

ولو أمعنّا النظر فى «الميقات» و «التلبية» لقلنا: إنّ الميقات ليس فقط يستقبل شتات الناس ليصهرهم فى اتجاه واحد، واهتمام واحد، وأسرة واحدة، وهمّ واحد، وإنّما ينتزعهم من دنياهم انتزاعاً ليعبد بناءهم الفردى والاجتماعى، بعد أن شتتهم الحياة الدنيا إلى آراء ومذاهب ومصالح وهموم.

هذا إذا أعطى الحاج نفسه ل- «التلبية»، وفَعَّلَ «التلبية» فى نفسه، وفتح كلّ قلبه بالتلبية على الله، ولم يحتفظ لنفسه عند التلبية بشطر من قلبه، ليعطى الشطر الآخر لله تعالى، فإنّ القلب السليم لا ينشطر ولا يتعدّد. (ما جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِ).

والقلب البليد العاطل فقط ينشطر ويتعدّد.

وأمارة سلامة القلب توحيد الله، وأمارة بلادة القلب وعَطَله التعدّد والانشطار.

والتلبية توجه القلوب إلى الاستجابة لله، وتوحّد شتات القلوب فى هذه الاستجابة.

وهذه هى أبعاد هذا التحول العظيم، ووعاؤه «الميقات» و «الحرم»، وعامله «التلبية».

روى عن الإمام الرضا (ع): «إنمّا أمروا بالإحرام ليخشعوا قبل دخولهم حرم الله وأمنه، ولئلّا يلهو ويشتغلوا بشيء من أمور الدنيا وزينتها ولذّاتها، ويكونوا جادّين فيما هم فيه، قاصدين نحوه مقبلين عليه بكليتهم»(۱) .

تأكيد التلبية:

لقد ورد فى النصوص الإسلامية الاهتمام بتكرار التلبية، والإكثار منها وترديدها.

ص: ۸۵

روى ابن أبى عمير وابن فضّال عن رجال شتّى عن أبى جعفر (ع) قال: قال رسول الله (ص): «من لبّى فى إحرامه سبعين مرّة احتساباً أشهد الله له ألف ملك ببراءة من النار وبراءة من النفاق» (۲).

والبراءة من النفاق من نتائج التلبية، فإنّ التلبية وترديدها وتكرارها تزيل النفاق من النفس وتبرئ صاحبها من حالة النفاق، و من تشتت الميول والأهواء والهموم.

وكان رسول الله (ص) يلبّى بالتلبيات الأربع المعروفات ويكثر من ذى المعارج(۳) .

وهى:

شعور الحاج عند التلبية:

إنّ التلبية تقترن فى نفس الحاج بانفعالات نفسيّة وأحاسيس مختلفة، فهى تقترن بالشوق إذ يقبل الحاج إلى الميقات ملبّياً دعوة ربّه، ويقترن بالإحساس بالهيبة عندما يشعر الحاج أنّه يقف بين يدى ذى الجلال والعظمة ليلبّى دعوته. ويقترن بالرهبة والخوف، عندما ينظر إلى نفسه، فلا يراها أهلًا لهذا التكريم الإلهى، ولا يراها موضعاً لهذه الدعوة الإلهية ويخشى إن لبّى أن يردّ الله تعالى تلبيته.

۱- وسائل الشيعة ۳: ۹

۲- المحاسن للبرقى: ۶۴

۳- قرب الاسناد: ۷۶

ص:۸۵

ص: ۸۶

روی الصدوق فی الأمالی عن ابن المتوکل عن السعدآبادی عن البرقی عن أبیه، عن الأزدی قال: سمعت «مالک بن أنس» فقیه المدینة یقول: کنت أدخل إلی الصادق جعفر بن محمد (علیهما السلام)، فیقدّم لی مخدّة، ویعرف لی قدراً، ویقول: مالک إنّی أحبّک، فکنت أسرّ بذلک، وأحمد الله علیه.

قال: وکان- علیه السلام- لا یخلو من إحدی ثلاث خصال: إمّا صائماً، وإمّا قائماً، وإمّا ذاکراً، وکان من عظماء العبّاد، وأکابر الزهّاد الذین یخشون الله عزّ وجلّ، وکان کثیر الحدیث، طیب المجالسة، کثیر الفوائد، فإذا قال: قال رسول الله (ص)، اخضرّ مرّة واصفرّ مرّةً أخری، حتی ینکره من کان یعرفه.

ولقد حججت معه سنة، فلمّا استوت به راحلته عند الإحرام کان کلّما همّ بالتلبیة إنقطع الصوت فی حلقه، وکاد أن یخرّ من راحلته، فقلت: یا ابن رسول‌الله ولابدّ لک من أن تقول، فقال: کیف أجسر أن أقول: لبّیک اللّهمّ لبّیک، وأخشی أن یقول عزّ وجلّ لی: لا لبّیک ولا سعدیک (۱).

وعند الوقوف بین یدی الله تعالی فی موقف التلبیة فی المیقات تتفاعل هذه الانفعالات والأحاسیس فی نفس الحاج، وهذا المزیج المتناسق والمتکامل من المشاعر والانفعالات النفسیة تساهم فی هذه النقلة والتحول النفسی والاجتماعی الذی یحصل للحجاج فی «المیقات» و «الحرم».

۱- أمالی الصدوق: ۱۶۹

ص: ۸۷

القبلة والطواف

اشارة

ص:۸۸

ص: ۸۹

قيمة الكعبة:

شرّف الله «الكعبـة» وجعلها مثابـةً للناس يثوبون إليها، ويجتمعون حولها، ويجدون عندها الأمن الذى يفتقدونه فى حياتهم، (وَ إِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثابَةً لِلنَّاسِ وَ أَمْناً ...) (۱).

وهى بيت الله شرّفه الله- تعالى- وخصّه لنفسه، وجعله مباركاً، وهدًى للعالمين.

وخصّ الله- تعالى- الناس من بين سائر خلقه ببيته الذى أكرمه وخصّه لنفسه، فقال تعالى:

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبارَكاً وَ هُدىً لِلْعالَمِينَ* فِيهِ آياتٌ بَيِّناتٌ مَقامُ إِبْراهِيمَ وَ مَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً ...)(۲) .

وجعـل الله الكعبـة قياماً للنـاس، تقوّم علاقتهم بـالله، وحركتهم وكـدحهم إليه، وتقوّم معاشـهم ومعـادهم، ودنيـاهم وآخرتهم، وتنظّم علاقتهم بالله- تعالى- وبأنفسهم. (جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرامَ قِياماً لِلنَّاسِ) (۳).

۱- البقرة: ۱۲۵

۲- آل عمران: ۹۶

۳- المائدة: ۹۷

ص: ۹۰

فضل الكعبة:

وقد خصّ الله- تعالى- الكعبة بفضل عظيم، يقول أمير المؤمنين (ع) فى فضل الكعبة:

«أَلَا تَرَوْنَ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ، اخْتَبَرَ الْاوَّلِينَ مِنْ لَدُنْ آدمَ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ، إلَى الْاخِرِينَ مِنْ هذَا الْعَالَمِ؛ بِأَحْجَار لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، وَلَا تُبْصِرُ وَلَا تَسْمَعُ، فَجَعَلَهَا بَيْتَهُ الْحَرَامَ الَّذِى جَعَلَهُ لِلنَّاسِ قِيَاماً. ثُمَّ وَضَعَهُ بِأَوْعَرِ بِقَاعِ الْارْضِ حَجَراً، وَأَقَلِّ نَتَائِقِ الدُّنْيَا مَدَراً، وَأَضْيَقِ بُطُونِ الْاوْدِيَةِ قُطْراً. بَيْنَ جِبَال خَشِنَة، وَرِمَال دَمِثَة، وَعُيُون وَشِلَة، وَقُرًى مُنْقَطِعَة؛ لَا يَزْكُو بِهَا خُفٌّ، وَلَا حَافِرٌ وَلَا ظِلْفٌ، فَصَارَ مَثَابَةً لِمُنْتَجِعِ أَسْفَارِهِمْ، وَغَايَةً لِمُلْقَى رِحَالِهِمْ. تَهْوِى إلَيْهِ ثِمَارُ الْافْئِدَةِ مِنْ مَفَاوِزِ قِفَار سَحِيقَة وَمَهَاوِى فِجَاج عَمِيقَة، وَجَزَائِرِ بِحَار مُنْقَطِعَة، حَتَّى يَهُزُّوا مَنَاكِبَهُمْ ذُلُلاً يُهَلِّلُونَ (يهلّون) لله حَوْلَهُ، وَيَرْمُلُونَ عَلَى أَقْدَامِهِمْ شُعْثاً غُبْراً لَهُ قَدْ نَبَذُوا السَّرَابِيلَ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ، وَشَوَّهُوا بِإعْفَاءِ الشُّعُورِ مَحَاسِنَ خَلْقِهِمُ، ابْتِلَاءً عَظِيماً، وَامْتِحَاناً شَدِيداً، وَاخْتِبَاراً مُبِيناً، وَتَمْحِيصاً بَلِيغاً، جَعَلَهُ اللهُ سَبَباً لِرَحْمَتِهِ، وَوُصْلَةً الَى جَنَّتِهِ. وَلَوْ أَرَادَ سُبْحَانَهُ أَنْ يَضَعَ بَيْتَهُ الْحَرَامَ، وَمَشَاعِرَهُ الْعِظَامَ، بَيْنَ جَنَّات وَأَنْهَار، وَسَهْل وَقَرَار، جَمَّ الْاشْجَارِ دَانِىَ الثِّمَار، مُلْتَفَّ الْبِنىَ، مُتَّصِلَ الْقُرَى، بَيْنَ بُرَّة سَمْرَاءَ، وَرَوْضَة خَضْرَاءَ، وَأَرْيَاف مُحْدِقَة، وَعِرَاص مُغْدِقَة، وَرِيَاض نَاضِرَة، وَطُرُق عَامِرَة، لَكَانَ قَدْ صَغُرَ قَدْرُ الْجَزَاءِ عَلَى حَسَبِ ضَعْفِ الْبَلَاءِ. وَلَوْ كَانَ الْاسَاسُ الْمَحْمُولُ عَلَيْهَا، وَالْاحْجَارُ الْمَرْفُوعُ بِهَا بَيْنَ زُمُرُّدَة خَضْرَاءَ. وَيَاقُوتَة حَمْرَاءَ، وَنُور وَضِيَاء لَخَفَّفَ ذلِكَ مُصَارَعَةَ الشَّكِّ فِى الصُّدُورِ، وَلَوَضَعَ مُجَاهَدَةَ ابْلِيسَ عَنِ الْقُلُوبِ، وَلَنَفَى مُعْتَلَجَ الرَّيْبِ مِنَ النَّاسِ، وَلكِنَّ اللهَ يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ بِأَنْوَاعِ الشَّدَائِدِ، وَيَتَعَبَّدُهُمْ بِأَنْوَاعِ الْمَجَاهِدِ، وَيَبْتَلِيهِمْ بِضُرُوبِ الْمَكَارِهِ، اخْرَاجاً لِلتَّكَبُّرِ مِنْ قُلُوبِهِمْ، وَإسْكَاناً لِلتَّذَلُّلِ فِى نُفُوسِهِمْ، وَلِيَجْعَلَ ذلِكَ أَبْوَاباً فُتُحاً الَى فَضْلِهِ، وَأَسْبَاباً ذُلُلا لِعَفْوِهِ».

ص: ۹۱

وعن أمير المؤمنين (ع): «إذا خرجتم حجاجاً إلى بيت الله- عزوجل- فأكثروا النظر إلى بيت الله، فإنّ لله- عزوجل- مائة وعشرين رحمة عند بيته الحرام، منها ستون للطائفين، وأربعون للمصلّين، وعشرون للناظرين»(۱) .

وعن معاوية بن عمّار، عن أبي‌عبدالله (ع)، قال: «لله- تبارك وتعالى- حول الكعبة عشرون ومائة رحمة، منها ستون للطائفين، وأربعون للمصلّين، وعشرون للناظرين» (۲).

وعن إسحاق بن عمار، قال أبو عبد الله (ع): «يا إسحاق! مَن طاف بهذا البيت طوافاً واحداً كتب الله له ألف حسنة، ومحا عنه ألف سيئة، أفلا أخبرك بما هو أفضل من هذا؟ قلت: بلى. قال: من قضى لأخيه المؤمن حاجة كتب الله له طوافاً وطوافاً حتّى بلغ عشراً»(۳) .

دروس من الكعبة:

ل- (الكعبة) المشرّفة توجيهان في حياة المسلمين وهما: (القبلة) و (الطواف).

وكلّ منهما يرمز إلى معنى يختلف عن المعنى الآخر، وسوف نتحدّث إن شاء الله عن كلّ منهما، ونبدأ بالقبلة.

۱- القبلة

اشارة

(فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضاها) (۴)

للقبلة دور مزدوج، فهي أولًا ترمز إلى توجيه الوجوه إلى الله في كل يوم

۱- بحار الأنوار ۲۰۲: ۹۹

۲- نفس المصدر

۳- نفس المصدر ۲۰۳: ۹۹

۴- البقرة: ۱۴۴

ص: ۹۲

خمس مرات على الأقل.

فإنّ استقبال القبلة يحمل هذا الرمز التوحيدى فى الصلاة بوضوح وهو:

أنّ الإنسان فى الصلاة إذا استقبل القبلة فإنه يعطى وجهه لله تعالى فى الصلاة، معرضاً بوجهه عن كل شىء آخر غير الله.

وتوجيه الوجوه إلى الله فى الصلاة هو الرسالة الأولى لاستقبال القبلة، بلغة الرمز.

والرسالة الرمزية الثانية لاستقبال القبلة: أنّ القبلة يوحّد وجوه المسلمين جميعاً باتجاه الله، ويحفظ وجوه الناس من التشتّت والاختلاف فى الله وعن الله ... وهذه الرسالة وتلك بلغة الرمز، وهى لغة معروفة ومقروءة فى الثقافة الإسلامية.

ولابدّ من بعض التفصيل لهذا وذاك:

الدور الأول للقبلة: تسليم الوجوه إلى الله:

استقبال الكعبة فى الصلاة يرمز إلى تسليم الوجوه لله تعالى، وتسليم الوجه لله بمعنى أن يسلّم الإنسان جهة حركته ومساره لله تعالى، ويعطى وجهه لله.

أنحاء التسليم:

والتسليم لله فى حياة الإنسان على ثلاثة أنحاء:

١- التسليم لقضاء الله وقدره؛ بمعنى أن لا يعترض الإنسان ولا يتذمر لما يقدر الله- تعالى- له من القضاء والقدر فى السرّاء والضّراء، وفوق درجة التسليم هذه درجة (الرضا بقضاء الله وقدره) وهو من أسمى مراتب العبودية واليقين ... وقد تحدثنا عن ذلك.

٢- التسليم لدين الله وحكمه وشريعته، بمعنى الطاعة والانقياد والاستسلام لأمر الله وحكمه، والالتزام بحدود الله- تعالى- بصورة دقيقة، وهو (التقوى)؛ وهذا التسليم يختلف عن التسليم الأول، فإنّ التسليم هنا يتمّ بالانقياد الطوعى

ص: ۹۳

والإرادي لحكم الله تعالى وحدوده ... بينما التسليم في الفقرة الأولى بمعنى عدم الاعتراض والتذمر من قضاء الله- تعالى- وقدره والرضا به؛ أما القضاء والقدر فينزلان على الإنسان بغير إرادته واختياره، ويقهرانه على ذلك، أراد ذلك أو لم يرد.

۳- أن يسلّم الإنسان وجهه لله، بمعنى أن يجعل وجه الله ومرضاته وطاعة أحكامه وأوامره غايته في حركته، ويسعى إليه، ويكون همّه تحقيق مرضاة الله، والتقرّب إليه وابتغاء وجهه الكريم.

وهذا التسليم يختلف عن التسليم في الفقرة الثانية، ففي الفقرة الثانية يأتي التسليم بمعنى الطاعة، وتجنّب المعصية، والعمل والحركة ضمن حدود الله تعالى، وعدم تعدي الحدود الإلهية، والاجتناب عن انتهاك حرمات الله.

بينما التسليم في الفقرة الثالثة مسألة نفسية وذهنية وهي ابتغاء وجه الله ومرضاته حتى في الطاعة والتسليم لأمر الله، يبتغي بها وجهه ومرضاته تعالى.

*** والتسليم لله بالمعنى الثالث هو رسالة القبلة، وهو أحد الدورين الذين تنهض بهما (الكعبة) في حياة الإنسان؛ قال تعالى: (فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَ مَنِ اتَّبَعَنِ ...) (۱). و (بَلى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ...)(۲) ، و (وَ مَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ ...) (۳)، و (وَ مَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى ...) (۴).

۱- آل عمران: ۲۰

۲- البقرة: ۱۱۲

۳- النساء: ۱۲۵

۴- لقمان: ۲۲

ص: ۹۴

وكما ليس للإنسان إلّا قلب واحد (ما جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِی جَوْفِهِ) (۱) كذلك ليس للإنسان إلّا وجه واحد، وهذا الوجه إمّا أن يكون إلى الله، أو إلى جهة أخرى غير جهة الله.

وقد يتمكن الإنسان فی وقت واحد أن يقوم بعملين (يمشی ويتكلّم مثلًا)، ولكن لا يمكن أن يعطی وجهه فی وقت واحد إلى جهتين.

إذن معنی تسليم الوجه إلى الله هو أن يكون همّ الإنسان، وغايته فی حركته ومسعاه هو مرضاة الله تعالى (قُلْ إِنَّ صَلاتِی وَ نُسُكِی وَ مَحْیایَ وَ مَماتِی لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِینَ) (۲).

وهو أن يضع الإنسان وجهه قبال وجه الله الكريم، ويعطی وجهه لله، وهو بمعنى الإقبال على الله فی الحركة والاعراض عن غير الله.

إذن فإنّ (وجه الله الكريم) ينظم مسير الإنسان وحركته، عندما يعطی الناس وجوههم ونواصيهم لله.

وقد يعبّر القرآن عن هذا المعنى ب- «إقامة الوجه للدين»:

(وَ أَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّینِ حَنِیفاً وَ لا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِینَ)(۳) .

وإقامة الوجه للدين، بمعنی تسليم الوجوه وتوجيهها لله تعالى، فإنّ مهمة الدين فی حياة الانسان هو توجيه وجه الناس إلى الله.

الحالات الثلاث للإنسان:

وتوجيه الوجوه إلى الله هی الحالة الوحيدة للاستقامة على الصراط المستقيم فی حياة الإنسان؛ وهذه الحالة تقع مقابل حالة الإعراض والانحراف عن الله ... وهما

۱- الأحزاب: ۴

۲- الأنعام: ۱۶۲

۳- يونس: ۱۰۵

ص: ۹۵

حالتان مختلفتان فی حیاة الإنسان.

فحالات الإنسان بالنسبة إلی الله تعالی ثلاث:

۱- حالة الاستقامة علی الصراط المستقیم فی حیاة الإنسان.

۲- حالة الإعراض والصدود عن الله وهی حالة (المغضوب علیهم).

۳- حالة الانحراف عن الله، من دون إعراض وصدود، وهی حالة (الضالین).

وهذه ثلاث حالات للإنسان بالنسبة إلی الله- تعالی- تشیر إلیها سورة الفاتحة.

والحالة الأولی هی الحالة الوحیدة للاستقامة فی حیاة الإنسان.

وأبعد حالات الإنسان عن الله- تعالی- هی حالة الإعراض والصدود عن الله، وهی حالة المغضوب علیهم ... وفی هذه الحالة یخرج الإنسان عن دائرة رحمة الله الواسعة التی لا تضیق بشیء إلّا أن یشاء الله، وهی حالة السقوط والهلاک للإنسان ... وهذه الحالة تحجب الانسان عن الله حجباً کاملًا، وبین هاتین الحالتین حالة الانحراف عن الله، من دون إعراض وصدود، وهی حالة الضالین، وهذه الحالة حالة منحرفة عن الله، ولیست علی الصراط المستقیم، ولکنها لا تحمل إعراضاً وصدوداً عنه تعالی، فهی لذلک تقع فی دائرة رجاء رحمته عزوجل.

واستقبال القبلة یرمز إلی هذه الحالة الوحیدة للاستقامة علی الصراط المستقیم، وهی الحالة التی یوجه الإنسان وجهه ویسلمه لله- تعالی- وهذا هو الدور الأوّل للقبلة.

الدور الثانی للقبلة:

والدور الثانی للقبلة أنّها توجّه وجوه الناس جمیعاً إلی الله، وهذه الصفة (الاجتماعیة) فی تسلیم الوجوه لله تعطی الإنسان قرباً وسرعةً وإقبالًا أکثر فی حرکته إلی الله.

ص: ۹۶

ومن عجب، أنّ حركة الإنسان إلى الله وسط حركة جماهير المؤمنين إلى الله أسرع وأقوى وأرضى إليه تعالى، من أن يتحرّك الإنسان وحده إلى الله إلّا أن يكون أمّة لوحده، كما كان إبراهيم (ع) لوحده أمّةً.

والله تعالى يحبّ أن يستقبل عباده مجتمعين، فإذا أقاموا الصلاة، أقاموها جميعاً، وإذا توجهوا إلى وجهه الكريم بوجوههم توجهوا جميعاً، وإذا صاموا صاموا جميعاً، وإذا أفطروا أفطروا جميعاً. وهذه الصفة (الاجتماعية) أمر أصيل وجوهرى فى هذا الدين؛ والقبلة تحقّق هذه الصفة الاجتماعية فى تسليم الوجوه إلى الله، إضافةً إلى أصل التسليم.

۲- الطواف

اشارة

(وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيتِ الْعَتيقْ) (۱)

والدور الثانى للكعبة أن تستوعب هذه الغاية (وهى مرضاة الله، ووجهه الكريم) كلّ جهد الإنسان وهمّه وحركته، وهو ما يرمز إليه (الطواف).

فإنّ (القبلة) توجّه الإنسان إلى الله فى صلاته، وهذه مهمّة صعبة وشاقّة، إلّا أنّ هذه المهمّة- فى حدود القبلة- لا تستوعب كلّ جهد الإنسان وحركته، فإنّ الإنسان يصلّى، ويسعى ويتحرّك فى مناكب الأرض ابتغاءً للرزق، ويتزوّج، ويتعلّم، ويعلّم، ويحبّ، ويبغض، ويذهب إلى السوق، ويعود إلى البيت، وليس عليه من بأس فى ذلك، إذا كانت هذه الحركة فى غير معصية الله؛ غير أنّ شطراً كبيراً من جهد الإنسان وحركته واهتماماته يقع خارج هذه الجهة (مرضاة الله ووجه الله) دون أن تعارضه، ولا تستوعب كلَّ همومه وحركته وسعيه، ولا بأس

۱- الحج: ۲۹

ص: ۹۷

على الإنسان فى ذلك، غير أنّ حركته فى هذه الحالة إلى الله تكون حركة بطيئة؛ يتحرّك إلى الله إذا أقبل بوجهه على الله فى صلاته، ويتوقّف عن الحركة إلى الله إذا قضى صلاته، وذهب لغيرها من شؤونه فى الحياة، كالمجتمعات المسيحية المعاصرة، فإنّ التوجه إلى الله فى هذه المجتمعات لا يستوعب إلّا جزءاً يسيراً من جهد الناس وحركتهم فى ساعة أو بضع ساعة من أيام الآحاد فى الكنيسة، فإذا قضوا هذه الساعة فى الكنيسة، وانصرفوا إلى سائر شؤونهم فى الحياة، انصرفوا عن الله إلى غيره من شؤونهم من حلال أو حرام.

وأقل مايقال فى ذلك أنّ حركة الإنسان إلى الله تعالى تكون بطيئة، ومنقطعة، ومثل هذه الحركة البطيئة المتقطعة، لا تكاد أن توصل الإنسان إلى (لقاء الله).

و (الطواف) يعلمنا أنّ من الممكن أن يستوعب (وجهُ الله) و (مرضاةُ الله) كلّ جهد الإنسان وحركته وسعيه فى السوق والبيت والمسجد والمدرسة وساحات الحرب وميادين السلم دون أن يعطّل شيئاً من حركته ونشاطه.

الحالات الثلاث للإنسان:

ولابدّ من توضيح وتفسير لهذا الأمر فنقول:

انّ للإنسان تجاه الله ثلاث حالات:

۱- حالة الشرك.

۲- حالة التوحيد.

۳- حالة الإخلاص.

وفيما يلى توضيح لهذه الحالات:

۱- الشرك: وهى أنّ يحكّم الإنسان أكثر من عامل على سلوكه، بمعنى أن يحكّم الله- تعالى- على نفسه، ويحكّم الهوى والطاغوت فى الوقت نفسه على

ص: ۹۸

نفسه، فيخضع فى سلوكه لهذه العوامل جميعاً وليس لحكم الله- تعالى- وأمره فقط، فيطيع الله تعالى، ويطيع الهوى والطاغوت فى معصية الله، ويُحِلّ ما أحلّوه له ويحرّم ما حرّموه عليه فى مقابل ما أحلّ الله وما حرّم الله.

وهذه الطاعة والانقياد للهوى والطاغوت ... تأتى فى حياة الإنسان فى عرض طاعة الله، وبمعصية الله ومخالفته.

والقرآن يسمّى هذه الطاعة التى تأتى فى عرض طاعة الله، وتتمّ بمعصية الله ومخالفته ب- (الشرك).

فيقول- تعالى- فى طاعة الهوى: (أ رَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ أ فَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا)(۱) ، (أ فَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ وَ أَضَلَّهُ اللَّهُ عَلى عِلْمٍ ...) (۲).

وطاعة الهوى هو تأليه الهوى، ولا نعرف نحن معنى آخر لتأليه الهوى غير الطاعة والتسليم لعامل الهوى: هذا فى طاعة الهوى.

وأمّا فى طاعة الطاغوت فيقول تعالى: (اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَ رُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَ ما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلهاً واحِداً)(۳) .

والعبودية هنا الطاعة، فإنّ النصارى لم يزيدوا على طاعة أحبارهم ورهبانهم فيما أحلّوا لهم وحرّموا عليهم، فعبادتهم لهم هى تحكيم أوامرهم ونواهيهم عليهم.

وقد روى فى ذلك أنّ عدى بن حاتم قال لرسول الله (ص): إنّا لم نعبد أحبارنا ورهباننا؟ فقال له رسول الله (ص): «ألم تحلّوا ما أحلّوه، وتحرّموا ما حرّموه؟».

۲- التوحيد: وهو أن يحكّم الإنسان على نفسه حكم الله- تعالى- فقط، ويأخذ بما أحلّ الله- تعالى- وينتهى عمّا حرّم الله- تعالى-، ولا يحلّل غير ما

۱- الفرقان: ۴۳

۲- الجاثية: ۲۳

۳- التوبة: ۳۱

ص: ۹۹

أحلّ الله، ولا يحرّم غير ما حرّم الله، ويجعل الإنسان كلمـة الله هى العليا فى حياته، وأمر الله ونهيه هو النافذ الحاكم على سـلوكه، يمتثل ما أمر الله تعالى به وينتهى عمّا نهى الله عنه؛ وهذا هو (التوحيد) و (التقوى).

ولكن ليس بالضـرورة أن يكون كـلّ عمله وتحركه وسـعيه لوجه الله، وابتغـاءً لمرضـاة الله، فليس ممّا يضـر ب- (التوحيـد) أن يـذهب الإنسان إلى السوق ابتغاءً للرزق، لا ابتغاءً لوجه الله ومرضاته، وإنّما يضـرّ بالتوحيد أن يجعل عامل الرزق حاكماً على سلوكه فى عرض حاكمية الله، ويأخذ بما يتطلّبه الرزق محلّلًا له، وإن كان فى ذلك معصية الله ومخالفته.

والخلاصـة: أنّ (التوحيد) هو أن يقبل الإنسان سـيادةَ الله- تعالى- وولايتَه المطلقة على حياته؛ و (التقوى) هو تحكيم سـيادة شـريعة الله وحـدها على سـلوكه؛ فلا- يرتكب الإنسـان مـا ينهى الله عنه، ولا- يترك عمّـا يـأمر الله تعالى به، وليس من الضـرورى فى (التوحيـد) و (التقوى) أن يكون سلوك الإنسان كلّه- حتّى فى دائرة المباح- لوجه الله وابتغاء مرضاته.

۳- الإخلاـص: وهو فوق مرتبـة التوحيـد، وتتحقّق هـذه الحالـة عنـدما يمحّض الإنسان نفسه وحياته، وسـلوكه كلّه لله، وابتغاءً لمرضاته ووجهه، وتسـتوعب مرضـاةُ الله كـلَّ حركته ونشـاطه وسـلوكه، وتصـبغ هـذه الغايـة (مرضاة الله) كلَّ سـلوكه ونشاطه وحركته، أولئك المخلَصون.

والإخلاـص بهـذا المعنى هو الـدعوة الثانيـة للأنبياء بعـد دعوة (التوحيـد)؛ والإخلاص ليس بمعنى أنّ يعطّل الإنسان نشاطه وسـعيه فى مناكب الحياة، فى السوق، والبيت، والمزرعة، وساحات الحرب، والإدارة، والسياسة، ولكن بمعنى أن يطوّع الإنسان نشاطه وحركته فى هذه الساحات كلّها لله تعالى.

ومن السهل أن يعطّل الإنسان شطراً كبيراً من نشاطاته وسعيه، لئلّا يكون

ص: ١٠٠

سعيه وحركته لغير الله، ولكن من الصعب أن يطوّع الإنسان نشاطه وحركته كلّها لله تعالى؛ ودعوة الإسلام هو أن يطوّع الإنسان حركته وسعيه لله، وليس أن يعطّل الإنسان نشاطه وحركته.

وهذان منهجان فى التربية الروحية: التعطيل والتطويع.

والأوّل منهج سلبى يرفضه الإسلام، والثانى منهج ايجابى يدعو إليه الإسلام.

والطواف يرمز إلى هذا الشأن الصعب فى علاقة الإنسان بالله تعالى؛ ففى الطواف يطوف الإنسان دورة كاملة حول الكعبة، فى هذه الدورة يتحرّك كتفه الأيمن حول محيط دائرة كاملة من الشرق إلى الغرب، ومن الجنوب إلى الشمال وفيما بين هذه الجهات جميعاً، ولا تبقى نقطة على هذا المحيط الدائرى الشامل إلّا ويقطعه الإنسان بكتفه الأيمن. وهذا المحيط يساوى ٠٣٦٠ ولا نعرف جهة هندسية أوسع وأشمل من ٠٣٦٠ (أى محيط الدائرة).

وبينما يتحرّك كتف الإنسان الأيمن حول هذه الدائرة الشاملة يثبت كتفه الأيسر على مركز الدائرة وهو الكعبة، ولا يحيد عنه، فى كلّ هذه الحركة الدائرية. ولهذا التركيز والتثبيت إلى جانب تلك الحركة الشاملة معنى عميق فى حياة الإنسان المسلم، فإنّ من الممكن أن يقوم الإنسان بكامل النشاط المباح، الذى يقوم به سائر الناس فى مناكب الحياة المختلفة، دون أن ينحرف حتّى لحظة واحدة عن ابتغاء وجه الله ومرضاته فى شىء من ذلك، فيذهب إلى السوق لله، ويسعى فى مناكب الحياة لله، ويتزوّج لله، ويؤمّن معيشة أهله لله، ويعمل فى ميادين السياسة لله، ويقاتل لله، ويدافع لله، وإذا أحبّ أحبّ لله، وإذا أبغض أبغض لله، وإذا سرّ سرّ لله، وإذا غضب غضب لله.

فلا تفوت الإنسان فى هذه الحركة الواسعة حركة ولا نشاطاً ممّا ينشط له الناس فى مساحة المباح، ولا ينحرف الإنسان فى جزء من هذا النشاط الواسع عن

ص: ۱۰۱

ابتغاء وجه الله ومرضاته، وعندئذ يكون مخلَصاً لله، أى خالصاً، لا يشوب نفسه ونيّته شىء لغير الله.

يقول تعالى عن رسوله وكليمه موسى بن عمران: (وَ اذْكُرْ فِى الْكِتابِ مُوسى إِنَّهُ كانَ مُخْلَصاً وَ كانَ رَسُولًا نَبِيًّا)(۱) .

ويقول تعالى: (وَ ما تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ* إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ) (۲).

(فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ* إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ)(۳) .

و (المخلَص والمخلَصين) فى هذه الآيات بفتح اللام بمعنى الخالص، الذى خلصت نفسه ونيّته من كلّ شائبة لغير الله تعالى.

ففى تفسير قوله تعالى: (إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيم)(۴) .

عن الإمام الصادق (ع)، والراوى سفيان بن عُيينَة، قال: سألته عن قول الله: (إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيم) قال: «القلبُ السليم الذى يلقى ربَّه وليس فيه أحدٌ سواه. قال: وكلُّ قلب فيه شركٌ أو شك فهو ساقط. وإنّما أرادوا الزهد فى‌الدنيا لِتفرغَ قلوبهم للآخرة»(۵) .

واذا أخلص الإنسان نفسه لله، وكان كلّ سعيه وحركته ونشاطه لله، فانّ كلّ شىء فى حياته يقربه إلى الله- تعالى- ... ذلك أنّه مقبل بوجهه إلى الله، كادح للقاء الله كدحاً فى كلّ عمله وحركته ونشاطه، ولا يتوقّف عن الكدح والحركة والإقبال على الله فى سعى أو عمل، مهما كان نوع هذا السعى والعمل، فى ساحات السياسة أو القتال، وفى السّراء أو الضّراء، وفى السوق أو البيت أو المسجد ... كلّ ذلك يقربه

۱- مريم: ۵۱

۲- الصافات: ۴۰

۳- الصافات: ۷۴

۴- الشعراء: ۸۹

۵- أصول الكافى، كتاب الإيمان والكفر، باب الإخلاص، ح ۵

ص: ۱۰۲

إلى الله. ويكون عندئذ مع الصادقين فى مقعد صدق عند مليك مقتدر.

*** وقبل أن ننهى هـذا الدرس عن (الطواف) نضـيف إلى خصائص الطواف خصـلة أخرى، وهى الصـفة الاجتماعية فى الطواف، إنّ الله تعالى يحبّ أن يقبل عباده إليه مجتمعين، ويكـدحون ويتحركون إلى وجهه الكريم فى صـفوف متراصة، وحشود بشـرية كبيرة من المؤمنين.

وهذه الخصـلة الاجتماعية فى الحركة إلى الله تعطى لهذه الحركة سـرعة وقوّة ومتانة واستحكاماً أكثر، وشتّان بين أن يعبد الإنسان الله- تعالى- لوحده، أو يعبده فى وسط حشد من المؤمنين، فإنّ العبادة الثانية أرضـى وأقرب إلى الله تعالى، وأسـرع إلى القبول ونيل مرضاة الله من الأولى.

و فى الطواف نجد هذه الخصلة الاجتماعية بوضوح؛ حيث يدعو الله تعالى المؤمنين لطواف هذا البيت فى أيام معدودات معلومات من السـنة، فيتزاحم المؤمنون حول البيت العتيق، ويتـدافعون بطبيعـة الحـال ويخلصون إلى الله فى وسـط هـذا التـدافع والتزاحم، وهو درس عجيب من دروس الطواف.

فـإنّ العبـادة وابتغاء مرضاة الله فى وسط حشود المؤمنين يسـتتبع، بطبيعـة الحال، مثل هـذا التـدافع والتزاحم، والتنافس، وأحياناً التنافس السـلبى، ومع ذلك كلّه فإنّ الله- تعالى- يـدعونا إلى أن نسـلك الطريق إليه وسط حشود المؤمنين مع هذا التزاحم والتنافس، ويدعونا إلى التسامـح والتساهل والترفّع عن المشاكل التى تحـدث فيما بين المؤمنين أنفسـهم؛ ولابدّ مِن أن يحدث مثل ذلك، ولابدّ من الترفّع عنها، والتساهل فيها.

روى داود بن سرحان قال: سمعت أبا عبد الله (ع) يقول: «أربع لا يخلو منهنّ المؤمن أو واحدة منهنّ مؤمن يحسده، وهو أشدُّهن عليه، أومنافق يقفو أثره، أو

ص: ۱۰۳

عدو يجاهده، أو شيطان يغويه».

وللطواف فى نفوسنا مشهدان:

مشهد الطواف من الداخل، ومشهد الطواف من الخارج، ومشهد الطواف فى كلّ منهما يختلف عن الآخر.

فاذا أشرفنا على الطواف من الأعلى من سطح البيت الحرام، وجدنا هذا الجمهور الحاشد يدور حول البيت فى حركة هادئة، مريحة، متّصلة، مستمرّة، وكأنّ أرض المسجد الحرام تدور بهم فى حركة وديعة هادئة؛ وهذا هو مشهد (الطواف) من الخارج، وقراءة لحركة (التوحيد) و (الإخلاص) فى التاريخ من بعيد، من أعماق التاريخ.

وللطواف مشهدٌ آخر، وقراءة أخرى من الداخل، عندما ندخل فى زحمة الطواف، فيتدافع الطائفون، ونشقّ الطريق حول بيت الله الحرام فى زحمة الطائفين ومنافستهم، وأحياناً مضايقاتهم ومشاكساتهم، وهذا مشهد الطواف من الداخل، وكذلك نواجه هذا التدافع والتنافس من الداخل لحركة (التوحيد) و (الإخلاص).

فلا تكاد تخلص حركة (التوحيد) و (الإخلاص) لله- تعالى- فى حياتنا، فى صفوف المؤمنين الموحّدين والمخلَصين من هذا التزاحم والتنافس الايجابى، والسلبى أحياناً؛ ومع ذلك فإنّ الله- تعالى- يريد منّا أن نحمل عبىء رسالة (التوحيد) و (الإخلاص) فى الحياة فى وسط جمهور المؤمنين، وحشود الدعاة إلى الله- تعالى-، ويطلب منّا أن نتقبل نتائج هذا التزاحم والتنافس فى العمل كأمر واقع لابدّ من أن يقع، ويدعونا إلى التساهل والتسامح فى هذا الأمر، وإلى الترفّع عنه ما أمكن. وهذا هو الدرس الثانى من دروس الطواف.

***

ص:۱۰۴

ص: ۱۰۵

المنازل الثلاثة للرحمة فی السعی

اشارة

ص:۱۰۶

ص: ۱۰۷

فی حیاة الإنسان ثلاثة منازل لرحمة الله تعالی:

۱- الفقر والحاجة.

۲- الدعاء والسؤال.

۳- السعی والعمل.

وفیما یلی شرح موجز لهذه المنازل:

المنزل الأول: الفقر والحاجة:

وهو أول منـازل رحمـة الله- تعـالی- فالفقر یسـتنزل رحمـة الله حتی من غیر أن یعی صاحب الفقر فقره إلی الله، وبین (الفقر إلی الله) و (رحمة الله) علاقة تکوینیة، کلّ منهما یطلب الآخر، فالفقر إلی الله یسـتنزل رحمة الله، ورحمة الله تطلب مواقعَ الحاجة والفقر، وهی سنة عامة فی الکون، فی کلّ موضع للفقر والغنی، والضـعف والقوة؛ فإنّ الضـعف یطلب القوة، والقوة تطلب الضـعف، والفقر یطلب الغنی، والغنی یطلب الفقر، والجهل یطلب العلم، والعلم یطلب الجهل، والمریض یطلب الطب، کما أنّ الطب یطلب المرض.

ولیست حاجـة العالِم إلی الجاهل لیعلّمه بأقل من حاجـة الجاهل إلی العالم لیتعلّم منه، ولا حاجـة الطبیب إلی المریض لیداویه بأقل من حاجـة المریض إلی الطبیب لیعالجه، ولاحاجة الأمّ إلی الطفل لتسـبغ علیه حنانها وعطفها بأقل من حاجة الطفل إلی الأُمّ لتتولّاه برعایتها وعطفها.

ص: ۱۰۸

إنّها سنة الله فی كل موضع للفقر والغنی، والضعف والقوة، وهی سنة الله- تعالی- فی علاقته بفقر عباده وعجزهم وضعفهم وحاجتهم حتی من غیر سؤال وطلب ودعاء، ومن غیر وعی منهم لحاجتهم وفقرهم.

إنّ هذه العلاقة من أسرار هذا الدین، و من أسرار هذا الكون و قوانینه، و ما لم یفهم الإنسان هذا القانون فی الكون، وفی علاقة الإنسان بالله تعالی لا یستطیع أن یدرك طائفة واسعة من معارف هذا الدین وأسراره.

وكم من مریض تماثل للشفاء برحمة الله من غیر سؤال (وَ إِذا مَرِضْتُ فَهُوَ یَشْفِینِ) (۱) وكم من فقیر جائع رزقه الله- تعالی-، وأطعمه من جوع من غیر سؤال ولا- دعاء، وكم من مضطر فی لجج البحار، أو تحت الانقاض، أو تحت طائل السیوف أو فی وسط الحریق أدركته رحمة الله- تعالی- وانقذته من غیر سؤال ولادعاء، وكم من ظمآن بلغ به الظماء مبلغاً استنفذ مقاومته، فأدركته رحمة الله- تعالی- وأروته من غیر سؤال ولا- طلب؛ وكم من إنسان واجه الأخطار، وكان قاب قوسین منها، وهو یعلم أولا یعلم، فجاءه (ستر الله) فأنقذه منها؛ وكم من إنسان وصل إلی طریق مسدود فی حیاته ففتح الله- تعالی- علیه ألف طریق وطریق، وكلّ ذلك من غیر سؤال ولا طلب ولا دعاء، بل دون أن یعرف صاحبُه الله، فیمن لایعرف الله من خلقه، فضلًا من أن یعرفه فلا یطلب منه، وكم من رضیع تدركه رحمة الله- تعالی- دون أن یطلب من الله، ودون أن یسأل الله تعالی، ویقدر علی ذلك (۲).

۱- الشعراء: ۸۰

۲- وهذا لا- یعنی أن الناس لا یموتون تحت الانقاض فی الزلازل، ولا یحترقون فی الحرائق، ولا یهلكون فی لجج البحار، ولا یموت إنسان من المرض والألم ولا یموت طفل رضیع.

فقد صمّم الله تعالی هذا الكون بموجب (الرحمة) و (الحكمة)، فاذا كانت حكمة الله تقتضی وقوع كارثة فی إنسان أو حیوان أو نبات، فلا یعنی ذلك أن ننفی البعد الآخر من فضل الله- تعالی- وصفاته الحسنی، وهو الرحمة؛ ولهذا الموضوع شرح وبسط لیس هذا محله.

ص: ۱۰۹

وقد ورد فی دعاء الافتتاح: «فکم یا إلهی من کربة قد فرجتها، وهموم قد کشفتها، وعثرة قد أقلتها، ورحمة قد نشرتها، وحلقة بلاء قد فککتها».

وورد فی دعاء أیام رجب: «یا من یعطی من سأله، یا من یعطی من لم یسأله، ومن لم یعرفه تحنّناً منه ورحمة»؛ فإنّ الله تعالی یعطی بموجب هذا الدعاء من لایسأله، ومن لایعرفه من خلقه.

وفی المناجاة الشعبانیّة: «ولکن عفوک قبل علمنا».

إذن الفقر والحاجة من منازل رحمة الله- تعالی-، وحیث یکون الفقر وتکون الحاجة، تجد رحمته تعالی.

وللعارف الرومیّ الشهیر بیتٌ من الشعر فی هذا الباب، أذکر ترجمته:

لا تطلب الماء واطلب الظماء حتّی یتفجّر الماء من کلّ أطرافک وجوانبک.

وقد وردت الإشارة إلی هذه العلاقة بین رحمة الله- تعالی- وحاجة عباده وفقرهم، فی مناجاة بلیغة ومؤثرة لأمیر المؤمنین علی بن أبی طالب ۷، کان یناجی الله تعالی بها فی ظلمات اللیل فی مسجد الکوفة، نورد فیما یلی طرفاً منها:

مولای یا مولای، أنت المولی، وأنا العبد، وهل یرحم العبد إلّا المولی؟ مولای یا مولای، أنت المالک، و أنا المملوک، و هل یرحم المملوک إلّا المالک؟ مولای یا مولای، أنت العزیز، وأنا الذلیل، وهل یرحم الذلیل إلّا العزیز؟ مولای یا مولای، أنت الخالق، و أنا المخلوق، و هل یرحم المخلوق إلّا الخالق؟ مولای یامولای، أنت القوی، وأنا الضعیف، وهل یرحم الضعیف إلّا القوی؟ مولای یا مولای، أنت الغنی، وأنا الفقیر، وهل یرحم الفقیر إلّا الغنی؟ مولای یامولای، أنت المعطی، وأنا السائل، وهل یرحم السائل إلّا المعطی؟ مولای یا مولای، أنت الحی، وأنا المیت، وهل یرحم المیت إلّا الحی؟

الفقر الواعی والفقر المحجوب عن الله بالأسباب:

ص: ۱۱۰

ولكن علينا أن نشير هنا: أن هناك نوعين من الفقر؛ أحدهما يستنزل رحمة الله، والآخر يحجب صاحبه عن رحمة الله، أمّا الذى يستنزل رحمة الله فهو «الفقر الواعى» الذى يشعر صاحبه بحاجته وفقره الى الله تعالى، ويربطه بمسبّب الأسباب، دون أن يكون معنى ذلك إسقاط الأسباب عن الحساب.

وهناك الفقير الذى تحجبه الأسباب المادية عن الله تعالى، مسبّب الأسباب، فلا يكاد يشعر بفقره إلى الله بسبب إعتماده على الأسباب المادية، ويتراءى لى أنّ هذه الأسباب هى التى تغنيه وترفع فقره، فيبقى محجوباً عن الله، رغم فقره إلى الله، وهذا هو الفقر الذى يحبس صاحبه عند الأسباب، وتحجبه الأسباب عن الإحساس بفقره وحاجته إلى مسبّب الأسباب.

وليس معنى وعى الحاجة والفقر إلى الله- تعالى- إلغاء الأسباب، والإعراض والانصراف عنها، فهذا ما لا يصح، ولا يجوز، ولا يقول به أحد، حتّى الأشاعرة لايذهبون هذا المذهب المتطرف من الأسباب.

ومع تثبيت هذه الحقيقة نقول: إنّ الفقر الواعى هو الفقر الذى يشعر صاحبه بفقره إلى الله، ويثبّت ويركّز الإحساس بالفقر إلى الله فى نفس صاحبه، ولا تعيقه الأسباب عن مسبّب الأسباب.

أمّا الفقر المحجوب، فهو الفقر الذى يحبس صاحبه عند الأسباب، وتحجبه الأسباب عن الإحساس بالحاجة والفقر إلى الله تعالى، مبدأ الأسباب، ومسبّب الأسباب.

والفقر الأوّل هو المقصود من الرواية النبويّة الشريفة: «الفقر فخرى»؛ والفقر الثانى هو الذى «كاد أن يكون كفراً».

والفقر الأوّل هو الذى يستنزل رحمة الله، والثانى يحجب صاحبه عن رحمة الله.

وهذا الفقر هو الذى نجده فى كلمات أبى الأنبياءِ إبراهيم (ع)، كما يتلو علينا القرآن نبأه: (وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْراهِيمَ* ... الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ* وَ الَّذِى هُوَ

ص: ۱۱۱

يُطْعِمُنِی وَ يَسْقِينِ* وَ إِذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ* وَ الَّذِی يُمِيتُنِی ثُمَّ يُحْيِينِ* وَ الَّذِی أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِی خَطِيئَتِی يَوْمَ الدِّينِ) (۱).

فلا يريـد إبراهيم (ع) فی هـذا الخطاب أن يلغی الأسـباب الطبيعيـة فی الإطعام، والسـقی، والشـفاء، والموت، والحياة من الحساب، وقد كان (ع) يتعامل مع كل ذلك إلّا أن هـذه الأسـباب لن تحجبه عن الله- تعالی- مسبّب الأسـباب ومبـدأ الأسـباب، وهذا هو الفرق بين الرؤية التوحيدية إلی الأسباب، وبين الرؤية الأخری المشوبة بالشرك.

المنزل الثانی: الدعاء والسؤال:

اشارة

يسـتنزل الدعاء والسؤال من رحمة الله ما لايستنزله الفقر، وذلك أنّ الدعاء فقر وطلب، وكل منهما عامل مستقل فی استنزال رحمة الله- تعالی- ولذلك فهو يستنزل من رحمة الله ما لايستنزله الفقر وحده.

وكلما يكون صاحب الدعاء أكثر اضـطراراً وفقراً، يكون دعاؤه أقرب إلی الاسـتجابة، فإنّ الفقر يركّز الطلب، والطلب يعمّق حالة الفقر ويدخله إلی دائرة الوعی.

ولكل (دعوة) (إجابة)

يقول تعالی: (... ادْعُونِی أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِی سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ) (۲).

وهذا قانون عام لا يتخلف، والقرآن الكريم يقرّر هذه الحقيقة بكل وضوح (ادْعُونِی أَسْتَجِبْ لَكُمْ).

۱- الشعراء: ۶۹- ...- ۸۱

۲- المؤمن: ۶۰

ص: ۱۱۲

فإنّ (المانع) عن استجابة الدعاء، إمّا أن یکون من ناحیة المسؤول، أو من ناحیة السائل، أو من ناحیة السؤال، ولیس من رابع، ولا یمکن أن یکون هناک مانع من ناحیة المسؤول فإنّ الله- تعالی- مقتدر کریم، لا تنقص خزائنه، ولاینفد ملکه.

(... وَ إذا قَضی أَمْراً فَإِنَّما یَقُولُ لَهُ کُنْ فَیَکُونُ) (۱).

(... وَ الْأَرْضُ جَمِیعاً قَبْضَتُهُ یَوْمَ الْقِیامَةِ وَ السَّماواتُ مَطْوِیّاتٌ بِیَمِینِهِ)(۲) .

(إِنَّ اللَّهَ عَلی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ) (۳).

(وَ لِلَّهِ خَزائِنُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ) (۴).

ولا بخل ولا شحّ فی ساحته، ولا حدّ لجوده وکرمه.

(... رَبَّنا وَسِعْتَ کُلَّ شَیْءٍ رَحْمَةً وَ عِلْماً ...)(۵) .

(فَإِنْ کَذَّبُوکَ فَقُلْ رَبُّکُمْ ذُو رَحْمَةٍ واسِعَةٍ ...)(۶) .

(... وَ ما کانَ عَطاءُ رَبِّکَ مَحْظُوراً) (۷).

(ما یَفْتَحِ اللَّهُ لِلنّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِکَ لَها وَ ما یُمْسِکْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ...) (۸).

فلا نفاد لملک الله ورحمته وسلطانه حتی یعیق رحمته، ولا بخل ولا شحّ فی ساحته حتی یمنعه من الجود والعطاء.

فلیس فی المسؤول- سبحانه وتعالی- ما یمنع من الاستجابة لدعاء عباده کلما

۱- البقرة: ۱۱۷

۲- الزمر: ۶۷

۳- آل عمران: ۱۶۵

۴- المنافقون: ۷

۵- غافر: ۷

۶- الأنعام: ۱۴۷

۷- الإسراء: ۲۰

۸- فاطر: ۲

ص: ۱۱۳

دعوه وطلبوا منه شیئاً، وهو معنی قوله تعالی (ادْعُونِی أستجبْ لکُمْ) من دون قید ولا شرط، هذا من ناحیة المسؤول.

وأمّا من ناحیة السائل فقد تضرّه الاستجابة، وهو لا یعلم، و الله تعالی یعلم، فلا یستجیب لدعائه، ولکن یعوّضه عن ذلک بغیره بقضاء سائر حاجاته وغفران ذنوبه.

و قد یضرّه التعجیل بقضاء حاجته والاستجابة لدعائه، و یعلم الله- تعالی- أن تأجیل الاستجابة أصلح لحاله.

وقد یکون المانع عن الإجابة نوع السؤال والحاجة الطلب، وذلک عندما یطلب العبد مایلغی نظام التکوین فی الکون، أو یطلب مالایحل ولایصح فی نظام التشریع فی الدین ... وهذه هی الحالة الثالثة.

التبدیل، والتأجیل، والتعجیل:

فإذا کان المانع عن الإجابة من ناحیة السائل، إذا دعی الله تعالی بما لایصلح له ویضره، وهولایعلم بذلک، والله یعلم، فإنّ الله تعالی لایلغی الإجابة بشکل مطلق، ولکن یبدله بمایصلح له، من إجابة حاجاته الصالحة، أو بمایشاء له من نعمه وفضله، أو بغفران ذنوبه، وهذا هو (التبدیل).

وقد یقدّر الله لعبده الإجابة، ولکن بتأجیل وتأخیر، لمصلحة یراها الله تعالی لعبده، ولایراها العبد، وهذا هو (التأجیل).

ففی دعاء الافتتاح:

«فصرت أدعوک آمناً، وأسألک مستأنساً، لاخائفاً و لاوجلًا، مدلًا علیک فیما قصدتُ فیه الیک، فإن أبطأ عنی عتبت بجهلی علیک، ولعلّ الذی أبطأ عنی هو

ص: ۱۱۴

خير لى لعلمك بعاقبة الأمور».

وقد يؤخر الله- تعالى- إجابة دعاء عبده، كى يطول قيامه وتضرعه بين يديه- تعالى- والله يحبّ أن يطول وقوف عبده وتضرعه بين يديه، ففى الحديث القدسى: «يا موسى! إنى لست بغافل عن خلقى، ولكنى أحبّ أن تسمع ملائكتى ضجيج الدعاء من عبادى»(۱) .

وعن الصادق (ع): «إنّ العبد ليدعو فيقول الله- عزّ وجلّ- للملكين قد استجبت له، ولكن احبسوه بحاجته، فإنى أحبّ أن أسمع صوته، وإنّ العبد ليدعو، فيقول الله- تبارك وتعالى- عجّلوا له حاجته فإنى أبغض صوته»(۲) .

وقد يسأل العبد ما لايصلح ولا يصح أن يكون من تغيير فى نظام التكوين والخلق، كما لو طلب من الله أن يجعل له الشتاء حارّاً، أو الصيف بارداً، أو يدفع عنه الموت إلى قيام الساعة، أو طلب ما لايحل له فى نظام التشريع، فإنّ الله لايستجيب لدعائه، لأنه طلب ما لايكون أو ما لايحل.

وفى هذا وغير هذه الحالات يستجيب الله لدعاء عبده البتة، ولما ذا لايستجيب (وَ لِلَّهِ خَزائِنُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ)، (وَ ما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً)، و حتمية الاستجابة هنا نابعة من حكم العقل القطعى، إذا كان السائل محتاجاً وفقيراً ومضطراً إلى المسؤول، والمسؤول قادر على إجابة طلبه، ولا بخل ولاشحّ فى خلقه.

والقرآن الكريم يؤكد هذه العلاقة الحتمية(۳) يقول تعالى:

۱- (أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ وَ يَكْشِفُ السُّوءَ ...) (۴).

۱- عدة الداعى

۲- وسائل الشيعة، كتاب الصلاة، أبواب الدعاء، باب ۲۱، ح ۳

۳- ليس معنى القول بحتمية هذه العلاقة فرض أمر على الله- تعالى- فهو- سبحانه- قد كتب على نفسه الرحمة فقل سلامٌ عليكم كَتَبَ ربُّكم على نفسهِ الرحمةَ .... الأنعام: ۵۴

۴- النمل: ۶۲

ص: ۱۱۵

فلا يحتاج المضطر فى الإجابة لاضطراره، وكشف السوء عنه إلّا إلى الدعاء (إذا دعاه)، فإذا دعاه سبحانه، استجاب لدعائه، وكشف عنه السوء.

۲- (وَ قالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِی أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِی سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ) (۱).

والآية الكريمة واضحة وصريحة فى العلاقة بين الدعاء والاستجابة (ادْعُونِی أَسْتَجِبْ لَكُمْ).

۳- (... أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذا دَعانِ ...) (۲).

والعلاقة القطعية بين الدعاء والإجابة واضحة وصريحة فى هذه الطائفة من آيات كتاب الله، وهى تدفع كلّ شك وريب من النفس فى قطعية الإجابة من الله لكل دعاء، ما لم تكن الإجابة مضرة بالداعى أو بالنظام العام للتكوين والتشريع، والاستجابة فى هذه الآيات غير مشروطة ولا معلّقة بشىء.

وأمّا الشروط التى سوف نتحدث عنها؛ ففى الحقيقة ترجع إلى تحقيق الدعاء وتثبيته لمصلحة الداعى نفسه، ومن دونها يضعف الدعاء أو ينتفى.

إذن فإنّ العلاقة بين الدعاء والاستجابة علاقةٌ حتمية لا يمكن أن تتخلف، وعلاقة مطلقة لا يمكن أن تتعلق بشرط، إلّا أن يكون الشرط مما يؤكد ويثبت حالة الدعاء نحو قوله تعالى: (... إِذا دَعاهُ وَ يَكْشِفُ السُّوءَ ...).

وفى أحاديث رسول الله (ص) و أهل بيته (عليهم السلام) ما يؤكّد ويعمّق هذه العلاقة بين الدعاء والإجابة.

ففى الحديث القدسى: «يا عيسى ... إنى أسمع السامعين، أستجيب للداعين

۱- المؤمن: ۶۰

۲- البقرة: ۱۸۶

ص: ۱۱۶

إذا دعوني»(۱) .

وعن رسول الله (ص): «ما من عبـد يسـلك وادياً فيبسط كفّيه، فيذكر الله ويدعو إلّا ملأ الله ذلك الوادى حسـنات فليعظم ذلك الوادى أو ليصغر»(۲) .

وعن أبى عبد الله الصادق (ع) فى حديث: «لو أنّ عبداً سدّ فاه، ولم يسأل لم‌يعط شيئاً، فسل تعط» (۳).

وعن ميسر بن عبد العزيز عن أبى عبد الله الصادق (ع): «يا ميسر! إنّه ليس من باب يقرع إلّا يوشك أن يفتح لصاحبه»(۴) .

وعن أمير المؤمنين (ع): «متى تكثر قرع الباب يفتح لك»(۵) .

وفى وصايا رسول الله (ص) لعلىّ (ع):

«يا علىّ! .. أوصيك بالدعاء فإنّ معه الإجابة»(۶) .

وعن الصادق (ع):

«إذا ألهم أحدكم الدعاء عند البلاء فاعلموا أنّ البلاء قصير» (۷).

وعن الصادق (ع):

«لا والله، لا يلحّ عبد على الله- عزّ وجلّ- إلّا استجاب له» (۸).

والنصوصُ الإسـلاميّة تؤكـد هـذه الحتمية فى الإطلاق، فى العلاقة بين الدعاء والإجابة، وتبين بشـكل واضح وصـريح، أنّ الله- تعالى- يستحيى أن يرد دعاء عبده إذا دعاه.

۱- أصول الكافى

۲- ثواب الأعمال: ۱۳۷

۳- وسائل الشيعة، ۱۰۸۴: ۴، ح ۸۶۰۶

۴- المصدر السابق، ح ۸۶۱۱

۵- المصدر السابق، ۱۰۸۵: ۴، ح ۸۶۱۳

۶- وسائل الشيعة، كتاب الصلاة، أبواب الدعاء، باب ۲، ح ۱۸

۷- اصول الكافى، كتاب الدعاء، باب الإلحاح بالدعاء، ح ۵

۸- ارشاد القلوب للديلمى.

ص: ۱۱۷

ففی الحدیث القدسی:

«ما أنصفنی عبدی یدعونی فأستحیی أن أردّه، ویعصینی ولایستحیی منی»(۱) .

وعن الصادق (ع):

«ما أبرز عبد یده إلی الله العزیز الجبار إلّا استحیی الله- عزّ وجلّ- أن یردها»(۲) .

وفی الحدیث القدسی:

«مَن توضأ وصلّی ودعانی فلم أجبه فیما یسأل عن أمر دینه ودنیاه فقد جفوته، ولستُ برب جاف»(۳) .

وعن أمیر المؤمنین (ع): «ما کان الله لیفتح باب الدعاء، ویغلق علیه باب الإجابة»(۴) .

وعن أمیر المؤمنین (ع) أیضاً: «مَن أعطی الدعاء لم یحرم الإجابة» (۵).

وفی النصّین الأخیرین التفاتة ذات مغزی ونکهة علویة؛ فإنّ الله- تعالی- کریم و وفیّ، فإذا فتح باب الدعاء، فلا یمکن أن یغلق علی العبد باب الإجابة، وإذا رزق العبد توفیق الدعاء، فلا یمکن أن یحرمه الإجابة ..

عن رسول الله (ص): «ما فتح لأحد باب دعاء إلّا فتح الله له فیه باب اجابة، فإذا فتح لأحدکم باب دعاء فلیجهد فإنّ الله لایمل» (۶).

وهذا هو المنزل الثانی من منازل رحمة الله. أللهمّ سمعنا، وشهدنا، وآمنا.

۱- عدة الداعی، وسائل الشیعة، کتاب الصلاة، أبواب الدعاء، باب ۱۴، ح ۱

۲- ارشاد القلوب للدیلمی.

۳- وسائل الشیعة، کتاب الصلاة، أبواب الدعاء، باب ۲، ح ۱۲- وسائل الشیعة، ۱۰۸۶: ۴، ح ۸۶۲۱

۴- المصدر السابق، ۱۰۸۶: ۴، أبواب الدعاء، باب ۲، ح ۸۶۲۲

۵- المصدر السابق.

۶- وسائل الشیعة، ۱۰۸۷: ۴

ص: ۱۱۸

المنزل الثالث: السعى والعمل

اشارة

قد جعل الله تعالى (السعى) و (العمل) من منازل رحمته للدنيا والآخرة.

يقول تعالى: (مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً ...) (۱).

ويقول تعالى: (فَأَمَّا مَنْ تابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً فَعَسى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ)(۲) .

فمن عمل صالحاً آتاه الله حياةً طيبةً، وأفلحه.

فإذا كان الإنسان يبتغى دنيا أو آخرة فعليه أن يسعى إليها ويعمل لها.

وقد كان على (ع) يقول: «لا تكن ممن يرجو الآخرة بغير العمل»(۳) .

ولا يبلغ الإنسان منازل المؤمنين فى الجنة إلّا بالعمل.

(وَ مَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ) (۴).

ومهما كان العمل قليلًا فإنّ الله- تعالى- يحصيه ويثيبه عليه (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ) (۵).

(يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً ...)(۶) .

فالعمل إذن، أحد أعظم منازل الرحمة، ولا ينال الإنسان مراتب من الخير والرحمة والتوفيق والرزق من عند الله إلّا بالعمل.

ولا يبلغ الإنسان ما يطلبه من الخير بالتمنى والترجى؛ وقد روى عن الإمام

۱- النحل: ۹۷

۲- القصص: ۶۷

۳- نهج البلاغة: حكمة ۱۵

۴- النساء: ۱۲۴

۵- الزلزلة: ۷

۶- آل عمران: ۳۰

ص: ۱۱۹

الصادق (ع) إنه کان یقول: «أبلغ شیعتنا، أنه لا ینال ما عند الله إلّا بالعمل».

وهذه ثالثة منازل رحمة الله- تعالی-.

وفی قصة أبی الأنبیاء إبراهیم (ع) نلتقی مشهداً فریداً أو نادراً من نوعه، فی اجتماع المنازل الثلاثة للرحمة فی موضع واحد، فی قصة واحدة، وذلک عندما أودع أبو الأنبیاء ابراهیم (ع) زوجتَه هاجر فی واد غیر ذی زرع، وترک معها ابنهما إسماعیل (ع) وهو یومئذ طفل رضیع.

(رَبَّنا إِنِّی أَسْکَنْتُ مِنْ ذُرِّیَّتِی بِوادٍ غَیْرِ ذِی زَرْعٍ عِنْدَ بَیْتِکَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنا لِیُقِیمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِی إِلَیْهِمْ وَ ارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ یَشْکُرُونَ) (۱).

وذهب إبراهیم خلیل الله بعد ذلک إلی شأنه کما أمره الله تعالی، وترک هذه المرأة والطفل الرضیع لوحدهما فی هذا الوادی القفر بأمر الله تعالی فنفد ما کان لدیهما من الماء، وعطش الطفل، وغلب علیه الظمأ وأخذت المرأة تبحث عن الماء فلم تجد له أثراً، وأخذ الطفل یصرخ ویضرب بیدیه ورجلیه، والأم تهرول من هنا وهناک فتصعد علی الصفا تارةً تنظر إلی الأفق البعید بحثاً عن الماء ثم تهبط، وتهرول باحثة عن الماء إلی جانب جبل المروة، وتدعو الله تعالی أن یرزقهما الماء فی هذا الوادی القفر، والطفل یصرخ ویبکی ویضرب بیدیه ورجلیه عند البیت الحرام.

ففجّر الله تعالی الأرض ماءاً تحت قدمی الطفل، فأسرعت الأم إلی الماءِ، لتروی طفلها الرضیع، ولتلملم الماء لئلا یذهب هدراً، فتقول للماء وهی تصنع له حوضاً یجمعه وتقول للماء: زم .. زم ... وإلیک الروایة التاریخیة لهذه القصة:

۱- ابراهیم: ۳۷

ص: ۱۲۰

الروايهٔ التاريخيهٔ لقصهٔ السعى الأول:

تقول الروايـهٔ التاريخيـهٔ: «إنّ الله تعالى أمر عبـده وخليله إبراهيم أن يخرج بزوجته هاجر (أمّ إسـماعيل) من الشام إلى صـحراء الجزيرهٔ، حيث يقع الحرم، فلما وافى إبراهيم منطقهٔ الحرم، حيث تقع مكهٔ اليوم نزل فيها فوجد شجراً، فألقتها جر كساءاً كان معها تستظل تحته فلما سرّحهم إبراهيم و وضعهم، و أراد الانصراف عنهم إلى سارهٔ، قالت له هاجر: يا إبراهيم لِمَ تدعنا فى موضع ليس فيه أنيس ولا ماء ولا زرع؟ فقال إبراهيم (ع): الّذى أمرنى أن أضعكم فى هذا المكان هو يكفيكم، ثمّ انصرف عنهم، فلمّا بلغ (كدًى) وهو جبل بذى طوى، التفت إليهم إبراهيم (ع) فقال:

(رَبَّنا إِنِّى أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِى بِوادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ وَ ارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ).

ثمّ مضـى وبقيت هـاجر، فلمّـا ارتفع النهـار عطش اسـماعيل وطلب المـاء، فقامت هاجر فى الوادى فى موضع المسـعى فنادت: هل فى الـوادى من أنيس؟ فغـاب إسـماعيل عنهـا فصـعدت على الصـفا، ولمع لهـا السـراب فى الوادى وظنّت أنّه مـاء، فنزلت فى بطن الوادى وسعت فلمّا بلغت المسعى غاب عنها إسـماعيل، ثمّ لمع لها السـراب فى ناحيـهٔ الصـفا فهبطت إلى الوادى تطلب الماء، فلمّا غاب عنها إسـماعيل عـادت، حتّى بلغت الصـفا، فنظرت حتّى فعلت ذلـك سـبع مرّات، فلمّـا كـان فى الشوط السابع وهى على المروهٔ نظرت إلى اسماعيل، وقد ظهر الماء من تحت رجليه، فَعَدَتْ حتّى جمعت حوله رملًا فإنّه كان سائلًا فزّمته بما جعلته حوله فلذلك سمّيت زمزم».

ص: ۱۲۱

أسرار الموقف:

إنّ هذا المشهد العجيب استنزل يومذاك رحمة الله تعالى، ففجر الله لهما زمزم في واد غير ذي زرع، وجعلها مصدراً ومبدءاً لكثير من البركات على هذه الأرض المباركة، وجعل هذا المشهد جزءاً من أعمال الحجّ، وثبّته الله تعالى في واحد من أشرف فرائضه، فما هو السرّ الكامن في هذا المشهد؟ ولماذا هذا الاهتمام به في أصل الدين، وتثبيته في الحج؟ وما هو السبب المؤثر والقوى الذى استنزل رحمة الله تعالى بقوة في هذا المشهد، وجعلها مبدءاً لبركات كثيرة في حياة الأجيال المتعاقبة من الموحّدين؟

في ضيافة الرحمن ؛ ؛ ص۱۲۱

بد من أن يكون هذا المشهد ينطوى على سرّ خاص استدعى نزول رحمته تعالى في ذاك الوادى القفر، واستدعى دوام هذه الرحمة وثباتها، وجعل منها مصدراً ومبدءاً لكثير من البركات، واستدعى أن يُثَبِّتَهَا الله تعالى في حج أجيال الموحدين عند بيته الحرام.

إننى أعتقد،- والله تعالى أعلم بأسرار هذا المشهد- أنّ هذا المشهد النادر كان يجمع يومئذ بين ثلاثة منازل من منازل رحمة الله تعالى كلّ منها يستنزل رحمته تعالى.

وأول هذه المنازل الحاجة، وهي الظمأ الذى أصاب الطفل وأضرَّ به، وهذا واحد من منازل رحمة الله تعالى، ومن أقرب المنازل إلى رحمته.

ولذلك نرى أنّ الأطفال الرضّع إذا أضرّ بهم ألم، أو جوع، أو ظمأ، أو برد، أو حرّ، كانوا أقرب إلى رحمة الله تعالىمن الكبار الذين يطيقون ذلك، لأن الألم، والجوع، والظمأ يضرّ بهم أكثر من الكبار.

وقد ورد في الدعاء: (أللهمّ أعطني لفقرى)، والفقر إلى الله لوحده يستنزل رحمته- تعالى-، وكلما كان الفقر إلى الله أعظم كان أدعى لنزول رحمة الله،

ص: ۱۲۲

ويقرب الإنسان منها، سواء كان الإنسان يعى فقره إلى الله أم لا يعى، وإن كان وعى الفقر إلى الله يضاعف من قيمته وقدرته فى استنزال رحمته- تعالى-.

ولكن بشرط ألّا يحرّف الإنسان الفقر عن موضعه، فيتصوّر أنه من الفقر إلى المال أو إلى حطام الدنيا، أو إلى بعض عباد الله بدل أن يعيه على واقعه وهو الفقر إلى الله. وشتّان بين هذا الفقر وذاك الفقر. والذى يستنزل رحمة الله- تعالى- هو الفقر إلى الله، فإذا حرّف الانسان هذا الفقر من الفقر إلى الله، إلى الفقر إلى عباد الله، فقد الفقرُ قيمتَه فى استنزال رحمته- تعالى-، وأكثر فقر الناس من هذا النوع.

وفى هذا المشهد كان صراخ الطفل وضجيجه وبكاؤه من شدّة العطش مشهداً نافذاً مؤثراً فى استنزال رحمة الله تعالى.

كما أنه ليس فى مشاهد الحاجة والفاقة إلى الله مشهد مؤثر ورقيق يستنزل رحمته- تعالى- أكثر من مشهد طفل يتلظى من العطش، ولا تجد له امّه إلى الماء سبيلًا.

والمنزل الثانى لرحمة الله فى هذا المشهد هو (السعى)، وهو شرط للرزق، و لارزق من دون سعى، وقد جعل الله تعالى السعى والحركة فى حياة الإنسان مفتاحاً للرزق.

وإذا كان عامل الفقر يُكْسِب الإنسان حالة الاضطرار والفاقة والحاجة. فإنّ عامل السعى يُكْسِب الإنسان العزم والقوّة والإرادة، والحركة والنشاط، وعلى قدر حركة الإنسان وسعيه وعزمه يرزقه الله- تعالى- من رحمته.

و قد تحركت أمّ إسماعيل هاجر (س)- عندما نفد عندها الماء، وغلب الظمأ على إسماعيل (ع)- للبحث عن الماء، وسعت تطلبه، تصعد إلى الصفا مرّة، تنظر فى الأفق البعيد باحثةً عن الماء، وتنزل من الصفا وتتّجه إلى المروة، تارةً أخرى، لتصعد عليه وتنظر إلى الأفق البعيد تبحث عن الماء، ورغم أنها إستعرضت فى

ص: ۱۲۳

هذه الحركة كلّ الأفق من على الصفا والمروة فلم تجد ماءاً لم تيأس، وأعادت هذه الحركة، والصعود والنزول، والهرولة من الصفا إلى المروة وبالعكس سبع مرات، ولولا ـ أملها و رجاؤها في رحمة الله، لانقطع سعيها في الشوط الأوّل، ولكن الأمل والرجاء الذين كانا يعمران قلبها كانا يدعوانها كلّ مرة إلى إعادة السعي مرة أخرى، حتى فرّج الله عنهما وفجّر زمزم تحت قدمي إسماعيل، فإنّ الأمل هنا في الله، وليس في جهدها في البحث عن الماء، ولو كان أملها في جهدها في البحث عن الماء لانقطع أملها في المرة الأولى أو الثانية.

وقد جعل الله- تعالى- هذا السعي وهذه الحركة شرطاً للرزق، ونزول رحمته على الإنسان، والله تعالى يرزق عباده، وينزل عليهم رحمته، ولكنه تعالى شاء أن يكون السعي والحركة مفتاحاً لرزقه ورحمته.

والمنزل الثالث لرحمة الله تعالى في هذا المشهد: هو دعاء أمّ اسماعيل، ورجاؤها وثقتها بالله، وانقطاعها إلى الله، واضطرارها إليه- عزّ شأنه- في طلب الماء في هذا الوادي القفر غير ذي زرع، وكلّما انقطع الإنسان في دعائه إلى الله أكثر كان أقرب إلى رحمة الله.

ولست أدري في أية حالة من حالات الانقطاع إلى الله، كانت هذه المرأة الصالحة في تلك اللحظات في الوادي غير ذي زرع، وليس من انسان أو حيوان حولها، ووحيدها الرضيع يتلظى عطشاً، ويكاد أن يلفظ آخر أنفاسه.

لقد انقطعت المرأة إلى الله في تلك اللحظة انقطاعاً ضجّت له ملائكةُ الله بالدعاء، وضموا أصواتهم إلى صوتها، ودعاءهم إلى دعائها.

ولو أنّ الناس كلهم انقطعوا إلى الله بمثل هذا الانقطاع، لأكلوا من فوقهم، ومن تحت أرجلهم، وعمّتهم رحمة الله تعالى.

عليكِ سلام الله يا امنا، أمّ اسماعيل! من أبنائك الذين آتاهم الله النور والهدى

ص: ۱۲۴

والإيمان والنبوة، ومن المهتدين بهداهم ونورهم ... لولا ذلك الانفراد في ذلك الواد القفر غير ذي الزرع في هجير الحجاز، ولولا تلك المعاناة والمحنة لم تنقطعي إلى الله- عزّ وجلّ- بمثل هذا الانقطاع، في ذلك الموقف العسير على جبلي الصفا والمروة، ولولا ذلك الانقطاع إلى الله، لم تنزل رحمة الله تعالى عليكما، ولولا تلك الرحمة لم يكن انقطاعك إلى الله وسعيك بين الصفا والمروة من شعائر الله في الحجّ.

(إِنَّ الصَّفا وَ الْمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُناحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِما وَ مَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللَّهَ شاكِرٌ عَلِيمٌ) (۱).

لقد ثبّت الله- تعالى- يا أمّنا؛ انقطاعك إليه في ذلك الهجير، وسعيك إلى الماء، وصراخ صغيرك إسماعيل في ذاكرة التاريخ، ليعرف الأجيال من بعدك كيف يستنزلون رحمة الله، وكيف يتعرضون لرحمة الله.

إنّ رحمة الله- تعالى- واسعة لا شحّ فيها ولا نقص، ولا عجز، ولكن الناس لايعرفون مواضع هذه الرحمة ومنازلها، ولا يحسنون التعرّض لها والاستفادة منها.

ومنك تعلمنا يا أمّنا! كيف نطلب منازل رحمة الله، وكيف نتعرض لرحمة الله، ومنك يا أمنا أخذنا مفاتيح الرحمة.

وعذراً يا أمنا! إذا كنّا- نحن أبناؤك- لم نحفظ هذه المفاتيح التي سلّمتيها إلى إسماعيل من بعدك، وتوارثها أبناء إسماعيل من إسماعيل، وتوارثناها- نحن- من ابنك محمد المصطفى رسول الله (ص) فضيعناها فيما ضيعنا من تراث الأنبياء و مواريثهم.

لقد تعلّمنا من أبينا إبراهيم (ع) كيف نوحّد الله، وتعلمنا من أمّنا هاجر (س) كيف نسأل الله، وفي متاهات الهوى والطاغوت ضيعنا هذا وذاك.

فأعنّا اللهمّ! على تحصيل ما ضيعناه من تراث أبينا وأمنا (إبراهيم وهاجر) (عليهما السلام) واجعلنا من أسرتهم، ولا تطردنا ربنا! من هذا البيت من آل إبراهيم وآل عمران.

۱- البقرة: ۱۵۸

ص: ۱۲۵

(إِنَّ اللَّهَ اصْطَفى آدَمَ وَ نُوحاً وَ آلَ إِبْراهِيمَ وَ آلَ عِمْرانَ عَلَى الْعالَمِينَ* ذُرِّيَّةً بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)(۱) .

(رَبَّنا وَ اجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَکَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَکَ وَ أَرِنا مَناسِکَنا وَ تُبْ عَلَيْنا إِنَّکَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) (۲).

لقد أخذت أمُّنا (أمّ إسماعيل)- يومذاک فی ذلک الوادی القفر، وفی رمضاء هجيز ذلک الوادی- بأسباب الخير کلّها ... وذلک هو السعی والدعاء والفقر إلی الله.

لقد کانت أمّنا تسعی إلی الماء، وتشرف علی الوادی تارهٔ من علی الصفا وأخری من علی المروهٔ باحثهٔ عن الماء، والله- تعالی- يحبّ من عباده الحرکهٔ والسعی والعمل، وجعل ذلک من أهم شروط الرزق؛ ولکنها فی سعيها کانت منقطعهٔ إلی الله، وتدعوه- تعالی-، وتسأله فی حالهٔ من الانقطاع، يقلّ نظيرها فی تاريخ الإنسان، فلا السعی والتحرک، کانا يحجبانها، ويقطعانها عنه- تعالی-، ولا الانقطاع إلی الله کان يعطل فيها حالهٔ الحرکهٔ، والسعی إلی الماء بأقصی ماتستطيعه امرأهٔ فی ذلک الوادی القفر، وفی ذلک الهجير ... فی أشواط سبعهٔ من الصفا إلی المروهٔ ومن المروهٔ إلی الصفا.

وإننا اليوم فی شعائر حجّنا، نسعی هذه الأشواط بين هذين الجبلين، من غير معاناهٔ، ولا عذاب ولا همّ، ولا قلق، فنکدح ونتعب ويرهقنا هذا السعی.

وقد قامت أمُّنا هاجر بهذا السعی کلّه فی ذلک الوادی القفر، وفی رمضاء ذلک الهجير، وهی ظمأی قد استنفذ الظمأ حولها وقوتها، ورضيعها الصغير يکاد يلفظ آخر أنفاسه ... ولکنها مع ذلک قامت بهذا السعی إلی الماء بقوّهٔ وهمّهٔ

۱- آل عمران: ۳۳- ۳۴

۲- البقرهٔ: ۱۲۸

ص: ۱۲۶

وعزم وإرادة.

ولم يمنعها هذا السعى- ولو للحظة واحدة- عن الانقطاع إلى الله، ولم يحجبها ولو للحظة واحدة عنه تعالى، فقد كان سعيها فى إمتداد إنقطاعها إلى الله ودعائها، ودعاؤها مبدء سعيها وحركتها إلى الماء، ومَن منّا يقدر على ذلك؟

والملائكة يومئذ ينظرون إليها، ويعجبون منها، كيف استطاعت أن تنقطع إلى الله هذا الانقطاع؟ وكيف تمكنت أن تسعى إلى الماء، وهى مثقلة بالمتاعب والمحن هذا السعى؟ وكيف استطاعت أن تجمع بين السعى والانقطاع إلى الله بمثل هذا الجمع؟

فيضجون إلى الله- تعالى- أن يستجيب لدعائها وسعيها، وأن يستنزل سعيها ودعاؤها رحمةَ الله- تعالى-، وتقرب رحمة الله منها، حتى تكاد أن تنطبق السماء على الأرض.

لقد صعد يومئذ عمود من الدعاء، والسعى من الأرض إلى السماء، و نزل عمود من الرحمة من السماء إلى الأرض، واتّصلت الأرض بالسماء، والسماء بالأرض، وحشود الملائكة يشهدون هذا المشهد الفريدالذى لم يشهده يومئذ غيره تعالى وغيرها وغيرهم، ويضجون إلى الله تعالى، ويتضرعون أن يستجيب لدعائها وسعيها، فيحدث ما ليس بالبال ولا الخيال، وتنفجر الأرض تحت أقدام الرضيع ماءً بارداً زلالًا شفافاً هنيئاً مباركاً.

وسبحان الله، والحمد لله، لقد استجاب الله لسعيها ودعائها، ولكن لاحيث سعت، وإنّما تحت أقدام الرضيع، الذى كان يضرب بيديه ورجليه ظمأً يومذاك، ليعلمها الله أنه تعالى هو وحده الذى رزقها هذا البارد العذب، فى هذه الرمضاء، وفى هذا الهجير، وليست هى التى حققت ذلك بسعيها وحركتها ... وإن كان لابد لها

ص: ۱۲۷

من أن تسعى، وتتحرك ليرزقها الله تعالى زمزم.

ففجّر الله (زمزم) تحت أقدام الرضيع، وأقام الله- تعالى- فى ذلك الوادى بيته المحرم، وبارك فى زمزم، وجعل منه سقاية الحاج مدى الأجيال، وثبّت الله هذا السعى والدعاء فى ذاكرة التاريخ، وجعل منه شعيرة من شعائر الحج، يحذو فيها حشود الحجاج كلّ عام حذوها، ويحيّون فيها من بُعد أمّهم هاجر وأبويهم إبراهيم وإسماعيل.

لقد اجتمعت فى هذا الوادى- يومذاك- ثلاثة أسباب من أسباب نزول رحمة الله تعالى: الفقر والسعى والدعاء ...

فقر، فى أقصى درجات الضعف والفاقة، وسعى، فى قوة وحزم وعزم، ودعاء فى تضرع وانقطاع واضطرار.

وفى الحجّ نحيى نحن كلّ عام هذا المشهد، لنتعلم من أمّنا أمّ اسماعيل (س) كيف نطلب رحمة الله- تعالى-؟ وكيف نستنزل فضله ورحمته؟ وكيف نغرف من رحمته ونتعرض لها، ونتعلّم من أبينا إبراهيم كيف نتوكل على الله ونفوض أمورنا إليه.

فسلام الله على أبنيا إبراهيم وأمنا هاجر، ورضوان الله ورحمته عليهما.

***

ص:۱۲۸

ص: ۱۲۹

الرحمهٔ الهابطهٔ علی عرفهٔ

اشارهٔ

ص:١٣٠

ص: ۱۳۱

عرفة روح الحج

یتمیز عرفة من بین سائر أعمال الحج امتیازاً واضحاً.

وقد روی عن رسول الله (ص): (الحج عرفة) (۱) ومعنی الحدیث بلسان الفقه: إنّ عرفة من أرکان الحج، یبطل الحج بترک مسمی الوقوف فیها عمداً، وعلی من ترکه عمداً، من غیر عذر، أن یعید الحج ...

و معنی الحدیث بلسان العرفان: أنّ عرفة روح الحج، وکل ما یسبقه من أعمال ومناسک، إنما شُرِّع لإعداد الحاج لحضور عرفة، علی مائدة الرحمة الإلهیة، وما یلحق عرفة من مناسک وأعمال یأتی فی امتداد عرفة.

عرفة یوم الاعتراف والمعرفة

فی عرفة یتجرّد الناس عن کل غرورهم وخیلائهم، ویعترفون لله تعالی بذنوبهم وآثامهم، ویسألون الله تعالی أن یهبهم معرفة مناسکهم (وَ أَرِنا مَناسِکَنا وَ تُبْ عَلَیْنا إِنَّکَ أَنْتَ التَّوّابُ الرَّحِیمُ)(۲) یوم عرفة، إذن، یوم اعتراف ومعرفة.

۱- مستدرک وسائل الشیعة، الباب ۱۸ من أبواب إحرام الحج، والحدائق الناضرة، ۱۵: ۳۶۷، وسنن البیهقی، ۲۱۶: ۱۵، والجامع الصغیر ۱: ۱۵۰، ومسند أحمد بن حنبل ۳۸: ۲۲۲، وسنن النسائی ۲: ۴۲۴ و ۴۳۲ و ۴۶۳، والمستدرک علی الصحیحین ۴: ۲۴۸ و ۶: ۱۴

۲- البقرة: ۱۲۸

ص: ۱۳۲

و لا فرق بین الأنبیاء: وعامـة النّاس، فی الاعتراف والمعرفة فی هذا الیوم المبارک، إلّا أنّ الأنبیاء: لیست لهم ذنوب یؤاخذهم الله تعالی علیهـا، وهم معصومون، منزهون عنهـا، ولکنهم یعترفون لله تعـالی بمـا ارتکبوا من الغفلاـت والتقصـیر، وما کان ینبغی لهم ومثلهم، أن یتنزهوا ویترفعوا عنهـا، ثم یسـألون الله تعـالی أن یلهمهم ویعلّمهم مناسـکهم، لیس بوجههـا الفقهی فقـط، وإنمـا بمـا تحمل من أسـرار المعرفة والتوحید والعبودیة.

عن فضالـة بن أیّوب، عن معاویـة بن عمار، عن أبیعبـدالله (ع): «إنّ إبراهیم (ع) أتاه جبرئیل (ع) عنـد زوال الشـمس من یوم الترویـة، فقـال: یـا إبراهیم، إرتو من المـاء لـک ولأهلـک، فسـمّیت الترویـة لـذلک ... حـتّی إذا بزغت الشـمس خرج إلی عرفـات، فلمّـا زالت الشمس، مضی إلی الموقف، فقال (جبرئیل): یا إبراهیم، إعترف بذنبک، وأعرف مناسکک، ولذلک سمیت عرفة»(۱) .

عن ابن أبی عمیر، عن معاویـة عن عمـار، قـال: سـألت أباعبـدالله (ع) عن عرفـات، لم سـمیت عرفات؟ فقال (ع): إنّ جبرئیل (ع) خرج بإبراهیم (ع) یوم عرفة، فلما زالت الشمس قال له جبرئیل: یا إبراهیم إعترف بذنبک (۲).

فإذا کان الأنبیاء: یعترفون لله، وهم معصومون منزهون عن المعاصی والآثام، فأحری بعامة الناس أن یعترفوا لله تعالی فی هذا الیوم، وفی هذا الوادی بذنوبهم، ویبثوا بین یدی الله تعالی ذنوبهم وآثامهم، معترفین بجهلهم وظلمهم لأنفسـهم، راجین من الله أن یغفر لهم بکرمه وعفـوه مـا ارتکبـوه بجهلهـم وطیشـهم، طـالبین مـن الله تعـالی أن یرزقهم الـوعی والمعرفـة بمناسـکهم وعبـاداتهم، ویرزقهم المعرفـة، والتوحید، والتقوی، والطاعة.

۱- بحارالأنوار ۱۲: ۱۲۵

۲- المصدر السابق، ۱۰۸

ص: ۱۳۳

عرفة من منازل الدعاء والمغفرة

أبرز خصال عرفة أنها من منازل (الدعاء والاستجابة) و (الاستغفار والمغفرة)، فيها يستجاب الدعاء، وتغفر الذنوب وقد استفاضت الروايات بذلك.

عن أبي‌الحسن الرضا (ع): «ما وقف أحد بتلك الجبال (وادی عرفة) إلّا استجيب له»(۱) .

و عن الرضا (ع) قال: «كان أبوجعفر (الباقر (ع)) يقول: ما من برّ ولا فاجر يقف بجبال عرفات، فيدعو الله إلّا استجاب الله له»(۲).

عرفة من منازل الرحمة

رحمة الله تعالى تفيض في كل مكان وزمان، ولايخلو منها مكان ولا زمان، ولكن لرحمة الله تعالى منازل خاصة، تصب فيها رحمة الله تعالى من غيرحساب. ومن هذه المنازل منازل مكانيّة، ومنها منازل زمانية، ومنها منازل نفسية، ومنها منازل اجتماعية، ومنازل أخرى.

فمن المنازل المكانية وادی عرفة بعد الزوال من يوم عرفة، وأما في غير هذا الوقت، فهو واد كسائر الوديان، فإذا حلّ الزوال من يوم عرفة، نزل على هذا الوادی من رحمة الله ما لايعرف حجمها ووزنها إلّا الله، ومن المنازل المكانيّة المسجد الحرام، والمسجد النبوی، وحرم أهل البيت: في البقيع في الحجاز، والمسجد الأقصى في فلسطين، والحائر الحسيني ومسجد الكوفة في العراق.

و من منازل الرحمة الزمانية ليلة الجمعة، وليلة النصف من شعبان، وليلة القدر التي يقول عنها الله تعالى: (لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ) ويوم عرفة

۱- المصدر نفسه، ۹۹: ۲۶۱ وعدة الداعي لابن فهد الحلي: ۷۰

۲- بحارالأنوار، ۲۵۱: ۹۹؛ وقرب الاسناد، ۱۶۶

ص: ۱۳۴

بعد الزوال.

و من منازل الرحمة النفسیة، حالة انکسار القلب، فإنّ القلب فی حالة الانکسار أقرب شیء إلی الله، وقد ورد فی الحدیث: «إنّ الله فی القلوب المنکسرة»، ومن هذه المنازل حالة الاضطرار، فإن الإنسان فی حالة الاضطرار قریب من الله تعالی ... یقول تعالی: (أَمَّنْ یجُیبُ المُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ویَکْشِفُ السُّوءَ).

ومن منازل الرحمة تجمّع المؤمنین للدعاء والصلاة، وکلما کان اجتماع المؤمنین أعظم، کان أقرب إلی رحمة الله ... ومن ذلک تجمّع المسلمین یوم عرفة للدعاء والاستغفار، ومن ذلک اجتماع المسلمین لصلاة الجمعة والجماعة، فإنهما من منازل رحمة الله.

و وادی عرفة بعد زوال یوم عرفة من أعظم منازل رحمة الله علی وجه الأرض.

و قد روی عن رسول الله (ص): «إن لله باباً فی السماء یقال له: باب الرحمة، وباب التوبة، وباب الحاجات، وباب التفضّل، وباب الإحسان، وباب الجود، وباب الکرم، وباب العفو، ولا یجتمع بعرفات أحد إلّا استأهل من الله فی ذلک الوقف هذه الخصال ... ولله رحمة ینزلها علی أهل عرفات، فإذا انصرفوا، أشهد الله ملائکته بعتق أهل عرفات من النار، وأوجب الله تعالی لهم الجنة، ونادی منادٍ انصرفوا مغفورین، فقد أرضیتمونی، رضیت عنکم»(۱)

و اجتماع المسلمین فی وادی عرفة من أعظم اجتماعات المسلمین، وأکثرها برکة، وکلّ شیء فی هذا الوادی یستنزل یومئذ رحمة الله تعالی؛ (یوم عرفة، ووادی عرفة، واجتماع المسلمین العظیم للدعاء والصلاة، وتجردهم عن ملابسهم وإقبالهم علی الله بالتذلل، والانکسار، والاستغفار) ... کل ذلک یستنزل رحمة الله،

۱- أمالی الصدوق: ۱۸؛ وبحارالأنوار ۹۹: ۲۴۹؛ ووسائل الشیعة ۱۳: ۵۵۰، ط آل البیت

ص: ۱۳۵

وتهبط الرحمة الإلهية يومئذ بدون حساب على وادى عرفة، إلّا أن الناس ينالون من هذه الرحمة النازلة، بقدر أوعية نفوسهم.

إنما ينال كل إنسان من الرحمة فى عرفة على قدر وعاء نفسه

تفيض رحمة الله على عرفة من غير حساب، ولسنا نستطيع أن نتصور بحواسنا المحدودة، الرحمة الهابطة على عرفة، ولكن كلّ واحد منا ينال من هذه الرحمة حسب وعاء نفسه ... فمن اتسع وعاء نفسه يأخذ منها الكثير، ومن يضيق وعاء نفسه يأخذ القليل على قدر ما يسعه وعاؤه، وأوعية النفوس مختلفة، فمن الناس من يسع وعاء نفسه ما تتسع له أرض عرفة وسماؤها، ومن الناس من يتسع لما دون ذلك، ومراتبها لاتحصى.

واختلاف أوعية الناس فى النيل من رحمة الله، ليس فى أصل التكوين، وإنما الإنسان هو الذى يحدد وعاء نفسه بعمله.

فكلما يكون عمل الإنسان وجهده لله أعظم، يتسع وعاء نفسه أكثر، وكلما يتسع وعاء نفسه، يعظم حظّه من رحمة الله.

عرفة منزل الدعاء والاستجابة

عرفة منزل الدعاء والاستجابة، فيها يصعد الدعاء إلى الله، وإليها تنزل الاستجابة من عند الله ... والدعاء فى كل مكان يصعد إلى الله، والاستجابة فى كلّ مكان تنزل من عند الله إلى العباد.

ولابد لهذا الأمر من توضيح وشرح، فأقول:

إنّ الذنوب تحبس الدعاء، وتقطع الرجاء من عند الله ... وقد ورد فى الدعاء الذى علّمه أميرالمؤمنين (ع) لكميل بن زياد:

«أللهم اغفر لى الذنوب التى تحبس الدعاء ... أللهم اغفر لى الذنوب التى

ص: ۱۳۶

تقطع الرجاء».

و عن أميرالمؤمنين (ع): «المعصية تمنع الاستجابة».

عن على بن الحسين (عليهما السلام): «الذنوب التى تردّ الدعاء وتظلم الهواء عقوق الوالدين»(۱) فيدعو الانسان، فيحبس الدعاء عن الصعود إلى الله، أو تقطع رجاء العبد بالله تعالى، فلايتوفق العبد للدعاء، وهو أشدّ وأعظم من الأول، وفى الرواية: «إن الذنوب التى تردّ الدعاء سوء النيّة، وخبث السريرة، والنفاق، وترك التصديق بالإجابة، وتأخير الصلوات المفروضات، وترك التقرب إلى الله بالبر والصدقة، واستعمال البذاء والفحش» (۲).

ولكن العبد إذا تاب إلى الله، واستغفر من ذنوبه، تتساقط الحجب بينه وبين الله، فيصعد دعاؤه إلى الله، ويتفتّح قلبه على الله تعالى، وتنفتح عليه أبواب الرجاء، وتنزل عليه الاستجابة من عند الله فى كل مكان، فى عرفة وغير عرفة ... وهذا كله لا ريب فيه.

إلّا أنّ لوادى عرفة يوم عرفة بعد الزوال إلى الغروب، خصوصيةً وامتيازاً، لاتوجد فى غيرها إلّا نادراً.

ففى وادى عرفة بعد الزوال من يوم عرفة، تتساقط كل الحجب بين العبد وبين الله، ويصعد الدعاء إلى الله، وتتفتح القلوب على الله، وتنزل الاستجابة من عند الله على عباده بدون حجاب.

عن الإمام الرضا (ع) قال: «كان أبوجعفر (الباقر) (ع) يقول: ما من برّ ولا فاجر يقف بجبال عرفات، فيدعو الله إلّا استجاب الله له، أما البرّ ففى حوائج الدنيا

۱- معانى الأخبار: ۲۷۰

۲- المصدر نفسه: ۲۷۱

ص: ۱۳۷

والآخرة، وأمّا الفاجر ففی أمر الـدنیا»(۱) و قـد سـمع علی بن الحسـین (علیهما السـلام) یوم عرفة سائلًا یسأل الناس، فقال له: «ویحک! أغیر الله تسأل فی هذا الیوم؟ إنه لیرجی لما فی بطون الحبالی فی هذا الیوم أن یکون سعیداً». (۲)

کیف ندعو الله؟ وماذا نطلب من الله؟

و لاشک أنّ لکیفیة الدعاء تأثیراً فیما ینال الإنسان من رحمة الله.

فـإذا حضـر الإنسـان منـازل الـدعاء والاسـتجابة، کان علیه أن یعرف کیف یـدعو الله، کما یجب علیه أن یعرف: ماذا یطلب من الله فی الدعاء.

فإنَّ الرحمـة الهابطـة علی عرفـة، إذا کانت عظیمـة لاحـدّ لها، فإنّ فرصـة الدعاء من الزمان محدودة ... فینبغی أن یعرف الإنسان کیف یدعو وماذا یدعو؟ لئلا یخسر هذه الفرصة الزمانیة المحدودة ولایهدرها.

کیف ندعو الله؟

و أول ما یجب علی الإنسان أن یعرفه: کیف یدعو الله؟ ... فإن لکیفیة الدعاء أثراً مباشراً، کما قلنا فیما ینال الإنسان من رحمة الله.

الاجتهاد فی الدعاء:

جاء فی فقه الرضا (ع): «فإذا زالت الشـمس (من یوم عرفـة) فاغتسل، أو قبل الزوال، ثم ائت الموقف، فادع بدعاء الموقف، واجتهد فی الدعاء والتضرع، وألحّ قائماً وقاعداً إلی أن تغرب الشمس». (۳)

۱- بحارالأنوار ۲۵۱: ۹۹ وقرب الاسناد: ۱۶۶؛ ووسائل الشیعة، ۱۳: ۵۴۵، ط آل البیت.

۲- وسائل الشیعة ۱۳: ۵۵۵، ح ۱۸۴۳۱؛ بحارالأنوار ۹۹: ۲۵۲، ح ۹

۳- فقه الرضا: ۲۶؛ وبحارالأنوار ۹۹: ۲۵۵

ص: ۱۳۸

اللواذ بالله:

عن حماد بن عيسى قال: «رأيت أباعبدالله (الصادق) (ع) بالموقف على بغلة، رافعاً يده إلى السماء حتى انصرف، وكان فى موقف النبى (ص)، وظاهر كفيه إلى السماء، وهو يلوذ ساعة بعد ساعة، بسبابتيه». (۱)

التحضير للدعاء والاستعاذة:

ساعات عرفة بعد الزوال محدودة، والرحمة الهابطة على عرفة غير محدودة، فلكى يتمكن الحاج أن ينال من رحمة الله أكثر ما يسعه وعاؤه النفسى، عليه أن يحضّر نفسه لاستقبال هذه الرحمة الإلهية الواسعة الهابطة ... وأفضل ما يحضّر الإنسان لاستقبال هذه الرحمة العظيمه الهابطة القرآن والذكر، فإنّ القرآن والذكر يفتحان القلوب المغلقة، ويعدّان الإنسان لاستقبال رحمة الله بأوسع ما يتحمله وعاء نفس المؤمن.

كما أن الاستعاذة بالله من الشيطان، يحُصّن الحاج من وساوس الشيطان وخطراته، ومكره، وكيده ... فإن الشيطان لايهرع إلى صدّ المؤمن وحجبه عن الله، وإشغاله عن الدعاء والاستغفار، كما يهرع فى عرفة ... ففيها يحسّ الشيطان بأن الخطر يهدد كلّ ما عمله وكل ماجاء به، خلال مدة طويلة، فى تحريف المؤمن وصدّه عن الله ... ولذلك يبذل كلّ ما فى وسعه لإشغال المؤمن عن الذكر والدعاء والاستغفار.

و من أجل ذلك يجب الاستعاذة بالله فى عرفة كثيراً من الشيطان، لئلايصحب الشيطانُ المؤمنَ فى حرم أمن الله فى عرفة، وفى الساعات العزيزة الغالية، فيسلبه توفيق الدعاء والاستغفار والذكر.

۱- قرب الإسناد: ۲۲؛ وبحارالأنوار ۹۹: ۲۵۰، ح ۳

ص: ۱۳۹

عن معاوية بن عمار، عن أبى عبدالله الصادق (ع) قال: «إنما تعجل الصلاة وتجمع بينهما لتفرغ نفسک للدعاء، فإنه (یوم عرفة) يوم دعاء؛ ثم تأتى الموقف، وعليك السكينة والوقار؛ فاحمد الله وهلّله، ومجّده، وأثن عليه، وكبره مأة مرة، واحمده مأة مرة، وسبّحه مأة مرّة، واقرأ قل هو الله أحد مأة مرّة، وتخيّر لنفسک من الدعاء ما أحببت، واجتهد فإنّه يوم دعاء ومسألة، وتعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فإنّ الشيطان لن يذهلك فى موطن قطّ أحب إليك من أن يذهلك من ذلك الموطن، وايّاك أن تشتغل بالنظر إلى الناس، و أقبل قُبَلَ نفسك، وليكن فيما تقوله: أللهمّ إنّى عبدك فلا تجعلنى من أخيب وفدك، وارحم مسيرى إليك من الفج العميق»(۱) .

و عن أبى‌بصير عن أبى عبدالله (الصادق) (ع) قال: «إذا أتيت الموقف فاستقبل البيت وسبح الله مأة مرّة، وكبر الله مأة مرّة، وتقول ماشاء الله لاقوة إلّا بالله مأة مرّة ... ثم تقرأ عشر آيات من أول سورة البقرة، ثم تقرأ (قل هو الله أحد) ثلاث مرّات، وتقرأ آية الكرسى حتى تفزع منها ...» (۲).

التحضير لعرفة بالصلاة

الصلاة من مفاتيح الرحمة، ومما يحضّر الإنسان لاستقبال رحمة الله فى عرفة ... وقد كان الإمام الصادق (ع) يصلى بعرفة مأة ركعة ب-(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) ويختمها بآية الكرسى ... وكان (ع) يقول: «ما شهد هذا الموضع نبى ولا وصى إلّا صلّى هذه الصلاة». (۳)

۱- وسائل الشيعة ۱۳: ۵۳۸، ح ۱۸۳۹۴

۲- المصدر السابق ۱۳: ۵۴۰، ح ۱۸۳۹۷

۳- المصدر السابق ۱۳: ۵۴۲، ح ۱۸۳۹۸

ص: ۱۴۰

حسن الظنّ بالله فی الدعاء والمغفرهٔ

عن أبیعبـدالله الصادق (ع) قال: «سأل رجل أبی بعد منصـرفه من الموقف، فقال: أتری یخیّب الله هذا الخلق کله .. فقال أبی: ما وقف بهذا الموقف أحد إلّا غفر الله له. إلّا أنهم فی مغفرتهم علی ثلاث منازل ...» (۱).

أعظم الناس ذنباً

روی محمد بن علی بن الحسین (ع)، قال: روی: «إن أعظم الناس ذنباً من وقف بعرفات ثمّ ظنّ أنّ الله لم یغفر له» (۲).

و روی الصـدوق فی الفقیه: «أعظم الناس جرماً من أهل عرفات الـذی ینصـرف من عرفات، وهو یظنّ أنه لم یغفر له، یعنی الذی یقنط من رحمهٔ الله» (۳).

لیس فی عرفهٔ دعاء موقت

و قد ورد فی عرفهٔ عن طریق أهل‌البیت: أدعیهٔ، موقّتهٔ، منظمهٔ، هی من غرر الدعاء والذکر، وسوف نتحدث عنها إن شاء الله.

ولکن للحاج عندما یقف فی عرفهٔ أن یدعو الله تعالی لحاجاته الخاصهٔ بلسانه ولغته، مسترسلًا، من غیر أن یتقید بدعاء موقّت.

فإنّ الله یحبّ أن یسترسل العبد فی حاجاته مع ربّه، بلغته ولسانه، وبالطریقهٔ التی یحبها فی الدعاء مع الله تعالی.

و قد ورد فی الحدیث عن الإمام الباقر (ع) أنّه قال: «سبعهٔ مواطن لیس فیها دعاء موقّت، منها الوقوف بعرفات» (۴).

۱- المصدر السابق ۱۳: ۵۴۹، ح ۱۸۴۰۶

۲- المصدر السابق ۱۳: ۵۴۷، ح ۱۸۴۰۷

۳- من لایحضره الفقیه ۲: ۱۳۷، ۵۸۷

۴- بحارالأنوار ۹۹: ۲۵۱- ۲۵۲

ص: ۱۴۱

و لیس معنی ذلک النهی عن الـدعاء الموقّت، وإنما المعنی أن للعبـد أن یسترسل فی الـدعاء مع الله فی عرفـة، من غیر أن یلتزم بـدعاء موقّت.

ماذا نطلب من الله تعالی فی الدعاء؟

ینبغی فی الـدعاء أن نطلب من الله تعـالی کـلّ شـیء مما نحتاج إلیه، وکلّما یهمنا فی دنیانا وآخرتنا، ونطلب منه أن یکفینا کلما نحترز منه من سوء وشرّ فی دیننا ودنیانا، فإنّ مفاتیح الخیر وأسـبابه کلها بید الله، ولا یمتنع عن إرادته شـیء، و لایعجزه شیء، ولا یبخل علی عباده بشیء من الخیر والرحمهٔ.

و إذا کان الله تعالی لایبخل بالعطاء والإجابهٔ، فمن المعیب، ومن القبیح أن یبخل العبد بالسؤال والدعاء.

فی الحـدیث القدسـی: «لو أنّ أولکم وآخرکم وحیّکم ومیّتکم اجتمعوا فتمنی کـل واحـد ما بلغت أمنیته فأعطیته، لم ینقص ذلک من ملکی». (۱)و أیضاً عن رسول الله (ص) من الحدیث القدسـی: «لو أن أهل سـبع سماوات وأرضین سألونی جمیعاً، وأعطیت کل واحد منهم مسألته، ما نقص ذلک من ملکی، وکیف ینقص ملک أنا قیّمه؟!»(۲) و فی الحدیث عن رسول الله (ص): «سلوا الله وأجزلوا، فإنّه لایتعاظمه شیء»(۳) .

و روی: «لاتستکثروا شیئاً مما تطلبون، فما عند الله أکثر».

۱- المصدر السابق ۲۹۳: ۹۳

۲- المصدر السابق ۳۰۳: ۹۳

۳- المصدر السابق ۳۰۲: ۹۳

ص: ۱۴۲

و أمثلـۀ التعمیم والتوسـعۀ فی الدعاء فی طلب کل خیر، والاحتراز من کل شـرّ، کثیرۀ فی النصوص المرویۀ من الدعاء عن أهل البیت:، نذکر منها بعض النماذج.

منها الدعاء المعروف:

«یـا من یعطی الکثیر بالقلیـل، یـا من یعطی من سأله، یا من یعطی من لمیسأله، ومن لمیعرفه، تحنّناً منه ورحمـۀ، أعطنی بمسألتی إیّاک جمیع خیر الـدنیا وجمیع خیر الآخرۀ، واصـرف عنّی بمسألتی إیّاک جمیع شـرّ الـدنیا وشـرّ الآخرۀ، فإنّه غیر منقوص ما أعطیت، وزدنی من فضلک یا کریم».

و فی الدعاء: «أللهم إنّی أسألک مفاتح الخیر وخواتمه، وسوابغه وفوائده وبرکاته، وما بلغ علمه علمی، وما قصر عن إحصائه حفظی».

و فی الـدعاء: «یـا من هو فی علوّه قریب، یـا من هو فی قربه لطیف، صـلّ علی محمّـد وآل محمّـد، أللهم إنّی أسألـک لـدینی ودنیای وآخرتی من الخیر کله، وأعوذ بک من الشر کله».

و فی الدعاء: «وأدخلنی فی کلّ خیر أدخلت فیه محمّداً وآل محمّد، وأخرجنی من کلّ شرّ أخرجت منه محمّداً وآل محمّد».

و فی الدعاء: «و اکفنی ما أهمّنی من أمر دنیای وآخرتی».

و فی الدعاء: «أللهم لا تدع لی ذنباً إلّا غفرته، ولا همّاً إلّا فرجته، ولا سقماً إلّا شفیته، ولا عیباً إلّا سترته، ولا رزقاً إلّا بسطته، ولا خوفاً إلّا آمنته، و لاسوءاً إلّا صرفته، ولا حاجۀً هی لک رضاً، و لی فیها صلاح إلّا قضیتها یا أرحم الراحمین».

و فی الـدعاء: «یا من بیـده مقادیر الدنیا والآخرۀ، وبیده مقادیر النصـر والخذلان، وبیده مقادیر الغنی والفقر، وبیده مقادیر الخیر والشـرّ، صلّ علی محمّد وآل محمّد،

ص: ۱۴۳

وبـارك لى فى دينى الـذى هو ملاـك أمرى، ودنيـاى التى فيهـا معيشتى، وآخرتى التى إليهـا منقلبى، وبارك لى فى جميع أمورى ... أعوذ بك من شرّ المحيا والممات، وأعوذ بك من مكاره الدنيا والآخرة».

و فى الدعاء: «أسألك بنور وجهك الذى أشرقت به السـماوات، وانكشـفت به الظلمات، وصلح عليه أمر الأولين والآخرين، أن تصلى على محمّد وآل محمّد، وأن تصلح لى شأنى كله، ولاتكلنى إلى نفسى طرفة عين أبداً».

و فى دعـاء الأسـحار للإمـام زين العابـدين (ع): «اكفنى المهم كلّه، واقض لى بالحسـنى، وبـارك فى جميـع أمورى، واقض لى جميع حوائجى، أللهم يسّـِر لى ما أخاف تعسيره، فإن تيسير ما أخاف تعسيره عليك يسير، وسهّل لى ما أخاف حزونته، ونفّس عنى ما أخاف ضيقه، وكفّ عنى ما أخاف غمّه، واصرف عنى ما أخاف بليته».

و فى دعاء الأسحار أيضاً: «وهب لى رحمة واسعة جامعة أطلب بها خير الدنيا والآخرة».

قـد يكون من المعيب أن يطلب بعضـنا من بعض حاجـاته الطفيفـة والصـغيرة، ولكن عنـدما يكون وجه العبـد إلى الله تعالى فى الطلب والسؤال يختلف الأمر، فلايكون الطلب معيباً، مهما صغرت الحاجة، وخفّت.

فإنّ العبد مكشوف لربّه سـبحانه وتعالى بكل حاجاته، ونقصه، وضـعفه، وبكل سوآته وعوراته، ولا يخفى عليه سـبحانه شىء من فقرنا ونقصنا حتى نخجل أن نعرض عليه سبحانه ضعفنا، وعجزنا، وحاجاتنا التى نخجل أن نعرضها على غيره سبحانه.

فلاينبغى أن تحجب جلائل الحاجات والطلبات عنه سبحانه صغار الحاجات

ص: ۱۴۴

وخفافها.

والله تعالى يحبّ أن يرتبط به عبده في كلّ حاجاته وشؤونه، صغارها وكبارها، حتى يكون ارتباطه به ارتباطاً دائماً، ولن يدوم هذا الارتباط، ويستمر ويتصل بين العبد وربّه، إلا ـ إذا كان العبد يشعر بالحاجة إلى ربّه، في كلّ شؤونه وحاجاته في جلائل الحاجات وصغارها، حتى في مثل شسع نعله إذا انقطع.

عن رسول الله (ص): قال: «سلوا الله عزّوجلّ ما بدا لكم من حوائجكم، حتى شسع النعل، فإنّه إن لم‌ييسره لم‌يتيسر».

والتعبير دقيق: «فإنّه إن لم‌ييسره لم‌يتيسر»، فإنّ التيسير كله بيد الله، ما جلّ وكبر منه، وماصغر ... وما من شيء يخرج عن سلطان الله، وما من عمل، مهما كان صغيراً، لايستغني فيه العبد عن تيسير الله، فإنّه إن لم‌ييسره الله لم‌يتيسر، حتى لو كان مثل شسع النعل، أو ما هو أصغر من ذلك، و دونه.

و عنه (ص) قال: «ليسأل أحدكم ربّه حاجته كلّها، حتى يسأله شسع نعله إذا انقطع»(۱) .

و عنه (ص): «لاتعجزوا عن الدعاء، فإنّه لم يهلك أحد مع الدعاء، وليسأل أحدكم ربّه حتى يسأله شسع نعله إذا انقطع، واسألوا الله من فضله، فإنّه يجب أن يسأل»(۲) .

و عن سيف التّمار قال: سمعت أبا عبدالله (ع) يقول: «عليكم بالدعاء؛ فإنّكم لاتتقربون بمثله، ولاتتركوا صغيرة لصغرها أن تسألوها، فإنّ صاحب الصغائر هو صاحب الكبائر» (۳).

۱- مكارم الأخلاق: ۳۱۲، بحارالأنوار ۲۹۵: ۹۳

۲- بحارالأنوار ۳۰۰: ۹۳

۳- المصدر السابق ۲۹۳: ۹۳؛ المجالس: ۱۹، وسائل الشيعة ۱۰۹۰: ۴، ح ۸۶۳۵، أصول الكافي: ۵۱۶

ص: ۱۴۵

و فی الحدیث القدسی: «یا موسی، سلنی کلّ ما تحتاج إلیه، حتّی علف شاتک وملح عجینک»(۱) .

و لسنا بحاجة إلی التأکید علی أنّ هذا المبدأ فی الدعاء لایعنی التخلی عن العمل والحرکة والسعی، ولکن علی الإنسان فی حرکته وسعیه أن لا یضع أولًا ثقته ورجاءه فی عمله وحرکته، بل یجعل رجائه وثقته فی الله تعالی، ولایقطع علاقته وارتباطه و دعائه لله تعالی فی زحمة تحرکه وعمله وسعیه.

و هذا وذاک یتطلبان من الإنسان، أن یسأل الله تعالی کل حاجاته وشؤونه، حتی شسع نعله، وعلف دابته، وملح عجینه، کما ورد فی الحدیث القدسی.

کما نسأل الله تعالی کل شیء، نسأله النعم الجلیلة والکبری، ولانستکثر نعمةً مهما جلّت وعظمت أن نسألها من الله، إن کان ذلک فی الإمکان، فلا یعظم شیء علی الله، ولا یُعْجِزُ الله تعالی شیء، ولا ینقص من خزانته، مهما کان عطاؤه جلیلًا وعظیماً.

و کما ینبغی أن لانخجل من الله تعالی أن نطلب منه صغائر الأمور، من نحو علف الدابة، وشسع النعل، وملح العجین، کذلک ینبغی أن لانستکثر علی الله تعالی أن نسأله النعم العظیمة الجلیلة، مهما عظمت وجلّت.

روی عن ربیعة بن کعب قال: قال لی ذات یوم رسول الله (ص): «یاربیعة، خدمتنی سبع سنین، أفلاتسألنی حاجة؟ فقلت: یا رسول الله، أمهلنی حتی أفکّر، فلمّا أصبحت ودخلت علیه قال لی: یا ربیعة، هات حاجتک، فقلت: تسأل الله أن یدخلنی معک الجنة، فقال لی: من علّمک هذا؟ فقلت: یا رسول‌الله، ما علّمنی أحد،

۱- عدة الداعی: ۹۸

ص: ۱۴۶

لکنی فکّرت فی نفسی وقلت: إن سألته مالًا کان إلی نفاد، وإن سألته عمراً طویلًا وأولاداً، کان عاقبتهم الموت، قال ربیعة: فنکس رأسه ساعة، ثمّ قال (ص): أَفْعَلُ ذلک، فأعنّی بکثرة السجود؛ قال: وسمعته یقول (ص): ستکون بعدی فتنة، فإذا کان ذلک، فالتزموا علیّ بن أبی‌طالب (ع)» (۱). الخبر بتمامه (۲).

و ممّا ینبغی من الـدعاء یوم عرفـة الـدعاء للمؤمنین؛ وقد ورد فی ذلک تأکید کثیر فی النصوص الإسـلامیة، وأنّ الله تعالی یرزق العبد بالدعاء للمؤمنین ضعف الدعاء لنفسه، أو أضعافه، حسب اختلاف الروایات.

و إنّ الدعاء للمؤمنین دعاء مضـمون الإجابة لهم وضعفه أو أضعافه له (للداعی) بخلاف دعاء الإنسان لنفسه، فقد لایعلم الإنسان أحیاناً أن دعاءه لنفسه هل یبلغ مبلغ الإجابة أم لا؟

و الدعاء للمؤمنین علی نحوین:

۱. التعمیم فی الدعاء للمؤمنین

۲. التخصیص فی الدعاء للمؤمنین

التعمیم فی الدعاء للمؤمنین

و هو مما علّمنا الله تعالی فی کتابه فی آیات کثیرة، کما ورد هـذا النوع من الدعاء، فیما بلغنا من أدعیة أهل البیت:، وفی هذا النحو من الـدعاء یخرج الإنسان فی دعائه بین یـدی الله من نطاق الـذات الضـیقة، إلی رحاب الأمّـة الواسع ... وهذه نقلة کبیرة من الأنا والذات، إلی رحاب الأمّة التی اختارها الله

۱- بحارالأنوار ۳۲۷: ۹۳

۲- الدعاء: ۱۵۱- ۱۵۵ محمدمهدی الآصفی، الطبعة الأولی.

ص: ۱۴۷

لحمل رسالته، وجعلها أمة وسطی شاهدة علی الناس.

و من نماذج ذلک فی کتاب الله:

(إِهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ* صِراطَ الَّذِينَ أنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ولَا الضَّالِّينَ) (۱).

(ربَّنا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّکَ أنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) (۲).

(ربَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وقِنا عَذابَ النَّارِ) (۳).

(ربَّنا أفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً وثَبِّتْ أقْدامَنا وانْصُرْنا عَلَی الْقَوْمِ الْكافِرِينَ) (۴).

(ربَّنا لا تُؤاخِذْنا إنْ نَسِينا أوْ أخْطَأْنا ربَّنا ولا تَحْمِلْ عَلَيْنا إِصْراً كَما حَمَلْتَهُ عَلَی الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنا رَبَّنا ولا تُحَمِّلْنا ما لا طاقَةَ لَنا بِهِ واعْفُ عَنَّا واغْفِرْ لَنا وارْحَمْنا أنْتَ مَوْلانا فَانْصُرْنا عَلَی الْقَوْمِ الْكافِرِينَ)(۵) .

(ربَّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنا وهَبْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أنْتَ الْوَهَّابُ) (۶).

(رَبَّنا إِنَّنا سَمِعْنا مُنادِياً يُنادِي لِلإِيمانِ أنْ آمِنُوا بِربِّكُمْ فآمَنَّا رَبَّنا فَاغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئاتِنا وتَوَفَّنا مَعَ الأَبْرارِ ربَّنا وآتِنا ما وَعَدْتَنا عَلی رُسُلِكَ ولا تُخْزِنا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعادَ) (۷).

(رَبَّنا أفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً وتَوَفَّنا مُسْلِمِينَ)(۸) .

۱- الفاتحة: ۶- ۷

۲- البقرة: ۱۲۷

۳- البقرة: ۲۰۱

۴- البقرة: ۲۵۰

۵- البقرة: ۲۸۶

۶- آل عمران: ۸

۷- آل عمران: ۱۹۳- ۱۹۴

۸- الأعراف: ۱۲۵

ص: ۱۴۸

التخصيص فی الدعاء للمؤمنين

و هو نوع آخر من الدعاء للمؤمنين.

فی هذه الأدعية يعمد الداعی إلی ذكر المؤمنين الذين يعرفهم بأسمائهم ويخصّهم واحداً بعد آخر بالذكر، ويستغفر الله تعالی لهم، ويدعو لهم فی حاجاتهم بين يدی الله، والله تعالی يحب أن يسمع دعاء عباده، بعضهم لبعض بالتخصيص والإسم ... وإنَّ هذا اللون من الدعاء يزيل ما فی نفوس المؤمنين من الكدر أحياناً، ويطهّر قلوبهم تجاه بعض عن الكره، والحسد، وما يكدر صفو النفوس مما لاينبغی أن يحمله مؤمن لمؤمن فی نفسه.

عن أبی‌عبدالله (الصادق) (ع): «دعاء المرء لأخيه بظهر الغيب، يدرّ الرزق، ويدفع المكروه»(۱) .

و عن أبی‌جعفر الباقر (ع): «أوشك دعوة، وأسرع إجابة، دعاء المرء لأخيه بظهر الغيب»(۲) .

و عن أبی خالد القماط، قال: قال أبوجعفر (الباقر) (ع): «أسرع الدعاء نحجاً، دعاء الأخ لأخيه بظهر الغيب، يبدأ بالدعاء، فيقول له ملک موكّل به: آمين ولک مثلاه»(۳) .

روی محمد بن يعقوب عن علی بن إبراهيم عن أبيه، قال: رأيت عبدالله بن جندب بالموقف، فلم أر موقفاً أحسن من موقفه، ما زال مادّاً يده إلی السماء، ودموعه تسيل علی خدّيه، حتّی تبلغ الأرض، فلمّا انصرف الناس قلت: يا أبامحمد، ما رأيت موقفاً قطّ أحسن من موقفک. قال: والله ما دعوت إلّا لإخوانی،

۱- أصول الكافی ۴۳۵؛ ووسائل الشيعة ۱۱۴۵: ۴، ح ۸۸۶۷

۲- المصدر السابق: ۴۳۵

۳- المصدر السابق.

ص: ۱۴۹

وذلـک لأنّ أبـالحسن موسـی بن جعفر (ع) أخبرنی أنه: «من دعـا لأخیه بظهر الغیب، نودی من العرش: ولک مأة ألف ضـعف مثله»؛ فکرهت أن أدع مأة ألف ضعف مضمونة لواحدة، لا أدری تستجاب أم لا؟

(۱) و روی ثقة الإسـلام الکلینی أیضاً بسنده عن ابن أبی عمیر، قال: کان عیسی بن أعین، إذا حج فصار إلی الموقف أقبل علی الدعاء لإخوانه، حتی یفیض النـاس. قال: فقلت له: تنفق مالک وتتعب بـدنک، حتّی إذا صـرت إلی الموضع الـذی تبثّ فیه الحوائج إلی الله عزّوجلّ، أقبلت علی الدعاء لإخوانک، وترکت نفسک، فقال: إنی علی ثقة من دعاء الملک لی، وفی شک من الدعاء لنفسی(۲) .

عن إبراهیم بن أبی البلاد (أو عبـدالله بن جنـدب) قـال: کنت فی الموقف فلمّا أفضت، لقیت إبراهیم بن شـعیب، فسـلمت علیه، وکان مصاباً بإحـدی عینیه، وإذا عینه الصـحیحة حمراء، کأنه علقـة (علقـة دم)، فقلت له: قـد أصـبت بإحـدی عینیک، وأنا والله مشـفق علی الأخـری، فلـو قصـرت عن البکـاء قلیلًا، قـال: لاـ والله یـا أبامحمـد، مـا دعوت لنفسـی الیوم بـدعوة، فقلت: فلمن دعوت؟ قـال: دعوت لإخوانی، فإنی سـمعت أباعبدالله (ع) یقول: «من دعا لأخیه بظهر الغیب، وکّل الله به ملکاً یقول: ولک مثلاه؛ فأردت أن أکون أنا أدعو لإخوانی، ویکون الملک یدعو لی، لأنی فی شک من دعائی لنفسی، ولست فی شک من دعاء الملک لی (۳).

عرفة منزل المغفرة

عرفـة منزل مغفرة، ومن أعظم منازل المغفرة علی وجه الأرض، وما من مسـلم یقف الموقف یوم عرفة من زوال الشـمس إلی الغروب، إلّا ویغفر الله تعالی له ما

۱- وسائل الشیعة ۱۳: ۵۴۴، ح ۱۸۴۰۲؛ ورواه الصدوق مرسلًا فی الفقیه ۲: ۱۳۷/ ۵۸۹

۲- الکافی ۴۶۵: ۴/ ۸؛ التهذیب ۱۸۵: ۵- ۶۱۶؛ وسائل الشیعة ۱۳: ۵۴۴، ح ۱۸۴۰۳

۳- وسائل الشیعة ۱۳: ۵۴۵، ح ۱۸۴۰۴

ص: ۱۵۰

تقدّم من ذنبه.

روی ابن أبی عمیر عن عمر بن یزید، قال: سمعت أباعبدالله (الصادق) (ع)، یقول: «الحاج إذا دخل مکهٔ، وکّل الله به ملکین، یحفظان علیه طوافه، وصلاته، وسعیه، فإذا وقف بعرفهٔ، ضربا علی منکبه الأیمن، ثمّ قالا له: أمّا ما مضی فقد کفیته، فانظر کیف تکون فیما تستقبل» (۱).

و عن معاویهٔ بن عمّار عن أبی عبدالله الصادق (ع)، قال: «قال علی بن الحسین ٨: أما علمت إذا کان عشیهٔ عرفهٔ یقول (الله): أنظروا إلی عبادی أتونی شعثاً غبراً ... قد شفعت محسنهم فی مسیئهم، وقد تقبّلت من محسنهم، فأفیضوا مغفوراً لکم، ثمّ یأمر ملکین، فیقومان بالمأزمین فیقولان: أللهم سلّم سلّم»(۲) .

و روی ابن فهد الحلّی فی عدهٔ الداعی: إنّ من الذنوب ما لایغفر إلّا بعرفهٔ والمشعر الحرام (۳).

عن جابر بن عبدالله: ما من مسلم یقف عشیّهٔ عرفهٔ بالموقف، فیستقبل القبلهٔ بوجهه، ثمّ یقول: لا إله إلّا الله وحده لا شریک له ... ثمّ یقرأ: (قل هو الله أحد) مأهٔ مرّهٔ، ثم یقول: أللهم صلّ علی محمد وعلی آل محمد ... ألا قال الله تبارک وتعالی: «یا ملائکتی ما جزاء عبدی هذا؟! سبّحنی، وهلّلنی، وکبرنی، وعظمنی، وعرفنی وأثنی علیّ، وصلّی علی نبییّ ... أشهدوا ملائکتی، إنی قد غفرت له، وشفعته فی نفسی، ولو سألنی عبدی هذا، لشفعته فی أهل الموقف کلهم» (۴).

عن علی (ع) أنه قال بعرفات: «لا أدع هذا الموقف ما وجدت إلیه سبیلًا، لأنه لیس فی الأرض یوم فیه عتقاء من النّار، ولیس یوم أکثر عتقاً للرقاب فیه من یوم

۱- بحارالأنوار ۹۹: ۲۵۴؛ ثواب الأعمال للصدوق: ۱۲۸

۲- بحارالأنوار ۲۵۴: ۹۹؛ المحاسن: ۶۵

۳- عدهٔ الداعی: ۳۵؛ بحارالأنوار ۲۶۱: ۹۹

۴- فضائل الأوقات، للبیهقی ۱: ۲۲۱

ص: ۱۵۱

عرفة، فأكثروا فی ذلک الیوم أن تقولوا: أللهم أعتق رقبتی من النار، وأوسع لی فی الرزق الحلال ...» (۱).

عن ابن أبی‌عمیر عن معاویـة بن عمّار عن أبی عبـدالله (ع) فی حـدیث: «إنّ النّبی (ص) قال للأنصاری قبل أن یسأله: جئت تسألنی عن الحـج وعن الطواف بـالبیت ... ویوم عرفـة؟ فقـال الرجـل: إی والـذی بعثک بالحق (فقال (ص))، فیما قال له: ... ویوم عرفـة یباهی الله عزّوجلّ به الملائکة، فلو حضـرت ذلک برمل عالج ذنوباً، فإنه تبتّ ذلک الیوم ...».(۲) عن عبدالله عن سـنان عن أبی عبدالله (ع) قال: «یوکّل الله عزّوجلّ ملکین بمأزمی عرفة، فیقولان: سـلّم سلّم».(۳) و عن علی بن مزید قال: سـمعت أباعبدالله (ع) یقول: «ما أحد ینقلب من الموقف ... إلّا برحمة ومغفرة، ویقال له: قد غفر لک، وطهرت من الدنس، فاستقبل العمل»(۴) .

و عن عبـدالله عن سـنان، قـال: سـمعت أباعبـدالله (الصـادق) (ع) یقول: «إنّ الله ینظر إلی أهل عرفـة من أول الزوال، حتّی إذا کان عند المغرب، ونفر الناس، وکّل الله ملکین بحیال المأزمین، ینادیان عند المضیق الذی رأیت: یا ربّ سلّم سلّم»(۵) .

و عن إدریس بن یوسف عن أبی عبدالله (الصادق) (ع) قال: «قلت: أیّ أهل عرفة أعظم جرماً؟ قال (ع): المنصرف من عرفة، وهو یظنّ أن الله لم‌یغفر له» (۶).

و عن أبی عبدالله (ع)، قال: سأله رجل فی المسجد الحرام من أعظم وزراً؟

۱- جامع الأحادیث، للسیوطی، مسند علی بن أبی‌طالب ۳۰: ۷۴، ح ۳۲۸۳۹

۲- وسائل الشیعة ۲۲۵: ۱۱، ح ۱۴۶۵۹ آل البیت، فإنّه تبتّ یعنی تنقطع.

۳- المصدر السابق، ح ۱۸۴۵۲

۴- بحارالأنوار ۲۶۱: ۹۹

۵- المصدر السابق ۲۶۱: ۹۹، کتاب زید النرسی: ۵۴ بتصرف.

۶- المصدر السابق ۲۶۳: ۹۹- ۲۶۵

ص: ۱۵۲

فقال (ع): «من وقف بهذین الموقفین، عرفهٔ والمزدلفهٔ، وسعی بین هذین الجبلین، ثم طاف بهذا البیت، وصلّی خلف مقام إبراهیم (ع)، ثمّ قال فی نفسه وظنّ أنّ الله لم یغفر له، فهو من أعظم وزراً»(۱) .

عرفهٔ قریبهٔ من الله

فی عرفهٔ یشعر الإنسان أنه قریب من الله، یدعو الله تعالی فیستجیب له ... فإنّ استجابهٔ الدعاء من أقوی أمارات قرب العبد إلی الله ...

(وَ إِذا سَأَلَکَ عِبادِی عَنِّی فَإِنِّی قَرِیبٌ أُجِیبُ دَعْوَهَٔ الدَّاعِ إِذا دَعانِ فَلْیَسْتَجِیبُوا لِی ولْیُؤْمِنُوا بِی لَعَلَّهُمْ یَرْشُدُونَ)(۲) .

هکذا: (قَرِیبٌ أُجِیبُ دَعْوَهَٔ الدَّاعِ إِذا دَعانِ).

إنّ الإجابـهٔ عند الدعاء أمارهٔ قرب العبد إلی الله ... وهذه الأمارهٔ الأولی، والأمارهٔ الثانیهٔ لقرب العبد إلی الله فی عرفهٔ: إنّ الله تعالی یغفر لأهل عرفهٔ ذنوبهم إذا تابوا، ویتقبل منهم التوبهٔ إذا استغفروا ... والاستغفار والتوبهٔ أمارهٔ ثانیهٔ لقرب العبد من الله.

(فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَیْهِ إِنَّ رَبِّی قَرِیبٌ مُجِیبٌ)(۳) .

وهاتان إمارتان لقرب العبد من الله تعالی فی عرفهٔ.

و فی عرفهٔ تصبّ رحمهٔ الله علی أهل عرفهٔ من غیر حساب، ونزول الرحمهٔ إمارهٔ القرب:

(إِنَّ رَحْمَهَٔ اللَّهِ قَرِیبٌ مِنَ الْمُحْسِنِینَ) (۴).

۱- وسائل الشیعهٔ ۹۶: ۱۱، ح ۱۴۳۳۳

۲- البقرهٔ: ۱۸۶

۳- هود: ۶۱

۴- الأعراف: ۵۶

ص: ۱۵۳

إذن، عرفة قريبة من الله، وأهل عرفة قريبون من الله، يدعون الله فيستجيب لهم، ويستغفرون فيغفر لهم، ويتوبون إليه فيتقبل توبتهم.

وكأنَّ الحجب التى تحجب العبد عن الله، تتساقط فى عرفة حجاباً بعد حجاب، فلا يكون بين العبد وبين ربّه حجاب فى عرفة، فيدعوه العبد فيستجيب له الله تعالى، ويتوب إليه و يتقبّل توبته.

و ما أروع السجود، وإطالة السجود على رمال عرفة، وما أروع البكاء، وإطالة البكاء بين يدى الله تعالى فى السجود فى عرفة.

فإنّ العبد لن يكون أقرب إلى الله فى حال من السجود والبكاء والنحيب بين يدى الله، فإنّ هذا يضاعف هذا القرب.

... فإذا كان السجود، والبكاء والنحيب والاستغفار بين يدى الله فى السجود، فى عرفة حيث يكون العبد قريباً من الله تعالى ... فلن يكون للعبد حال أقرب إلى الله منه فى هذا الحال.

فليغتنم لحظات هذه الساعات المحدودة، وآناتها فى الدعاء، والسجود، والبكاء، والتضرع، والخشوع، والتذلل بين يدى الله، ورفع اليدين إلى الله على هيئة السائل الذليل، فإنّ هذه الساعات والآنات واللحظات من أفضل ساعات عمر الإنسان ولحظاته، ولن يكون فى حال أقرب منه إلى الله تعالى، ولا نستثنى من ذلك حالًا إلّا الذين يتعرفون فى الحائر الحسينى فى هذا اليوم.

كيف تستقبل عرفةُ ضيوف الرحمان وكيف تودعهم؟

تستقبل عرفةُ الناس و هم يحملون ركاماً من الذنوب والآثام، فإذا أفاضوا من عرفة إلى المشعر الحرام بعد غياب الشمس، تركوا هذا الركام من الذنوب فى عرفة، وأفاضوا خفافاً إلى المشعر الحرام.

ص: ۱۵۴

و سبحان الله! ... إنّ الإنسان لیشعر بالثقل حین یقدم إلی عرفة، والخفة حین یغادر عرفة إلی المشعر الحرام، وکأنه ترک فی وادی عرفة عبئاً کان یثقل ظهره من قبل، ترکه فی عرفة، وتخفف عنه، وها هو الآن، وهو یفیض إلی المشعر الحرام، یشعر بهذه الخفّة، وهو مُجْهَدٌ أشد الجُهْد، ومُتْعَبٌ أکثر التعب، لا شک فی ذلک، ومع ذلک یشعر أنه قد تخفّف. عند الإفاضة کثیراً ... ولیس هذا العبئ من نوع الثقل المادی الذی نقیسه بمعاییرنا فی الأوزان، ولکنّه علی کلّ حال أمر محسوس لکلّ من یفیض من عرفة إلی المشعر الحرام، وإنّ بین إحساس الأجسام ومعاناة النفوس والأرواح علاقة حمیمة، کما أنّ بین النفوس والأجسام علاقة ینعکس کلّ منهما علی الآخر.

و عندما یفیض الناس من عرفة یترکون وراءهم رکامین، کأنهما التلال الکبیرة: رکام من القمامة، والفضلات، والأوساخ، ورکام من الذنوب، والمعاصی، والآثام.

یشتغل عمّال الموقف بتنظیف الرکام الأول، ویشتغل الملائکة بتنظیف عرفة من الرکام الثانی، حتّی تستقبل عرفة ضیوف الرحمان من الحجیج للعام القابل، فیمرون من خلال مصفاة عرفة.

و هکذا تتجدد هذه العملیة فی کل عام، تستقبل عرفة ضیوف الرحمان، شعثاً غبراً، قد أضرهم الجهد والتعب، وأرهقتهم المناسک، ولکنّهم یخرجون من مصفاة عرفة، کیوم ولدتهم أمّهاتهم، مطهّرین منزهین، لیبدأوا حیاتهم من جدید.

و الحمد لله علی عفوه بعد قدرته، والحمد لله علی طول أناته فی غضبه، والحمد لله الذی لا ـ یهتک حجابه، ولا یغلق بابه، ولا یردّ سائله، ولا یخیب آمله.

و الحمد لله الذی تحبّب إلیّ، وهو غنی عنّی، والحمد لله الذی یحلم عنّی حتّی کأنی لا ذنب لی، فربی أحمد شیء عندی، وأحق بحمدی.

***

ص: ۱۵۵

کیف نحافظ علی مکاسب الحج؟

اشارهٔ

ص:۱۵۶

ص: ۱۵۷

هذا سؤال هام یتساءله الحجاج بعد أداء مناسک الحج.

وفیما یلی الإجابة علی هذا السؤال، إن شاءالله.

ضیافتان من الله تعالی لعباده

لله تعالی ضیافتان لعباده فی دورة السنة

الضیافة الأولی فی شهر رمضان

والضیافة الثانیة فی شهر ذی الحجة

الضیافة الأولی بالصیام

و الضیافة الثانیة بالحج

و ناهیک بهما ضیافتان کریمتان من رب العالمین لعباده

و قد ورد التصریح بهاتین الضیافتین فی المصادر الإسلامیة بصیغ مختلفة.

أمّا عن ضیافة شهر رمضان، فقد روی الصدوق بسند معتبر عن الرضا (ع) عن آبائه عن أمیرالمؤمنین (ع) أنّ رسول الله (ص) خطبنا ذات یوم (و فی بعض الروایات فی آخر جمعة من شهر شعبان)، فقال: «أیها الناس قد أقبل إلیکم شهر الله بالبرکة والرحمة والمغفرة، شهر هو عند الله أفضل الشهور، وأیامه أفضل الأیام، ولیالیه أفضل اللیالی، وساعاته أفضل الساعات، هو شهر دعیتم فیه إلی ضیافة الله، وجعلتم فیه من أهل کرامة الله».

ص: ۱۵۸

و أمّا عن ضیافهٔ الحج، فقد وردت طائفتان من الأحادیث تصرّح أولاهما بأنّ الحجاج (وفد) الله تعالی، وقد وفدوا إلی الله؛ وتصرح ثانیتهما أنّ الحجاج ضیوف الرحمان.

أمّا عن الطائفهٔ الأولی، فقد روی عن رسول الله (ص): «وفد الله ثلاثهٌ: الغازی، والمعتمر، والحاج».(۱) و عن أمیرالمؤمنین (ع): «الحاج والمعتمر وفد الله، وحق علی الله أن یکرم وفده، ویحبوه بالمغفره ...». (۲) و عن الإمام الحسن (ع): «ثلاثهٔ فی جوار الله تعالی ... رجل خرج حاجاً أو معتمراً، لایخرج الّا لله تعالی، فهو من وفد الله تعالی حتی یرجع إلی أهله». (۳) و عن الإمام زین العابدین علی بن الحسین (ع) فی رسالهٔ الحقوق: «و حقّ الحج أن تعلم أنّه وفادهٔ إلی ربّک، وفرار إلیه من ذنوبک، وفیه قبول توبتک، وقضاء الفرض الذی أوجبه الله علیک». (۴) و عن الصادق (ع): «الحاج والمعتمر وفد الله، إن سألوه أعطاهم، وإن دعوه أجابهم وإن شفعوا شفعهم، وإن سکتوا ابتدأهم ...». (۵) و أمّا عن الطائفهٔ الثانیهٔ (ضیافهٔ الله)، فقد روی: «ممّا أوحی الله عزّوجلّ أنا الله ذو بکهٔ، أهله جیرتی، وزوارها وفدی وأضیافی، أعمره بأهل السماء وأهل الأرض، یأتونه أفواجاً شعثاً غبراً، یعجون بالتکبیر والتلبیهٔ، فمن اعتمره لایرید غیره فقد زارنی، وهو وفد لی، ونزل بی، وحق لی أن أتحفه بکراماتی. (۶)

۱- ۱ مستدرک الوسائل ۴۱: ۸ ح ۲۵؛ سنن النسائی ۱۱۳: ۵

۲- تحف العقول: ۱۲۳؛ الحج والعمرهٔ فی الکتاب والسنهٔ: ۱۵۹- ۱۶۰

۳- المصدر السابق.

۴- ۴ المصدر السابق؛ الفقیه ۶۲۰: ۲

۵- المصدر السابق؛ الکافی ۲۵۵: ۴ ح ۱۴

۶- المصدر السابق؛ الخرائج والجرائح ۸۰: ۱

ص: ۱۵۹

و عن خالـد بن ربعی: أنّ أمیرالمؤمنین (ع) دخـل مکـة فی بعض حوائجه فوجـد أعرابیاً متعلّقـاً بأسـتار الکعبـة، وهو یقول: یا صاحب البیت، البیت بیتک، والضیف ضیفک، ولکل ضیف من ضیفه قری، فاجعل قرای منک اللیلة المغفرة؛ فقال أمیرالمؤمنین (ع) لأصحابه: «أما تسـمعون کلام الأعرابی؟ قالوا: نعم. قال: الله أکرم من أن یرد ضیفه». (۱) و عن الإمام الصادق (ع): «إنّ ضـیف الله عزّ وجلّ رجل حج واعتمر، فهو ضیف الله حتی یرجع إلی منزله».(۲) و فی الدعاء بعرفة: (أنا ضیفک فاجعل قرای الجنة).

تخصیص شهر رمضان وذی‌الحجة بالضیافة الإلهیة

و عباد الله علی مائـدة رحمـة الله فی کلّ وقت من فصول السـنة وشـهورها وأیامها، ولایَشُـذّ أحـد من الحضور علی مائدة رحمة الله من صالحین وفاسقین ومسلمین وملحدین.

(کُلًّا نُمِـدُّ هؤُلاـءِ وَ هَؤُلاءِ مِنْ عَطاءِ رَبِّکَ وَ ما کانَ عَطاءُ رَبِّکَ مَحْظُوراً). (۳) ولکنّ للضـیافة الإلهیة فی هذین الشهرین، شهر رمضان، وشهر ذی الحجة، لحجاج بیت الله خصوصیة و میزة لاتوجد فی غیرهما من حیث العطاء والتکریم الإلهی.

إنّ الضـیافة فی هذین الشـهرین لیست من قبیل ضـیافة الأجسام، وإنما هو من ضـیافة القلوب، والمائدة الإلهیة المعدّة لضیوف الرحمان فی هـذین الشـهرین مائـدة رحمـة وشـفاء، وغـذاء للقلوب ... وأعظم الموائـد الإلهیـة فی حیاة الإنسان بعد نعمة الوجود موائد العقول، وموائد القلوب.

۱- المصدر السابق؛ أمالی الصدوق: ۵۳۳ ح ۱۱

۲- المصدر السابق؛ الخصال: ۱۲۷

۳- الإسراء: ۳۰

ص: ۱۶۰

و مصـائب الإنسان فی نضوب القلوب والأرواح والنفوس أعظم من معاناته فی فقر غـذاء الأجسام، ونتيجـة سوء التوزيع لموارد الأرض على عباد الله.

و كلّ منها معاناة وعذاب للإنسان، مهما كان الفقر والعجز، سواء كان فی غذاء الأجسام، أم العقول، أم القلوب.

و لكن مصـيبة الإنسـان العظمی هـو فی نضوب الروافـد الـتی تروی القلوب وتحييهـا وتنعشـها أعظم من مصـيبته فی العجز الاقتصـادی والعلمی، وإن كان كلّ من ذلک مصيبة فی حياة الإنسان.

و هـذه المائدة التی أعدّها الرحمان تعالی لعباده فی شـهر رمضان وذی‌الحجة من نوع موائد القلوب، تحفل بما يحُی القلوب، ويفعّلها، وينشّـطها ويهبها البصـيرة، والنور، والهدايـة، واليقين بالله، والاقبال علی الله بالـذكر والـدعاء، والشوق إلی الله، والأنس بذكر الله، وحبّ الله، وحبّ أوليـائه، ومقت أعـدائه، وأعـداء أوليـائه، وترقيق القلوب للإنابـة، والاخبـات والخشوع لله، ومخافـة الله، ورجـاء الله، والتوبـة، والزهـد عن الـدنيا وحطامها، وقصـر الأمل فيها، والاقبال علی الصـلاة، والانفاق، وطول السـجود، والبكاء بين يـدی الله، وما لا أسـتطيع إحصاءه من مواهب الله لعباده فی هذه الضيافة الربانية التی يستضيف الله فيها عباده مرتين فی السنّة.

و من عجب أنّ الجوع والعطش والكفّ عن الأهواء والشـهوات، والكـدح والبـذل والجهد والتعبّد فی هاتين الضـيافتين هو السبيل إلی استنزال هذه المواهب العظيمة المباركة من خزائن رحمة الله.

(وَ لِلَّهِ خَزائِنُ السَّماواتِ وَ الأَرْضِ). (۱) (وَ إِنْ مِنْ شَیْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَ ما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ). (۲)

۱- التغابن: ۷

۲- الحجر: ۲۱

ص: ۱۶۱

ولكلّ امرىء من المسلمين أن يأخذ من هذه الرحمة الهابطة ما يسعه وعاء نفسه و قلبه، فإنّ الرحمة الهابطة فى شهر رمضان و شهر ذى الحجة فى الحج ليس لها حدود ... و كلّ منا يأخذ من هذه الرحمة ما يسعه وعاؤه.

المقارنة بين الضيافتين

و بين هاتين الضيافتين شبه كبير وفروق تظهر بالمقارنة.

فهما معاً دورتان تمكنان الإنسان من ضبط النفس والأهواء والشهوات، وربيعان للذكر والقرآن والدعاء، ومنزلان من منازل رحمة الله فى وعاء الزمان، ولكلّ منهما قمة.

قمّة شهر رمضان، ليلة القدر فى وعاء الزمان، وهو وإن كان مجهولًا، غير أنّ إحرازها ضمن محتملات ليالى القدر ليس بالأمر الصعب.

و قمّة الحج يوم عرفة بعد الزوال، وفى وادى عرفة فى وعاء الزمان والمكان.

و من لم‌يدرك عرفة فى الحج المندوب، وتعرّف فى الحائر الحسينى يدرك ثواب عرفة إن شاء الله، كما ورد ذلك فى نصوص كثيرة.

و من الفروق البارزة بين هاتين الضيافتين، أنّ ضيافة الحج الواجبة مرة واحدة فى العمر، وضيافة الصيام فى شهر رمضان فى كل سنة شهر كامل، ولعلّ السرّ فى ذلك- والله أعلم-: أنّ التعبئة النفسية التى يكتسبها الصائم فى صيام شهر رمضان تكفيه لسنة واحدة، وأما التعبئة النفسية التى يكتسبها الإنسان فى الحج، فإنّها تكفيه لرحلة العمر كلّه، إذا حافظ عليها صاحبها، وحرص عليها.

و فيما يلى أذكر نصين نجدهما فى المصادر الروائية المعتبرة، فى قيمة كلّ من هاتين الضيافتين، من دون تعليق.

ص: ۱۶۲

قيمة الضيافة الرمضانية

قـد ذكرنا قبل قليل شـطراً من روايـة الصـدوق (رحمة الله) عن الإمام الرضا (ع) عن آبائه عن أميرالمؤمنين (ع) عن رسول‌الله (ص) فی فضل شهر رمضان وها نحن نذكر شطراً آخر من الرواية؛ والرواية طويلة نذكر منها قدر الحاجة.

«شـهر دعيتم فيه إلى ضـيافة الله، وجعلتم فيه من أهل كرامة الله، أنفاسكم فيه تسبيح، ونومكم فيه عبادة، وعملكم فيه مقبول، ودعاؤكم فيه مسـتجاب، فاسـئلوا الله ربّكم بنيّات صادقة، وقلوب طاهرة، أن يوفقكم لصيامه، وتلاوة كتابه، فإنّ الشقی من حرم من غفران الله فی هذه الشهر العظيم».

قيمة الضيافة الرحمانية فی الحج

قد ورد فی فضل الحج أحاديث كثيرة من رسول‌الله (ص) لايسعنا أن نذكرها جميعاً أو نذكر شطراً مناسباً منها، وإنّما نقتصر على رواية واحدة عن رسول‌الله (ص) أوردها ثقة الإسلام الكلينی فی الكافی، والشيخ الصدوق فی ثواب الأعمال:

عن الصادق (ع): «لما أفاض رسول‌الله (ص) تلقاه أعرابی فی الأبطـح، فقال: يا رسول الله! إنّی خرجت أريـد الحج- فعاقنی عائق- وأنا رجل كثير المال، فمرنی أصنع فی مالی ما أبلغ ما بلغ الحاج.

فـالتفت رسول‌الله (ص) إلى أبی‌قبيس، فقـال: لو أنّ أبـاقبيس لـک زنته ذهبـة حمراء، أنفقته فی سبيـل الله ما بلغت ما بلغ الحاج». (۱)و الحج الذی فات هذا الرجل حج مندوب بالتأكيد، لأنّ الفريضة الواجبة لايمكن تعويضها بالانفاق ... ولا شک أنّ الحج الواجب أعظم منزلة وقيمة، ومع

۱- ۱ الكافی ۲۵۸: ۴؛ ثواب الأعمال: ۴۸

ص: ۱۶۳

ذلك يقول له رسول الله (ص): «لو أنفقت أباقيس ذهباً ...» وناهيك بذلك فى قيمة الحج وفضله.

المكاسب الخمسة فى الحج

إنّ أعظم ما يكسبه الحاج فى الحج (التقوى) و (الكدح) و (البذل) و (الذكر) و (الحضور فى منازل رحمة الله الزمانية والمكانية) وهى الأجنحة الخمسة التى يعرج بها العبد من الأنا والهوى إلى الله، وهو المعراج الأعظم فى حياة الإنسان فى الدنيا.

ففى إحرام العمرة والحج يكفّ المعتمر والحاج نفسه من طائفة من محرمات الإحرام طيلة فترة الإحرام، فى إحرام العمرة والحج ... ومن أهمّها محرمات الغريزة الجنسية (التى تعود إلى عامل الهوى) ومحرمات الزى والجدال (التى تعود إلى عامل الأنا)، والمحرمات الأخرى التى تمكّن الإنسان من التقشف، ومكافحة عامل حبّ الراحة والعافية.

و هذه هى القيمة الأولى للحج، وهى (التقوى) و (كفّ النفس).

و القيمة الثانية للحج (الكدح)، ولا شك أنّ (الكدح) إذا كان لله وفى سبيل الله، يحمل قيمة كبيرة.

و فى العمرة والحج كدح شديد وكثير، من الطواف والسعى والوقوفين والإفاضة والرمى وغيرها.

و لا ـ شك أنّ التشريع الإسلامى أخذ حالة (الكدح) بنظر الاعتبار فى العمرة وبصورة خاصة فى الحج، ولا ـ نعرف فى الشريعات الإسلامية عبادة تتطلب كدحاً أكثر من الحج، إلّا (الجهاد).

و هذه هى القيمة الثانية للحج.

و القيمة الثالثة للحج (البذل)، ففى الحج بذل عظيم للأموال، كما فيه كدح كثير للأجسام.

ص: ۱۶۴

فإنّ نفقات الحج نفقات عالیـة تتطلب الاسـتطاعة المالیـة ... ولا نشک أنّ البذل والانفاق قد أخذ أیضاً بنظر الاعتبار فی تشـریع الحج، کما لوحظ عنصر (الکدح والارهاق).

و القیمـة الرابعـة للحـج: (الـذکر)، فإنّ الحج یتضـمّن ذکراً کثیراً لله، یرافق أعمال الحج، من التلبیة إلی الإفاضة إلی البیت الحرام، ومنه إلی عرفة والمزدلفة.

(وَ اذْکُرُوا اللّهَ فِی أَیّام مَعْدُوداتٍ) (۱).

(فَإِذا قَضَیْتُمْ مَناسِکَکُمْ فَاذْکُرُوا اللّهَ کَذِکْرِکُمْ آباءَکُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِکْراً)(۲) .

کما أنّ عامة أعمال الحج، والالتزام بمحرمات الإحرام من الذکر العام، والذکر العام هو المقسم العام للذکر، ومنه یتفرع الذکر الخاص وهو الذکر باللسان.

روی الصدوق فی معانی الأخبار عن حسـین البزاز، قال: قال أبوعبدالله (ع): «ألا أحدثک بأشدّ ما فرض الله علی خلقه؟ قلت: بلی. قال: إنصـاف النـاس من نفسک، ومواساتک لأخیک، وذکر الله فی کلّ موطن؛ أما إنّی لا أقول: سـبحان الله والحمـد لله ولا إله إلا الله والله أکبر، وإن کان هـذا من ذاک، ولکن ذکر الله فی کل موطن إذا هجمت علی طاعة أو معصـیة».(۳) و هذا هو قوله تعالی: (الَّذِینَ اتَّقَوْا إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّیْطانِ تَذَکَّرُوا فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ).(۴) و هذا هو الذکر العام، وهو أن یتذکر العبد ربه عندما یقدم علی طاعة، أو یقدم علی معصیة، فیتذکر الله تعالی فیکفّ عن ذلک.

۱- البقرة: ۲۰۳

۲- البقرة: ۲۰۰

۳- معانی الأخبار: ۱۹۲، وسائل الشیعة ۲۵۵: ۱۵

۴- الأعراف: ۲۰۱

ص: ۱۶۵

و فى المحاسن عن الصادق (ع) فى الحديث القدسى: «قال الله تعالى: يابن آدم أذكرنى فى نفسك، أذكرك فى نفسى، ابن آدم أذكرنى فى خلاء، أذكرك فى خلاء، أذكرنى فى ملاء أذكرك فى ملاء خير من ملاءك». و أعمال الحج ومحرماته يتضمّن الذكر العام بهذا المعنى ... وما من عمل يؤديه الحاج، أو محرّم يكفّ عنه الحاج، إلّا وهو يتضمّن ذكر الله.

و هذا الذكر فى مقابل الغفلة عن ذكر الله، وغياب النفس عنه، وكلّما تتطلب الطاعة كدحاً أكثر، وكلّما يتطلب الكفّ عن المحرمات جهداً نفسياً أكثر، يتضمن الطاعة والكفّ ذكراً أكثر وأعظم لله تعالى، وهذا هو القيمة الرابعة للحج.

منازل الرحمة الزمانية والمكانية فى الحج

و فى المحاسن عن الصادق (ع) فى الحديث القدسى: «قال الله تعالى: يابن آدم أذكرنى فى نفسك، أذكرك فى نفسى، ابن آدم أذكرنى فى خلاء، أذكرك فى خلاء، أذكرنى فى ملاء أذكرك فى ملاء خير من ملاءك». (۱) و أعمال الحج ومحرماته يتضمّن الذكر العام بهذا المعنى ... وما من عمل يؤديه الحاج، أو محرّم يكفّ عنه الحاج، إلّا وهو يتضمّن ذكر الله.

و هذا الذكر فى مقابل الغفلة عن ذكر الله، وغياب النفس عنه، وكلّما تتطلب الطاعة كدحاً أكثر، وكلّما يتطلب الكفّ عن المحرمات جهداً نفسياً أكثر، يتضمن الطاعة والكفّ ذكراً أكثر وأعظم لله تعالى، وهذا هو القيمة الرابعة للحج.

منازل الرحمة الزمانية والمكانية فى الحج

و القيمة الخامسة للحج، حضور العبد فى منازل رحمة الله الزمانية والمكانية فى الحج، وهو أعظم هذه القيم جميعاً ... وهى كثيرة.

منها: مواقيت الإحرام والتلبية، ومنها: البيت الحرام، والطواف، والسعى، والوقوفين، ومنى، والرمى، والنحر ... وأعظمها الوقوف بوادى عرفة، بعد الزوال من يوم التاسع من ذى الحجة، فى أعظم جمهور لضيوف الرحمان على وجه الأرض كلها، فى دورة السنة.

و هذا إجمال لابدّ له من تفصيل وتوضيح، فأقول: إنّ المنازل الزمانية والمكانية لشعائر الحج، من منازل الرحمة ... وهذان منزلان للرحمة.

المنازل الزمانية مثل يوم عرفة، وليالى التشريق، وعيد الأضحى.

و المنازل المكانية مثل المواقيت، والبيت الحرام، والحطيم، والمسعى، وصفا ومروة، وعرفة، والمزدلفة، ومنى.

۱- المحاسن ۳۹: ۱

ص: ۱۶۶

و يضاف إلى هـذين المنزلين، المناسك التى يؤدّيها الحاج، فهى فى حـدّ ذاتها من منازل رحمـة الله، مثل التلبيـة، والإحرام، والطواف، والسعى، والوقوفين، والبيوتة بمنى، والرمى، والنحر.

و هذا هو المنزل الثالث من منازل الرحمة فى الحج.

و المنزل الرابع، الاجتماع العظيم للمؤمنين فى الزمان الواحد، والمكان الواحد.

و الذين يعرفون رقائق أحكام هذا الدين، يعلمون جيّداً أنّ الله تعالى يحبّ إجتماع المؤمنين فى عبادته وطاعته.

وتجمّع المؤمنين فى الذكر والدعاء والعبادة وتلاوة القرآن، أقرب إلى الله وإلى رضوانه ورحمته، من الأداء الفردى للعبادات.

و قـد يكون المجمع الذى يجمع المسـلمين فى العبادة الزمان، كما فى صـيام شـهر رمضان، فإنّ شـهر رمضان يجمع مآت الملايين من المسلمين فى العبادة والطاعة من أقاليم شتّى من العالم.

و قـد يكون المجمع الـذى يجمع المسـلمين فى العبـادة والطاعـة المكـان، كمـا فى العمرة، فإنّ الحرم الشـريف، والبيت الحرام، يجمع عشرات الملايين من المسلمين للعمرة، ولكن فى أوقات مختلفة، وأشهر عديدة من السنّة.

و قـد يجمع المسـلمين، مكان واحـد، وزمان واحد، لأداء الشـعيرة العبادية ... ولانعرف لذلك شاهداً من العبادات فى الإسـلام فى غير (الحج).

فإنّ الحـج يجمع فى كلّ عام عامّـة المسـلمين المسـتطيعين للحـج فى مكان واحد، وزمان واحد، لأداء فريضة الحج ... وهذا من أعظم منازل الرحمة فى حياة الإنسان، ولا يشبهه منزل آخر من منازل الرحمة فى حياة الناس، إلّا القتال فى سبيل إليه.

و بذلك تجتمع منازل عديدة للرحمة فى الحج من حيث المواقع المكانية،

ص: ۱۶۷

والزمانية، والمناسك، والشعائر، و الاجتماع المليونى فى مكان واحد وزمان واحد، ... وقمّة ذلك فى وادى عرفة، يوم عرفة.

فإنّ الرحمة الإلهية تصبّ على وادى عرفة، يوم عرفة من غيرحساب، وتنزل على ضيوف الرحمان فى سائر شعائر الحج.

و ليس فى مقدور الإنسان أن يحصى البركات الربانية التى تنزل على ضيوف الرحمان من جانب الرحمان، فى هذه المنازل التى أعدّها الله تعالى لضيوفه.

فى هذه المنازل تنزل على الحجاج مواهب عظيمه من رحمة الله، تمنحهم البصيرة، والهدى، والنور، والاقبال على الله، والجدّ، والاهتمام، والعزم، واليقين، وحبّ الله، وحبّ أوليائه، وبغض أعداء الله، وأعداء أوليائه، والزهد فى الدنيا وحطامها، والاقبال على الآخرة ونعيمها، وما لا أحصيه من مواهب الله تعالى فى منازل رحمته فى الحج.

باقة من الحديث

و إليكم باقة من الحديث الشريف فى منازل الرحمة فى الحج، أرجو أن ينفعنا الله بها.

منزلة الحاج عند الله فى الجنة

قد ورد فى منزلة الحاج عند الله فى الجنة، إذا أحسن الحج، وأداه لوجه الله، خالصاً فى النّية، وحج من نفقة طيبة محلّلة: إنّ الله تعالى ينزله فى الجنة بجوار النبيين، والشهداء، والصديقين، وحسن أولئك رفيقاً، وناهيك بهذه المنزلة الرفيعة منزلة فى الجنة.

عن أبى عبدالله الصادق (ع) قال: «لما حج موسى (ع)، نزل عليه جبرئيل (ع) فقال له موسى (ع): يا جبرئيل! مالمن حج هذا البيت بنيّة صادقة ونفقة طيّبة؟

ص: ۱۶۸

فأوحی الله تعالی إلیه قل له: أجعله فی الرفیق الأعلی مع النبیین، والصدیقین، والشهداء، والصالحین، وحسن أولئک رفیقاً». (۱)

فی ضمان الله

و الحاج فی ضمان الله تعالی، منذ أن یخرج من بیته، إلی أن یعود إلی بیته، یضمن له سعیه ونیّته، أتمّ الحج أو عرض له عارض منعه من إتمام الحج، أو مات فهو مضمون السعی والجهد والعزم.

عن رسول الله (ص): «الحاج فی ضمان الله عزّوجلّ مقبلًا ومدبراً، فإن أصابه فی سفره تعب، أو نصب، غفر له بذلک سیئاته ..».(۲) و عن الإمام الصادق (ع): «الحاج والمعتمر فی ضمان الله».(۳) و عن الإمام الصادق (ع): «ضمان الحاج المؤمن علی الله، إن مات فی سفره أدخله الجنة، وإن ردّه إلی أهله لم‌یکتب علیه ذنب». (۴) و عن رسول‌الله (ص): «من مات محرماً حشر ملبّیاً». (۵) و عن ابن عباس: إنّ رجلًا أوقصته راحلته، وهو محرم فمات، فقال رسول‌الله (ص): «إغسلوه بماء وسدر، وکفنوه فی ثوبیه، ولاتخمروا رأسه، ولا وجهه، فإنه یبعث یوم القیامة ملبیاً».(۶) و عن رسول الله (ص): «من مات فی هذا الوجه (طریق الحج) من حاجّ أو معتمر، لم یعرض، ولم یحاسب، وقیل له ادخل الجنة». (۷)

۱- من لایحضره الفقیه ۲: ۲۳۶

۲- کنز العمال ۱۴: ۵، ح ۱۱۸۴۰؛ الحج والعمرة فی الکتاب والسنة: ۱۶۱

۳- المصدر السابق؛ الکافی ۲۵۶: ۲

۴- المصدر السابق؛ بحار الأنوار ۴۹: ۹۶

۵- المصدر السابق؛ کنز العمال ۸: ۵

۶- المصدر السابق؛ مستدرک الوسائل ۱۷۷: ۲

۷- المصدر السابق؛ الغدیر ۳۳۲: ۵؛ کنز العمال ۱۵: ۵، ح ۱۱۸۴۸

ص: ۱۶۹

ثواب الحج الجنة

قد استفاضت الروایات وفیها الصحاح والحسان، أنّ ثواب الحج الجنة، و لن‌یکون ثوابه دون الجنّة.

عن رسول‌الله (ص): «لیس للحجة المبرورة ثواب إلّا الجنة». (۱) و عن رسول‌الله (ص): «العمرة إلی العمرة کفارة ما بینهما، والحجة المتقبلة ثوابها الجنة». (۲) و عن رسول‌الله (ص): «ما سبّح الحاج من تسبیحة ولاهلّل من تهلیلة ولا کبر من تکبیرة إلّا بشر بها (الجنة) تبشیرة». (۳)

أفضل الأعمال بعد الجهاد

و لیس بعد توحید الله والجهاد، عمل أفضل من الحج.

سئل رسول الله (ص): أیّ الأعمال أفضل؟ قال: «الإیمان بالله ورسوله. قیل: ثم ماذا؟ قال: جهاد فی سبیل الله. قیل: ثم ماذا؟ قال: حج مبرور».(۴) و عن الإمام الصادق (ع): «ما سبیل من سبل الله أفضل من الحج، إلا رجل یخرج بسیفه فیجاهد فی سبیل الله حتی یستشهد». (۵)

الدعاء المستجاب للحجاج

و قد أکرم الله تعالی الحجاج بالدعاء المستجاب، فلیسأل ما یشاء، ولایُقَتِّر فی السؤال، فإنّ المسؤول کریم، ومن أقبح اللؤم إذا کان المسؤول کریماً أن یکون السائل بخیلًا شحیحاً، مُقَتِّراً، فی السؤال.

۱- المصدر السابق؛ کنزالعمال ۱۱۳: ۵، ح ۱۲۲۸۶

۲- المصدر السابق؛ مستدرک الوسائل ۳۷: ۸

۳- المصدر السابق؛ الدر المنثور ۲۱۰: ۱

۴- المصدر السابق؛ الدر المنثور ۲۴۴: ۱

۵- المصدر السابق؛ مستدرک الوسائل ۱۰: ۸

ص: ۱۷۰

عن رسول‌الله (ص): «الحجاج والعُمّار وفد الله، دعاهم فأجابوه، وسألوه فأعطاهم».(۱)

نور الحج

و يترك الحج بصيرة فی القلوب، ونوراً ظاهراً علی الوجوه، هو نور الإيمان، والطاعة، والتقوی، والذكر، ولا يزال هذا النور علی وجوه الحجاج، ما لم يذنبوا ... فإذا أذنبوا ذهب الله بنورهم.

عن الإمام الصادق (ع): «الحاج لايزال عليه نور الحج ما لم يلم بذنب». (۲)

خير الدنيا والآخرة

و للحج بركات عظيمة للحاج فی دنياه وآخرته.

عن رسول‌الله (ص): «من أراد الدنيا والآخرة، فليؤمّ هذا البيت، فما أتاه عبد يسأل الله دنيا إلّا أعطاه منها، ولا يسأله آخرة إلّا ادّخر له منها». (۳)

غفران الذنوب

و لعلّ من أعظم بركات الحج ما تواترت به الروايات، وفيها الروايات الصحيحة: أنّ الله يغفر للحجاج ذنوبهم جميعاً، فإذا عادوا إلی بيوتهم وبلادهم، عادوا كهيئتهم يوم ولدتهم أمهاتهم، قد تحرّروا وتخلّصوا من ذنوبهم جميعاً.

روی المحدث الحرّ العاملی فی موسوعته القيّمة- وسائل الشيعة- عن محمد بن

۱- الحج والعمرة فی الكتاب والسنة: ۱۶۲؛ الدر المنثور ۱۰: ۱

۲- الكافی ۲۵۵: ۴

۳- بحارالأنوار ۵۰: ۹۶

ص: ۱۷۱

علی بن الحسین، قال: روی أنّ «من أعظم الناس ذنباً، من وقف بعرفات، ثمّ ظنّ إنّ الله لم یغفر له».

و روی سفیان بن عیینة عن الإمام الصادق (ع) قال: «سأل رجل أبی بعد منصرفه من الموقف، فقال: أتری یجیب الله هذا الخلق کلّه؟ فقال أبی: ما وقف بهذا الموقف أحد إلّا غفر الله له، مؤمناً کان أو کافراً، إلّا أنّهم فی مغفرتهم علی ثلاث منازل: مؤمن قد غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر وأعتقه من النّار ... ومنهم من غفر الله ما تقدّم من ذنبه، وقیل له: أحسن فیما بقی من عمرک ... وکافر وقف بهذا الموقف لزینة الحیاة الدنیا غفر الله له ما تقدّم من ذنبه إن تاب من الشرک فیما بقی من عمره ...».(۱) و سأل الإمام الصادق (ع) رجل فی مسجد الحرام: مَنْ أعظم الناس وزراً؟ فقال: «من یقف بهذین الموقفین: عرفة والمزدلفة، وسعی بین هذین الجبلین، ثمّ طاف بهذا البیت، وصلّی خلف مقام إبراهیم، ثمّ قال فی نفسه، وظنّ أنّ الله لم یغفر له، فهو من أعظم النّاس وزراً». (۲) عن أبی حمزة الثمالی: قال رجل لعلی بن الحسین (ع): ترکت الجهاد وخشونته، ولزمت الحج ولینته؟ قال: وکان متکئاً فجلس، وقال: «ویحک أمّا بلغک ما قال رسول الله (ص) فی حجة الوداع؟ إنّه لما وقف بعرفة، وهمّت الشمس أن تغیب، فقال رسول‌الله (ص): یا بلال! قل للنّاس فلینصتوا، فلمّا انصتوا، قال: إنّ ربّکم تَطَوَّلَ علیکم فی هذا الیوم، وغفر لمحسنکم، وتشفع محسنکم فی مسیئکم، فأفیضوا مغفوراً لکم». (۳)

۱- وسائل الشیعة ۲۱: ۱۰- ۲۲، الباب ۳۸ ح ۸

۲- المصدر السابق، ح ۵

۳- الکافی ۲۵۸: ۴

ص: ۱۷۲

يرجع الحاج كهيئة يوم ولدته أمّه

و قد يكون من أعظم بركات الحج أيضاً، ما تواترت به الروايات، وفيها الروايات الصحيحة: أنّ الله يغفر للحجاج ذنوبهم، حتى إذا عادوا إلى بلادهم، وبيوتهم، رجعوا كهيئتهم يوم ولدتهم أمهاتهم.

عن رسول الله (ص): «حُجّوا، فإنّ الحج يغسل الذنوب، كما يغسل الماء، الدَرَن». (۱)عن رسول الله (ص): «من حج لله فلم يرفث، ولم يفسق، رجع كيوم ولدته أمّه». (۲) و عنه (ص): «من خرج حاجاً يريد وجه الله، فقد غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر، وشُفّع فيمن دعا له». (۳) و عنه (ص): «معاشر الناس، ما وقف بالموقف مؤمن إلّا غفر الله له ما سلف من ذنبه إلى وقته ذلك، فإذا انقضت حجته استؤنف عمله». (۴)و عن الإمام الباقر (ع): «من أمّ هذا البيت حاجاً أو معتمراً مبرأ من الكبر، رجع من ذنوبه كهيئته يوم ولدته أمّه». (۵) و عن الإمام الصادق (ع): «من حج يريد به الله، لايريد به رياء ولاسمعة، غفر الله له البتة».(۶) و عن الإمام الصادق (ع): «إنّ العبد ليخرج من بيته، فيعطى قسماً، حتّى إذا أتى المسجد الحرام طاف طواف الفريضة، ثمّ عدل إلى مقام إبراهيم فصلّى

۱- الحج والعمرة فی الکتاب والسنة: ۱۶۲؛ کنزالعمال ۱۰: ۵ ح ۱۱۸۲۱

۲- المصدر السابق: ۱۶۳؛ کنز العمال ۷: ۵ ح ۱۱۸۰۸

۳- المصدر السابق؛ حلیة الأولياء ۲۳۵: ۷

۴- المصدر السابق؛ عن روضة الواعظين

۵- المصدر السابق: ۱۶۴؛ الکافی ۲۵۲: ۴

۶- المصدر السابق: ۱۶۴؛ وسائل الشيعة ۷۶: ۸

ص: ۱۷۳

رکعتین، فیأتیه ملک فیقوم عن یساره، فإذا إنصرف ضرب بیده علی کتفیه فیقول: یا هذا، أما ما مضی فقد غفر لک، وأما ما یستقبل فجد».(۱)

الرواتب الثلاثة فی العبادات

و یکفی أن نقول فی حجم هذه المواهب والبرکات، إنّ المخزون الذی یختزنه العبد فی رحلة الحج یکفیه لرحلة العمر کلّها، إذا حرص وحافظ علیها.

ولابدّ من توضیح لهذه الکلمة، فنقول: إنّ العبادات علی نوعین:

النوع الأول: عبادات مرتبات علی عمود الزمان بفواصل زمانیة متفاوتة، کالصلاة وصیام شهر رمضان.

النوع الثانی: عبادات مجعولة حسب الحاجة والضرورة، کالأمر بالمعروف والنهی عن المنکر، والجهاد، وإغاثة المؤمنین ونجدتهم.

والنوع الثانی من العبادات، تفرضها الحاجة الموضوعیة فی واقع حیاة النّاس.

أمّا النوع الأول من العبادات، فهی التی یحتاجها الإنسان فی حرکته التکاملیة إلی الله ... ولذلک فإنّ الله تعالی یفرضها علی النّاس فی کلّ الظروف، مثل الصلاة، والصوم، والحج، وهی التی نقصدها من (الرواتب)، وهی العبادات التی یحتاجها الإنسان لتکامله النفسی، والروحی، والعقلی، بغضّ النظر عن أیة ظروف موضوعیة وفی کلّ الظروف، وهی علی أقسام حسب حاجة الإنسان إلیها.

فمن الرواتب ما یحتاجه الإنسان فی کلّ یوم عدّة مرات، وهی الصلاة، فهی حاجة مستمرّة متصلة یحتاجها الإنسان فی نموّه وتکامله وحرکته إلی الله ... وإذا انقطع الإنسان عنها توقف نموّه وتکامله.

وتوقّف الإنسان عن حرکة التکامل، بمعنی التراجع، ولا یسعنا الآن شرح

۱- المصدر السابق؛ الکافی ۲۵۷: ۴

ص: ۱۷۴

هذه النقطة.

و من الرواتب ما یحتاجه الإنسان کلّ سنة مرّة، وهو صیام شهر رمضان فی کلّ عام، فإنّ هذه الفریضة الرتیبة تتکرر علی الإنسان فی کلّ عام مرّة واحدة، شهراً کاملًا.

و من الرواتب ما یحتاجه الإنسان فی العمر مرة واحدة- بالضرورة- وماعدا ذلک یخرج عن دائرة الضرورة، ویدخل فی دائرة الندب، وهو الحج؛ فإنّ الحج یجب علی المرء مرة واحدة فی العمر.

و معنی ذلک أنّ الخزین النفسی الذی یکتسبه الحاج فی رحلة الحج یکفی لرحلة العمر کله، إذا حافظ علیه الحاج، ولم یهدره، وأنّ التعبئة الروحیة والنفسیة والسلوکیة الّتی یکتسبها الحاج فی هذه الرحلة، تعبئة عالیة یکفی لرحلة العمر کلّها، إذا حافظ علیها الحاج، وحرص علی تنمیته.

کیف یتناقص خزین الحج فی ساحة الحیاة؟

إذن البحث عن الوسائل التی تمکّن الحاج من المحافظة علی المکاسب التی کسبها فی الحج، من المسائل الضروریة التی لابدّ أن یعرفها الحاج بعد العودة من الحج.

ومن الضروری أن نتساءل، ونعرف کیف یحافظ الحاج علی هذه الذخیرة الغالیة التی اکتسبها فی الحج، عند ما یعود إلی بلده، وداره، وأسرته، ویعود إلی السوق، وینزل إلی الشارع، ویختلط بالنّاس، ویعاشرهم، ویدخل فیما یدخل فیه النّاس من شؤون دنیاهم.

فما أکثر الذین أهدروا هذه الثروة العظیمة التی اکتسبوها فی الحج، فی أقل من شهر، بعد أن عادوا إلی بلدهم، وأهلهم، وعشائرهم، وتجارتهم، وأعمالهم التی یمارسونها، لإدارة معیشتهم فی الدنیا، وعلاقاتهم الاجتماعیة.

ص: ۱۷۵

و الشیطان إذا فشل فی إفشال دور الحج وتأثیره العظیم فی تکامل الحاج، وتعبئته النفسیة العالیة التی تبلغ ذروتها فی (عرفة)، فإنه یتحوّل إلی الدور الثانی لإحباط مکاسب الحج عند ما یعود الحاج إلی حیاته المألوفة فی (البیت) و (الشارع) و (السوق)، وهی المراکز الثلاثة لحضور النّاس فی الحیاة الدنیا.

و نقصد بالبیت، الحیاة العائلیة التی هی أحد أرکان حیاة الإنسان، ونقصد بالشارع، العلاقات الاجتماعیة (العلاقات العامة)، ونقصد بالسوق، العمل الذی یدر معیشة الإنسان فی السوق، أو فی الحقل، أو فی المصنع، أو فی دوائر الدولة، فی البر أو البحر.

ولهذه المراکز الثلاثة دور کبیر فی إستهلاک الخزین النفسی الذی یختزنه الحاج فی الحج، وإحباط الحالة التعبویة النفسیة العالیة، التی یکتسبها فی هذه الرحلة.

إنّ الشیطان یبذل جهداً کبیراً لتسریب خزین الحج، فی تعامل الحاج فی البیت، والسوق، والشارع، مع أهله، ومن خلال تجارته، وعلاقاته الاجتماعیة؛ تماماً کما تتسرّب الحرارة عند ما تکون فی وسط بارد فاقد للحرارة، فی الأجسام الصلبة، وفی السوائل والغازات، ما لم یحفظ الحرارة جدار عازل، یحفظ الحرارة من التسرّب.

و لایتصور أحدٌ أننا ندعوا إلی أن یعتزل الحاج بیته، وتجارته، وعلاقاته الاجتماعیة، عند ما یعود من الحج، فلیس هذا من دین الله فی شیء ... بل العکس هو الصحیح ... فإنّ الحیاة العائلیة، والعمل، والتجارة، والعلاقات الاجتماعیة، مما یدعو إلیه الإسلام دعوة حثیثة.

و إنّما الذی ندعوا إلیه بشکل دقیق، هو أن نعرف کیف یحافظ المرء علی خزین الحج، وتعبئته النفسیة العالیة فی وسط المراکز الثلاثة التی عددناها آنفاً،

ص: ۱۷۶

دون أن یعتزلها، أو یقاطعها؟

فإنّ هذه المقاطعة والاعتزال، لیس من دین الله إطلاقاً.

کیف نحافظ علی مکاسب الحج؟

اشارة

و الآن نطرح الاجابة علی هذا السؤال، فی دراسة موجزة إن شاء الله، فأقول:

إنّ أهمّ العوامل الواقیة التی تحفظ الإنسان، وتحفظ له ما اکتسبه فی الحج من التسرّب والاستهلاک فی ساحات الحیاة الثلاثة، هی التقوی والذکر، وإلیک تفصیل ذلک.

۱- التقوی

اشارة

التقوی هو اللباس العازل الذی یحفظ الإنسان من عوامل البیئة، والوسط الموضوعیة من الفتن والمغریات، ومن العوامل النفسیة، داخل النفس، من الشهوات والأهواء، ومن دور الشیطان فی إثاره الأهواء والشهوات تجاه الفتن والمغریات، وتجمیل الفتن والمغریات تجاه الأهواء والشهوات، وهذا هو الدور الرئیسی للشیطان فی إغواء الإنسان وتسقیطه، وهو دور الوساطة بین الأهواء والفتن، (دور السمسار).

و التقوی هو اللباس العازل الذی یحفظ الإنسان من ثلاثیة الابتلاء (الأهواء- الفتن- الشیطان) دون أن یعتزل الإنسان حیاته العائلیة، وعلاقاته الاجتماعیة، وعمله، وتجارته، وحرکته الاقتصادیة.

و ما من عامل یقوی علی حمایة الإنسان من ثلاثیة الابتلاء مثل (التقوی).

و التقوی هو ضبط النفس عند الحدود الّتی حدّدها الله تعالی لعباده.

و قد أفاد الحج الحجاج ضبط النفس بدرجة عالیة، وبمقاییس واسعة وکبیرة فی محرمات الإحرام، منذ لحظة التلبیة إلی أن یخرج من حالة الإحرام.

و إذا کان الحاج قد تحلّل من محرمات الإحرام بعد السعی، وطواف النساء (الوداع)، فإنّ خزین التقوی وضبط النفس الذی اکتسبه الحاج فی هذه الدورة

ص: ۱۷۷

المكثفة يبقى معه.

و التقوى خير ما يحفظ الحاج بعد عودته من الحج، و يحفظ له ما اكتسبه فى الحج من معرفة الله، وحاله القرب إلى الله، والبصيرة، وشفافية القلب، وقوة النفس، والعزم فى طاعة الله، والاخلاص لله، والإخبات إليه، وذكر الله، وحالات الأنس بذكر الله، والشوق إلى لقاء الله، وحبّ الله، وما لا أحصيه من مكاسب الحج العظيمة.

فإنّ الإنسان ما لم يتلوّث بالذنوب والمعاصى، والانشغال بالدنيا عن ذكرالله تبقى له هذه المواهب، ولا يفسدها شيء مثل (الذنوب) و (الانشغال بالدنيا عن ذكر الله).

و التقوى يحفظ الإنسان من الذنوب، وهو الشطر الأول من الطريق الصعب.

والشطر الثانى من هذا الطريق هو ذكر الله الذى يحفظ الإنسان من أن تلهيه الدنيا عن ذكر الله وهو قوله تعالى (وَاذْكُرْ رَبَّكَ إذا نَسيتَ) (۱)، فإنّ الذكر يحفظ الإنسان من نسيان ذكر الله والذكر يحفظ الذكر وسوف نتحدث عنه إن شاء الله، فيما يأتى من هذا الحديث.

فإذا التزم التقوى، يحفظ له التقوى شطراً كبيراً من المواهب التى كسبها فى الحج.

مراقبة التقوى

و التقوى، كما يقول الله تعالى: لباس، (وَ لِباسُ التَّقْوى ذلِكَ خَيْرٌ)، وكما يحفظ اللباس صاحبه من الحرّ، والبرد، ومن الأذى، وعيون الناس، ويستر له عوراته و سوءآته، كذلك التقوى يحفظ الإنسان من ثلاثية الابتلاء (الفتن والمغريات– الأهواء والشهوات– الشياطين).

۱– الكهف: ۲۴

ص: ۱۷۸

و يحفظ له عورات نفسه و سوءآته، فإنّ للنفس الإنسانيـة عورات، كما للجسم، ويستر التقوى عورات النفس، كما يستر اللباس عورات الجسم.

و لكن، كما يحفظ اللباس صاحبه، كذلك يحفظه صاحبه من الوساخة والتمزق.

و هذا هو الدور المتبادل بين الإنسان واللباس، في الحفظ والصيانة.

كذلك العلاقة بين (الإنسان) و (التقوى)، فإنّ (التقوى) يحفظ صاحبه من الانحراف، والسقوط، والذنوب، والمعاصى، وهو دور وقائى عظيم لا مندوحة عنه للإنسان في سلامة الروح والنفس والعقل.

... وفي المقابـل يجب على الإنسـان أن يراقب عامل (التقوى) في نفسه وسـلوكه، لئلا يضـعف أو يختل ... ولكي تؤدى التقوى دورها في المحافظة على الإنسان، لابدّ للإنسان أن يراقب التقوى، ويحافظ عليها، ومن دون ذلك لايسلم له التقوى.

يقول أميرالمؤمنين على بن أبىطـالب (ع)، فى هـذا الـدور المتبـادل بين الإنسـان والتقوى: «ألا فصونوها وتصوّنوا بها».(۱) وهى كلمة دقيقة وعميقة ... فلكى يصون الإنسان نفسه بالتقوى، لابدّ أن يصون التقوى نفسها ويراقبها.

أهمّ آليات مراقبة التقوى:

۱- المحاسبة، والمراقبة المتصلة.

۲- الوعظ والتذكير.

۳- ذكر الله، وذكر الموت.

۴- مرافقة الصالحين ومجالستهم، وحضور مجالسهم.

۱- نهج البلاغة، الخطبة: ۱۹۱

ص: ۱۷۹

۲- الذکر

اشارة

العامل الآخر للمحافظة علی مکاسب الحج، ذکر الله تعالی ضمن برنامج منظم ... وهذا الذکر یشمل نوافل الصلاة، وبشکل خاصّ النوافل اللیلیة (صلاة اللیل) وقراءة القرآن، والدعاء، والأوراد، والأذکار الواردة فی اللیل والنهار، ولو خلال فترة العمل، والالتزام بتعقیبات الصلاة، والاهتمام بحضور الجماعة، والتعهد بالأدعیة الواردة لیلة الجمعة، ویوم الجمعة، وسائر أیّام الله فی السنة.

إنّ الالتزام بهذه الأبواب من الذکر، یفتح منافذ القلب علی الله تعالی، ویبعث فیه النور، والبصیرة، والشفافیة، ویقرب الإنسان إلی الله، ویمنح الإنسان الیقین، والعزم، والقوة فی طاعة الله، والأنس إلی ذکر الله، والشوق إلی لقاء الله، وحبّ الله، والإنابة إلی الله، والخشیة والرجاء من الله، وما لا أحصیه من المواهب التی جعلها الله فی الذکر.

و من أعظم هذه المواهب، إنّ ذکر الله یحفظ الإنسان من أن تشغله الدنیا وتلهیه عن الله ... وهذا هو الشطر الثانی من الطریق الصعب الذی ذکرناه آنفاً فی السعی إلی الله.

فإنّ أعظم حجابین یحجبان العبد عن الله تعالی، هو الذنوب والمعاصی أولًا،

و التعلّق بالدنیا ثانیاً.

و لمکافحة هذین العاملین قلنا:

إنّ (التقوی) هو الشطر الأول من الطریق الصعب، یحفظ الإنسان من الذنوب والمعاصی الحاجبة عن الله؛ و (الذکر) هو الشطر الثانی من هذا الطریق، یحفظ صاحبه عن الدنیا ودورها المغری فی إلهاء الإنسان، وانشغاله عن الله.

ص: ۱۸۰

المداومة

و لا يؤتى الذكر ثماره في حياة الإنسان، ما لم يواصله الإنسان زمناً طويلًا في حساب العمر.

و قد روى عن أميرالمؤمنين (ع): «قليل مدوم عليه خير من كثير مملول منه». (۱) إنّ بركات الذكر لاتظهر مرة واحدة، كما هو الحال في أغلب سنن الله تعالى في الكون، وإنما تظهر بصورة تدريجية.

و لكي يكتسب الإنسان بركات الذكر، لابدّ له من مواصلة الذكر ومداومته.

المراقبة والمدوامة

و الغاية هنا من التأكيد على (مراقبة) التقوى و (مداومة) الذكر، هي أن يتحوّل التقوى والذكر في حياة الإنسان إلى ملكة راسخة ثابتة.

فما لم يتحول التقوى والذكر في حياة الإنسان إلى ملكتين راسختين، في النفس ثابتتين، فهما معرضان لأخطار وتهديدات كثيرة من جانب ثلاثية الابتلاء التي شرحناها من قبل.

في ضيافة الرحمن ؛ ؛ ص ۱۸۰

ذا تحولتا بالمراقبة والمداومة، إلى حالة ثابتة وراسخة في النفس، واستحكمتا في النفس، فلا يخاف عليهما عندئذ من تحديات (الأهواء) و (الفتن) و (الشياطين) ويتحوّل التقوى والذكر عندئذ من حالة رجراجة غير ثابتة، إلى ملكة ثابتة وراسخة في النفس ... وعندئذ تثبت مكاسب الحج في نفس الإنسان.

***

۱- وسائل الشيعة ۱۱۸: ۱

ص: ۱۸۱

تجليات الأمة الواحدة فى مشاهد الحج

اشارة

ص:۱۸۲

ص: ۱۸۳

تجلّی الأمّهٔ الواحدهٔ وظهورها فی الحج واحدهٔ من أعظم منافع الحج (لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَ يَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِی أَيَّامٍ مَعْلُومات) ((۱))، ولا نعرف مشهداً للأمّهٔ الواحدهٔ أعظم وأروع مما نشاهده الحج.

هنالک یشـهد المسلم الأمهٔ الواحدهٔ بکل تجلیاتها، من اسقاط الفوارق وملأ الفواصل والفجوات والوقوف جمیعاً فی موقف واحد وفی وقت واحد.

وهذه المشاهد التی تتکرر کلّ سـنهٔ، ویحضـرها نخبهٔ من المسلمین من کلّ فجّ عمیق ... تعتبر أفضل تجسید للأمهٔ الواحدهٔ، التی تضیع أحیاناً وتختفی بسبب تراکم الخلافات الذهبیهٔ والوطنیهٔ.

وأوّل مـا یتجلّی هـذا المشـهد التوحیـدی والوحـدی العظیم فی (المیقـات) حیث ینتزعهم المیقات من أزیائهم الوطنیـهٔ ویلبسـهم لباسـاً موحـداً فی غایـهٔ البساطـهٔ، وبعیـداً عن مظـاهر الترف، ثمّ یوحّـِد المیقـات خطـابهم الربـانی «لبّیک اللهم لبّیک، لبیک لا شـریک لک لبّیک»، وهـذا هو الخطاب التوحیـدی والوحـدوی الـذی یرفعه الحجاج جمیعاً فی المیقات ... یوحّـِد المیقات خطابهم الذی هو جوهر هـذه العبادهٔ وهی (التوحیـد) ویوحّـِد مظهرهم، وینتزعهم من حالهٔ التشـتت فی الخطاب، وتمایز المظاهر والأزیاء، فیکون مثل المیقات مثل جداول متمایزهٔ من أقالیم شتی، تدخل فی المیقات وکأنه نهر عظیم من الحجاج، یقبلون علی الله بمظهر واحد، وخطاب

۱- الحج: ۲۸

ص: ۱۸۴

واحد، وغایة واحدة، حتّی یَصُبّ هذا النهر فی بحر عظیم من الناس بجوار بیت الله الحرام، لا تکاد تمیز فیه العراقی عن الیمانی، والیمانی عن الجزائری، و الجزائری عن الإیرانی، والترکی.

ثم یأتی دور الکعبة الشریفة فی توحید هذه الأمة وإخراجها إخراجاً واحداً.

وللکعبة المعظمة دوران فی توحید هذه الأمة (القبلة والطواف)، وکلّ واحد من هذین الدورین یوحّد جبهة هذه الأمة العظیمة، المتفرقة فی بلاد شتّی من القارّات الخمسة.

إنّ (القبلة) ترمز فی حیاة المسلمین إلی أمرین علی أعلی درجات الأهمیة، ترمز (القبلة) إلی توجیه الإنسان وجهه إلی الله فی کل حالاته، (وَجَّهْتُ وَجْهِیَ لِلَّذِی فَطَرَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ حَنِیفاً وَ ما أَنَا مِنَ الْمُشْرِکِینَ) (۱).

(فَإِنْ حَاجُّوکَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِیَ لِلَّهِ وَ مَنِ اتَّبَعَنِ)(۲) .

وعندما یوجّه الإنسان وجهه إلی نقطة معیّنة، فإنها سوف تحدّد مساره وخط حرکته بشکل قطعی، کما کان یجعل أهل البادیة فی البر، والبحّارة فی البحار النجوم بین أعینهم، لیحدّدوا بذلک خط حرکتهم فی البوادی والبحار، قبل أن یعرفوا نظام البوصلة.

فإذا جعل الإنسان (الله) تعالی وجهته، وتوجّه إلیه بوجهه، وجعله غایة لحرکته، فإنّ هذه النقطة الغائیة فی تحرکه التی جعلها وجهته وفی قبالته سوف تحدّد له خط حرکته ومساره فی الحیاة الدنیا، وهو الصراط المستقیم الذی یهدیه إلی الله تعالی، وهو صراط الذین أنعم الله علیهم من عباده: (اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِیمَ* صِراطَ الَّذِینَ أَنْعَمْتَ عَلَیْهِمْ).

۱- الأنعام: ۷۹

۲- آل عمران: ۲۰

ص: ۱۸۵

وترمز (القبلـة) ثانیاً إلی توحیـد جهة حرکة المسـلمین جمیعاً إلی الله، بهذا الاتجاه، فإنّ (القبلة) توجّه عامة المسـلمین إلی نقطة الکعبة فی الیوم خمس مرات علی أقل التقادیر.

إذن القبلة ترمز أولًا إلی توجیه الإنسان المسلم إلی الله فی حرکته، علی الصراط المستقیم.

وترمز ثانیاً إلی توحید المسلمین عامة فی هذا الاتجاه الربانی فی الحرکة.

وخلاصة القول: إنّ القبلة ترمز إلی الاستقامة علی الصراط المستقیم إلی الله تعالی، وتوحید حرکة المسلمین جمیعاً علی هذا الصراط.

و یرمز (الطواف) إلی حرکـة التوحیـد علی وجه الأرض وفی التاریـخ، کما یرمز إلی اجتماع الموحّدین لله، بهذا الاتجاه التوحیدی فی التاریخ والمجتمع.

فإنّ هذه الحرکة الاستداریّة حول مرکز الکعبة ترمز- والله العالم- إلی الحرکة التوحیدیة للإنسان.

فلاینحرف الطائف عن مرکز الکعبـة، فی کل دائرة الطواف، بکتفه الأیسـر علی امتداد هذه الدائرة، بینما یتحرک کتفه الأیمن فی کل الاتجاهات، من دون إستثناء، والدائرة التی یطویها الکتف الأیمن للطائف ۰۳۶۰، وهی دائرة کاملة لاتخرج عنها جهة من الجهات علی الاطلاق، وهی إشارة رمزیة- والله العالم- إلی أنّ بإمکان الإنسان أن یحافظ علی توحید الله بالعبادة، والاستعانة، والطاعة، والعبودیة فی کل حرکته الواسـعة فی الـدنیا، فی کل حقول الحیاة، فی حرکته، وخطابه، ومواقفه، وعمله، من دون اسـتثناء، (إِنَّ صَـلاتِی وَ نُسُـکِی وَ مَحْیایَ وَ مَماتِی لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِینَ)، لیس فقط فی صلاته و نسکه، وإنما فی محیاه ومماته أیضاً.

وفی نفس الوقت ترمز الکعبـة إلی تجمیع المسـلمین علی توحیـد الله تعـالی فی العبـادة، والعبودیـة، والاسـتعانة، والاخلاص، والـدین، والطاعة، والولاء.

ص: ۱۸۶

وهکذا تتّصل تجلّیات الأمـة الواحـدة فی مشاهد الحج الکبری من المیقات إلی الطواف، ومن الطواف إلی السـعی، ومن البیت الحرام إلی عرفة، حیث یجتمع ملایین المسـلمین فی وادی عرفة، توحّدهم عرفة، وتوجههم إلی الله تعالی بالدعاء والصـلاة، وتصفیهم من کلّ ذنوبهم، بلا استثناء إلّا الشرک، والقتل، وحقوق الناس، والبدعة فی دین الله، فإنّها لا تغتفر.

ویفیض الحجاج من عرفة إلی المشعر الحرام، وقد ترکوا وراءهم رکام ذنوبهم ومعاصیهم فی هذا الوادی الشریف.

ثم مشـهد المشـعرالحرام ومشاهـد رمی الجمرات فی وادی منی، وهو یرمز إلی جهد جمعی من جانب الحجاج کلهم لإقصاء الشـیطان عن حیاتهم، ورجمه، وإبعاده منهم.

ثمّ یأتی فی نهایة هذه الجولة الصعبة من المیقات إلی منی «العید الأکبر» الذی یحتفل به الحجاج جمیعاً فی منی، وفی رحاب بیت الله، وهو عید الأضحی المبارک.

یوحّدهم فی فرحتهم بنجاحهم فی إقامة هذه الفریضة الصعبة فی هذا البلد الذی اختاره الله لبیته الحرام.

إنّ أبرز شیء فی الحرکة العظیمة من المیقات إلی منی أمران: (توحید) الله تعالی بالعبادة؛ و (توحید) حرکة الأمة علی خط توحید الله؛ ولا یحسّ الإنسان بهذه الأمة المبارکة العظیمة، کما یحسّ بها فی مشاهد الحج العظیمة.

و کما یوحّـد الحـج خطاب هـذه الأمـة، وحرکتها، ومظهرها، ومضـمونها، کـذلک یوحّد جهد هذه الأمة فی مکافحة العوامل المعیقة، لوحـدة الأمـة، والفتن الطائفیـة التی تجعل من هذه الأمة الواحدة، أمماً شتی متقاطعة ومتنافرة، علی خلاف ما یریده الله تعالی من عباده المؤمنین.

ص: ۱۸۷

الإضاءات الثلاثة فی طریق وحدة الأمة

اشارة

إنّ مکافحة الفتن الطائفیة، والسعی إلی التقریب، والتفاهم، والتضامن، والتعاون بین المسلمین، من ثوابتنا السیاسیة والحضاریة والاقتصادیة.

وتدخل فی تکوین الأمة الإسلامیة الواحدة، ومن دونه لا تتحقّق الأمة الواحدة التی جعلها الله أمة وسطاً، وشاهدة علی سائر الأمم.

ویتوقف علیها، إنتصارنا فی المعترک السیاسی، والحضاری، والثقافی، والعسکری، ومن دونها لا یتحقق النصر الذی نسعی إلیه فی مسیرتنا السیاسیة والثقافیة.

وتتوقف علیها حرکتنا الثقافیة والعلمیة .. فإنّ التقاطع الطائفی، والعزلة والانکفاء علی الذات، یؤدی بالضرورة إلی الضمور الثقافی والعلمی، وبعکس ذلک التواصل، واللقاء، والحوار الإیجابی، یؤدی إلی التکامل العلمی والثقافی فی حوزاتنا وجامعاتنا العلمیة.

إنّ هناک ثلاث قضایا رئیسیة، لابد فیها من الوعی والوضوح:

ولابد من السعی لنشر وعی سیاسی- ثقافی، تجاه هذه النقاط فی أوساط الجمهور.

وهذه النقاط هی:

۱- الأمة الواحدة.

۲- الصراع الحضاری الذی تخوضه هذه الأمة.

۳- ضرورة الترافد الثقافی والعلمی فی أوساط هذه الأمة.

و إلیک الإیضاح السریع التالی لهذه النقاط الثلاثة:

۱- الأمة الواحدة

هذه الأمة أمة واحدة، ولیست أمماً شتی.

وقد ورد هذا المعنی بصراحة فی آیتین من القرآن یقول تعالی:

ص: ۱۸۸

(إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ أنا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ) ((۱)).

(وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأنا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ) ((۲)).

ولیس معنی وحدة الأمة التطابق الکامل فی الرأی والاجتهاد، فإنّ ذلک مما لایکون .. وإنما معنی ذلک الاتفاق والتفاهم علی الأصول والانسجام والتفاهم والتعاون علی المواقف السیاسیة، وتوحید الولاء والبراءة والطاعة والنصرة.

۲- الصراع الحضاری

سواءاً أردنا أم لم نرد، نحن ندخل الیوم فی صراع حضاری عسیر ... والمواجهة العسکریة شکل من أشکال التعبیر عن هذا الصراع.

وهذا الصراع صراع شرس .. وخصومنا فی هذا الصرع جبهة واحدة، مهما تعددت توجهاتهم.

ولیس من الصدفة أن تتفق أمریکا والاتحاد الأوربی علی دعم إسرائیل فی کل أعمالها العدوانیة تجاه المسلمین، وأن تقف إلی جانبها من غیر أن تأخذ بنظر الاعتبار حاجتها إلی المسلمین، وعلاقاتها الاقتصادیة الواسعة بالعالم الإسلامی.

نحن نواجه الیوم صراعاً حضاریاً، سیاسیاً، اقتصادیاً، عسکریاً، من أشرس ما یکون الصراع، وإذا خسرنا الحرب فی هذه المعرکة المصیریة، فسوف نعود مرة أخری إلی دورة جدیدة من التبعیة الاقتصادیة والسیاسیة والثقافیة للغرب التی طالتنا من بعد سقوط الدولة العثمانیة إلی الیوم.

والانتصار والهزیمة فی هذا الصراع- فی کل أبعاده- قضیة مصیریة فی حضارتنا وتاریخنا؛ ولا نشک إننا نکسب هذا الصراع إذا واجهنا خصمنا أمة واحد، وصفاً

۱- الأنبیاء: ۹۲

۲- المؤمنون: ۵۲

ص: ۱۸۹

واحداً، وموقفاً واحداً، وذلک أنّ ید الله تعالی مع الجماعة وعلی الجماعة، وإذا کانت ید الله معنا فلا یتخطانا النصر بإذن الله.

ولا ـ نشک أنّا إذا واجهنا خصومنا مقتسمین علی أنفسنا، متقاطعین فی مواقفنا وإرادتنا، متخالفین فی توجهاتنا، فلا نکسب هذا المعترک الحضاری الصعب.

۳- الترافد الثقافی

الترافد الثقافی من نتائج التقریب بین المذاهب الإسلامیة ومن عوامله فی نفس الوقت ...

وقد کان علماء المسلمین وطلبة العلم یتوافدون علی مدارس فقهیة من مذاهب واتجاهات مختلفة، وکانوا یتبادلون الإجازات فی روایة الحدیث، فکان طلبة العلم من العراق، ومعظمهم من الشیعة یفدون إلی الحجاز ومصر والشام ومعظمهم من أهل السُنة، وکان یفد إلی العراق، علی مدرسة الحلة، وهی حوزة شیعیة عریقة، طلبة من الحجاز، ومصر، والشام، والمغرب العربی للدراسة، کما کان لعلماء المسلمین زیارات للأقالیم الإسلامیة، وکان طلبة العلوم الدینیة یلتمسون منهم أن یلقوا علیهم دروساً فی الفقه والأصولَین (أصول الفقه وأصول العقائد).

والیوم تحتضن الحوزة العلمیة فی قم، وهی حوزة علمیة عریقة تابعة لمدرسة أهل البیت (علیهم السلام) طلبة العلوم الدینیة من أکثر من مائة قُطْر فی العالم من القارات الخمسة، وجملة من هؤلاء الطلبة الوافدین إلی هذه الجامعة من أهل السنة، و لایجدون حرجاً فی الدراسة فی حوزة شیعیة، کما لا تجد هذه الحوزة حرجاً أن تحتضن طلبة من المدارس، والاتجاهات الفقهیة الأخری، وتجری دراسة فقه المذاهب الإسلامیة الأربعة فی هذه الحوزة کما تجری دراسة الفقه الإمامی.

ولهذا الترافد الثقافی والعلمی أثر بالغ فی التکامل العلمی والثقافی فی المراکز

ص: ۱۹۰

العلمية الإسلامية.

فإنّ الجهود العلمية، والثقافية المختلفة، عندما تلتقى مع بعض على صعيد موضوعى، علمى، غير متشنّج، يكون هذا اللقاء سبباً للإثراء والتكامل العلمى والثقافى لكل من هذه الروافد العلمية والثقافية، ويؤدى هذا الترافد إلى التقارب والتعارف بين المذاهب المختلفة، كما أنّ التقارب والتعارف بين هذه المذاهب يؤدى بالضرورة إلى الترافد العلمى والثقافى.

إنّ ظاهرة الترافد تؤدى إلى مكافحة وإبطال الفتن الطائفية .. والعكس أيضاً صحيح، فإنّ الفتن الطائفية تقلّل من فرص الترافد الثقافى، وتحوّل الثقافة والعلم إلى دوائر مغلقة غير مترابطة، وهذه الحالة من أسباب ضمور العلم والمعرفة دائماً.

وعلى كلّ حال، ظاهرة الترافد الثقافى ظاهرة مباركة فى حياة هذه الأمة، يجب أن نستعيدها، ونجدّدها، ونشجعها، وندعمها، وهى من أفضل وسائل علاج الفتنة.

وفيما يلى سوف نتحدث إن شاء الله عن ثلاثة من أبرز النقاط التى تساهم فى علاج الفتنة الطائفية وإخمادها، وهذه النقاط الثلاثة هى:

۱- الوعى والخطاب

۲- اللقاء والحوار

۳- العمل المشترك

وإليك تفصيل هذه النقاط:

أولًا: الوعى والخطاب

اشارة

الفتنة الطائفية، كأية فتنة أخرى، تنشأ وتنمو فى غياهب الجهل والجهالة .. والفتن فى حياة الناس كثيرة، وكلها تتكون وتظهر وتنمو فى ظلمات الجهل.

وأفضل العلاج لها ولأمثالها من الفتن هو المعرفة والوعى، فإنّ النور يكسح

ص: ۱۹۱

الظلمهٔ، والمعرفهٔ والوعی نور یزیل ما یعترضه من الظلمات، والفتن تراکم من الظلمات بعضها فوق بعض.

الوعی والتقوی

إنّ تحصین المجتمع من الفتن یتم بعاملین اثنین مع بعض، وهما عامل التقوی والمعرفهٔ، فإذا اجتمعتا فأنهما یحصّنان المجتمع من أمثال هذه الفتن.

ومهما واجهنا فتنهٔ من هذه الفتن التی تمحق دین الناس، وتثیر الشغب والفوضی، وتحرق الأخضر والیابس، فلابدّ أن یکون من وراء هذه الفتنهٔ عجز فی (التقوی) أو (الوعی) أو فیهما معاً.

فهما یحصّنان المجتمع من کل فتنهٔ، ویمنحان صاحبهما بصیرهٔ وفرقاناً، إذا ادلهمت الخطوب والظلمات علی الناس.

الوعی السیاسی

ومن أهمّ وجوه الوعی الیوم الوعی السیاسی، فإنّ عامل الاستکبار العالمی، والمخابرات، والمنظمات الجاسوسیهٔ العالمیهٔ، تکمن خلف هذه الفتن.

والمؤسسات الإعلامیهٔ (الصحف والفضائیات ودور النشر) تبثّ هذه الفتن بین الناس، وتقوم بتأجیج حرائق الفتنهٔ الطائفیهٔ بین المسلمین.

وتجد أنظمهٔ الاستکبار العالمی فی هذه الفتن الطائفیهٔ، فرصهٔ ذهبیهٔ لبسط نفوذها فی العالم الإسلامی، وتمکّنها من أسواق المسلمین، ومصادر الثروهٔ النفطیهٔ، والمعدنیهٔ، والمائیهٔ، والزراعیهٔ فی العالم الإسلامی ... وسوف نبسط الحدیث فی هذا الجانب إن شاء الله.

و الأداهٔ المفضّلهٔ لمواجههٔ هذه الفتن هی الوعی السیاسی الذی یمکن الناس من معرفهٔ خلفیات هذه الفتن وجذورها، والمنظمات الجاسوسیهٔ التی تخطط لها هناک

ص: ۱۹۲

فی الغرب، عبر المحیطات.

و من واجب العلماء والخطباء والمثقفین الإسلامیین نشر الوعی السیاسی بین الناس، وتمكین الناس من إختراق الغطاء الإعلامی، وتمكینهم من الدرك الصحیح لما یحصل فی الساحة العالمیة من فنون اللعبة السیاسیة، وتحذیر الناس من أن یكونوا ضحایا هذه اللعب، والخطط التی تنتجها باستمرار العقلیة الغربیة، تجاه العالم الإسلامی.

وعی الجمهور

ولست أعنی ب- (الوعی السیاسی) هنا وعی النخبة، ولست أنفی ضرورة الوعی السیاسی عند النخبة، وأهمیتها، ولكن وعی النخبة لا یغنی عن وعی الجمهور، وإذا حلّ الوعی فی الشارع الذی یتحرك فیه الجمهور، وتسلّح الجمهور بالوعی، لم تعد هذه اللعب السیاسیة، والفضائیات المضلّلة قادرة علی تضلیل الناس، وتفجیر الفتن فی وسط الناس، كالذی یحصل الیوم فی العراق وفی باكستان وفی بعض الأقطار الإسلامیة.

فإنّ الوعی عندما ینزل إلی مستوی الشارع ویثقف الجمهور یحصّنه من أمثال هذه الفتن ... والجمهور الذی یمتلك درجة عالیة من الوعی السیاسی یمتلك درجة عالیة من الحصانة تجاه العوامل الإعلامیة والسیاسیة المضللة، وبالضرورة لاتحتوشه الفتن.

والجمهور غیر الموجّه، وغیر الراشد، هو الوسط الخصب، والتربة الصالحة لأمثال هذه الفتن؛ وعن طریق التوعیة، والتثقیف السیاسی، یمكننا أن نحافظ علی سلامة الجمهور ورشده.

والجمهور كما هو تربة صالحة للفتن والضوضاء، كذلك هو وعاء صالح للوعی،

ص: ۱۹۳

والعقل، والسـداد، والتقوی .. ویمتلک أعماقاً سـلیمة من الفطرة، لم ینفذ إلیها الفساد، والقادة الحقیقیون هم الذین یدرکون هذا العمق الفطری السـلیم للجمهـور، ویقـودون الجمهـور إلی صـراط الله المسـتقیم والتقـوی، ویحـذرونه من مغبّـة الوقوع فی أمثـال هـذه الفتن، ویفلحون فی ذلک.

إنّ الثقـة بـالجمهور، وکفـاءاته الکثیرة، وسـلامة فطرته، هو رأس مـال أولئـک القـادة الـذین یعرفون کیف یخاطبون الجمهور، وکیف یکسبونه .. بعـد الثقـة بالله تعالی، و الاعتماد علیه، والاطمئنان إلی وعـده بالنصـر، وتأییـده للقلّة المؤمنـة، فی مواجهة أمثال هذه الفتن والتحدیات.

الوعی والخطاب

ولابـد للوعی من خطـاب، کمـا أنّ للتضـلیل السیاسـی خطـاب، ولإثـارة الفتنـة بین الناس خطاب، ولتغریر الناس، وتجهیلهم، وتسـطیح عقولهم خطاب، کذلک للوعی خطاب.

ولغة هذا الخطاب لغة العقل، وهی اللغة المفضّلة فی خطاب الوعی ... إنّ العاطفة جزء ضروری من خطاب الجمهور لاشک فی ذلک، ولکن من الخطأ الاقتصار علی العاطفـة فی خطاب الجمهور .. ولابد من اسـتخدام لغة العقل فی خطاب الناس، إلی جانب لغة العاطفة، ولابـد أن تکون لغـة العقل هی الحاکمـة وهی الأصل، ولغـة العاطفـة تأتی فی امتـداد لغة العقل، ولإسـناد العقل عندئذ یکون الخطاب العـاطفی خطاباً صالحـاً للجمهور ... وأمّـا عنـدما یتمحّض خطـاب الجمهور فی الخطـاب العاطفی، فلا یکون مثل هـذا الخطاب خطاباً راشداً أمیناً غالباً، و لایکون قادراً علی توجیه الجمهور إلی الوجهة الصحیحة ...

إنّ مشـکلة الخطاب الإسـلامی المعاصـر لـدی أصـحاب التوجهات الطائفیـة المعاصـرة، هی الحالـة العاطفیـة الطاغیة علی هذا الخطاب والحالة الشعاریة، ورفض

ص: ۱۹۴

لغـة العقل، وحالـة الإنكفاء على الـذات، والانغلاق على الرأى الآخر، ورفض الطرف الآخر، رفضاً مطلقاً إلى حدود التكفير، واسـتباحة الدماء التى حرّمها الله تعالى إلّا بحقها.

و قد يكون اسـتجابة الجمهور أحياناً إلى الخطاب الشـعارى والعاطفى أسـرع من استجابتهم للخطاب العقلانى الرافض للعاطفة .. ولكن يبقى استخدام لغة العاطفة والشعار محضاً وحصراً فى خطاب الجمهور، خيانة للجمهور مهما كانت استجابتهم لهذا الخطاب، واستخدام لغة العقل ومحكمات الدين فى خطاب الجمهور هو الموقف الناصح الأمين من الجمهور، و إن واجهه الجمهور أحياناً بالرفض.

وعلى علماء المسـلمين أن يتقوا الله فى الخطاب، ولا يبتغوا مرضاة الناس فى ذلك، فقد يكون فى الناس من يستجيب للشعار والعاطفة، وقـد يكـون الخطـاب العـاطفى والشـعارى أسـرع قبولًا فى وسـط الجمهور .. ولكنّه على كـل حـال خيانـة، يجب أن يحـذرها العلمـاء الراشدون.

والجمهور الذى يتثقف من خلال الخطاب العقلائى أكثر ثباتاً وصـلابة فى الموقف، والجمهور الذى يتلقى الخطاب العاطفى الشـعارى جمهور متقلّب فى الرأى، لا يثبت على موقف ورأى، ومسؤولية هذه الحالة المتقلّبة على عهدة الخطاب العاطفى والشعارى الذى يتلقاه هذا الجمهور من حملة الخطاب الطائفى المتشنّج.

منطلقات الخطاب الدينى

وكمـا يجب الاهتمـام بلغـة الخطاب فى حياتنا الثقافيـة والسياسـية المعاصـرة، كـذلك يجب الاهتمام بمنطلقات الخطاب الإسـلامى ... هناك خطابات سياسـية وثقافية كثيرة معاصـرة صادرة من (الولاءات) المنتحلة الوهمية، كالولاء للقوم، والوطن، والأحزاب، والعشـيرة، وهى ولاءات منتحلة كاذبة فى مقابل الولاء لله، ولرسوله،

ص: ۱۹۵

ولأئمة المسلمين وللمؤمنين، وهو الولاء الراشد الصحيح الذى جاء به الوحى من عند الله: (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ) ((۱)) ...

وهذا هو الولاء الحق الذى جاء به رسول الله (ص) من عند الله، وهو الولاء الذى يوحّد صف المسلمين، ويجعل منهم أمة واحدة فى صف مرصوص، مقابل أعداء هذه الأمة.

وللقضاء على هذا الولاء، بادر أعداء هذا الدين إلى طرح ولاءات أخرى، فى مقابل الولاء لله، ولرسوله، ولأولياء الأمور، وللمؤمنين، كالولاء للقوم والوطن والعشيرة، وبذلوا أموالًا طائلة لتثبيت هذه الولاءات فى ثقافة المسلمين المعاصرة، من خلال المدرسة، والصحافة، والإذاعة، والتلفاز، وإحياء المآثر الفرعونية والبابلية والكسروية والفينيقية .. إلى غير ذلك.

من خلال هذه الثقافات عملوا على زرع ولاءات وهمية، قومية، و وطنيه .. مقابل الولاء لله ولرسوله.

ونحن عندما نتحدث عن الخطاب السياسى الذى نلقيه إلى جمهورنا يجب أن نأخذ بنظر الاعتبار منطلقات هذا الخطاب ... هذا الخطاب يجب أن ينطلق عن الولاء لله ولرسوله فى قوله تعالى:

(إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ) ((۲)).

وقوله تعالى: (إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ) ((۳)).

وقوله تعالى: (وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ) ((۴)).

۱- المائدة: ۵۵

۲- المائدة: ۵۵

۳- الأنبياء: ۹۲

۴- المؤمنون: ۵۲

ص: ۱۹۶

وقوله تعالى: (وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) ((۱)).

وقوله تعالى: (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ) ((۲)).

وقوله تعالى: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ) ((۳)).

وقوله تعالى: (وَلَا تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ) ((۴)).

وقوله تعالى: (فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ) ((۵)).

وقوله تعالى: (وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ) ((۶)).

أمّة واحدة، وطاعة واحدة، وولاء واحد.

إنّ لكل ولاء خطاب، وخطاب كل ولاء يختلف عن الخطاب الآخر، ونحن ولاؤنا لله ولرسوله ولأولياء الأمر وللمؤمنين وليس للوطن والقوم والعشيرة .. ولهذا الولاء خطاب يختلف عن خطاب الولاء للقوم والوطن.

ونحن لا- نرفض الارتباط بالقوم والوطن إلّا أن هذا الارتباط من الانتماء وليس من الولاء، والولاء يحكم الانتماء .. فقد حارب المسلمون صدر الإسلام أهلهم وآباءهم وإخوانهم من مكة فى الله.

وخطابنا إلى جمهور أمتنا- فى السراء والضراء- يجب أن ينطلق من هذا المصدر، وهو الخطاب الذى يجمع الشمل، ويزرع المحبة والمودة فى القلوب،

۱- آل عمران: ۱۰۳

۲- التوبة: ۷۱

۳- الحجرات: ۱۰

۴- الأنفال: ۴۶

۵- النساء: ۵۹

۶- الأنفال: ۷۲

ص: ۱۹۷

ويؤسس التفاهم والتعاون فى الأفكار والأعمال.

الصدق والنصح فى الخطاب

ويجب أن يكون الخطاب صادقاً ناصحاً .. وفى خطابنا المذهبى الطائفى المعاصر الكثير من الكذب والافتراء .. ومن يقرأ بعض أدبيات الفتنة الطائفية المعاصرة، يجد نماذج كثيرة من هذا الافتراء والكذب، ومن أمثلة هذا الافتراء: الافتراء على الشيعة الإمامية بأنهم يقولون بتحريف القرآن، وهم ينفون عن أنفسهم هذه التهمة، ويصرّحون ويكتبون عن صيانة القرآن عن التحريف.

ولو أنك سبرت بلاد المسلمين فى كل العالم لا تجد غير هذا القرآن قرآناً يتلوه الناس، ويتعبدون به فى مشارق الأرض ومغاربها.

وكم يتبادل المسلمون من المذاهب المختلفة، الافتراءات فيما بينهم من غير هدى ولا بيّنة.

ولا يقتصر أمر هذه الافتراءات فيما بين الشيعة والسنة، وإنما يتم بين الشيعة أنفسهم، والسنة أنفسهم بما لا يقلّ عما يجرى بين الشيعة والسنة ...

وهذا الخطاب الطائفى الاستفزازى، ينقصه الصدق والنصح ..

ينقصه الصدق، لأنّ علماء المسلمين من جميع المذاهب يكتبون ويعلنون ويصرّحون أن ليس لله على وجه الأرض كلها قرآن غير هذا القرآن، الذى يتلوه المسلمون صباحاً ومساءاً.

وينقصه النصح، لأنّ المسلم الذى يهمّه أمر وحدة المسلمين وانسجامهم، والذى يأمر الله تعالى به ورسوله لا ينال مذاهب المسلمين بهذا اللون القاسى من الجرح والتشهير والتسقيط، من دون تثبت علمى، بل مع إعلانهم البراءة عما ينسب إليهم من الافتراء.

ص: ۱۹۸

الشجاعة والصراحة فى الخطاب

إنّ مواجهة ظروف الفتنة الطائفية اليوم تستدعى شجاعة وصراحة فى الخطاب وما لم يمتلك حَمَلَةُ الخطاب الإسلامى هذه الشجاعة والصراحة لا يتمكنون من مواجهة الفتنة الطائفية المعاصرة واستئصالها.

إنّ الحالة التكفيرية المعاصرة، واستباحة دماء المسلمين بغير الحق، عودة للحالة الخارجية التى ظهرت صدر الإسلام فى حرب صفين والنهروان فى أيام خلافة أميرالمؤمنين (ع)، و ولادة جديدة لنفس الحالة.

وهذه الحالة آخذة بالتوسع والنفوذ إلى داخل الحركة الإسلامية المعاصرة .. ولابد أن يمتلك تجاه هذه الحالة، علماء المسلمين الجرأة، والشجاعة، والصراحة الكافية فى بيان موقف الإسلام من هذه الجماعة، ومن هذه الحالة التى تُعدّ انزلاقاً خطيراً للحركة الإسلامية المعاصرة.

والتردد والتريث فى مثل هذا البيان والخطاب، يؤدّى إلى استشراء هذه الحالة وتوسعها، و إلى حدوث انزلاقات خطيرة فى الحركة الإسلامية المعاصرة بهذا الاتجاه.

وقد حرّم الإسلام دم المسلم وماله إذا كان يشهد بالتوحيد لله والنبوة لرسول الله قولًا واحداً بين فقهاء المسلمين.

روى مسلم فى الصحيح فى فضائل على (ع): عندما دعا رسول الله (ص) علياً فى فتح خيبر فأعطاه الراية وقال له: «امش ولا تلتفت حتى يفتح الله عليك»، قال: فسار على ۷ شيئاً ثم وقف ولم يلتفت فصرخ:

يا رسول الله على ماذا أقاتل الناس؟

قال: «قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، و أنّ محمداً رسول الله، فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم» (۱).

۱- صحيح مسلم ۱۸۷۱: ۴- ۱۸۷۲ كتاب فضائل الصحابة.

ص: ۱۹۹

وفی الصحیحین بالإسناد إلی مقداد بن عمرو: أنه قال: یا رسول الله أرأیت إن لقیت رجلًا من الکفار، فاقتتلنا فضرب إحدی یدی بالسیف، فقطعها، ثم لاذ منی بشجرهٔ، فقال: أسلمت لله، فأقتلْه یا رسول الله بعد أن قالها، فقال رسول الله (ص): «لا تقتله، فإن قتلته فإنه بمنزلتک قبل أن تقتله، وإنک بمنزلته قبل أن یقول کلمته التی قال»(۱) .

و أخرج البخاری فی بعث علی (ع) وخالد إلی الیمن: أنّ رجلًا قام، فقال: یارسول الله: اتق الله، فقال (ص): «ویلک ألست أحق أهل الأرض أن یتقی الله»، فقال خالد: یا رسول الله ألا أضرب عنقه، فقال (ص): «لا، لعله أن یکون یصلی» (۲).

وعن أمیر المؤمنین (ع) أنه قال: «قال رسول الله (ص): امرت أن اقاتل الناس حتی یقولوا: لا ـ إله إلا ـ الله، فإذا قالوها فقد حرم علیّ دماءهم وأموالهم» (۳).

وعن أبی هریرهٔ قال: قال رسول الله (ص):

«امرت أن اقاتل الناس حتی یقولوا: لا ـ إله إلا ـ الله، فإذا قالوا لا إله إلا الله عصموا منی دماءهم وأموالهم إلّا بحقها وحسابهم علی الله» (۴).

وعن أبی عبدالله الصادق (ع) أنه قال: «الإسلام یُحقن به الدم» (۵).

وعنه (ع) أنه قال: «شهادهٔ أن لا إله إلا الله والتصدیق برسول الله (ص)، به حُقنت الدماء وعلیه جرت المناکح والمواریث» (۶).

۱- صحیح البخاری ۱۵۸۱: ۴ ح ۴۰۹۴ وصحیح مسلم ۹۵: ۱ کتاب الإیمان ح ۱۵۵ عدی الجملهٔ الأخیرهٔ.

۲- صحیح البخاری ۱۵۸۱: ۴ ح ۴۰۹۴ ومسند احمد ۱۰: ۴- ۱۱

۳- بحار الأنوار ۲۴۲: ۶۸

۴- مشکاهٔ المصابیح ج ۱۲- ۱۴

۵- المحاسن: ۲۸۵؛ وبحار الأنوار ۲۴۳: ۶۸

۶- الکافی ج ۲ ص ۲۵؛ وبحار الأنوار ۲۴۸: ۶۸

ص: ۲۰۰

وعن رسول الله (ص) أنه قال: «من وحّد الله وکفر بما یعبد من دونه حَرُم ماله ودمه وحسابه علی الله» (۱).

وعن أبی عبدالله الصادق (ع) أیضاً عن رسول الله (ص) أنه قال: «أیها الناس إنّی أمرت أن أقاتلکم حتی تشهدوا أن لا إله إلا الله وأنی محمد رسول الله، فإذا فعلتم ذلک حقنتم بها أموالکم ودماءکم إلّا بحقّها وکان حسابکم علی الله»(۲) .

وروی الدارمی عن رسول الله (ص) أنه قال: «إنّی أمرت أن اقاتل الناس حتی یقولوا: لا ـ إله إلا ـ الله، فإذا قالوها حرمت علیّ دماؤهم وأموالهم إلّا بحقّها، وحسابهم علی الله» (۳).

عن أبی سعید الخدری قال: وجد قتیل علی عهد رسول الله (ص)، فخرج مغضباً حتی رقی المنبر فحمد الله وأثنی علیه، ثم قال: «یقتل رجل من المسلمین لا یُدری من قتله، والذی نفسی بیده لو أنّ أهل السماوات والأرض اجتمعوا علی قتل مؤمن أو رضوا به لأدخلهم الله فی النار»(۴) .

وروی مسلم فی (الصحیح) روایتین عن رسول الله (ص) نعرف منهما عظیم حرمة «لا إله إلا الله» وحرمة القائل بها، ولو کان القائل بها قد تظاهر بها لیحمی نفسه من القتل، وأنّ هذه الکلمة تعطی قائلها وحاملها من الحرمة ما لا یجوز لأحد انتهاکها إلّا بحقه.

روی مسلم أنّ رسول الله (ص) بعث بعثاً من المسلمین إلی قوم من المشرکین،

۱- مسند أحمد بن حنبل ۴۷۲: ۳

۲- المحاسن: ۲۸۴، بحار الأنوار ۲۸۲: ۶۸

۳- سنن الدارمی ۲۱۸: ۲، ورواه بلفظ قریب منه عن رسول الله ۹ البخاری فی ۵۷: ۱ من الصحیح فی فضل استقبال القبلة، وأبو داود فی السنن ۴۱: ۲- ۴۲ باب علی ما یقاتل المشرکون، واحمد بن حنبل فی المسند ۱۹۹: ۳، و ۴۴۵: ۲، ۳۳۹: ۳، و ۸: ۴- ۹، وابن ماجة فی السنن ۱۲۸۵: ۲- ۱۲۸۶، والنسائی فی السنن ۱۰۹: ۸

۴- بحار الأنوار ۱۵۰: ۷۵

ص: ۲۰۱

وأنهم التقوا فكان رجل من المشركين إذا شاء أن يقصد إلى رجل من المسلمين قصد له فقتله، وإنّ رجلًا من المسلمين قصد غفلته، قال: وكنا نحدّث أنه أسامة بن زيد، فلما رفع عليه السيف قال: لا إله إلّا الله فقتله، فجاء البشير إلى النبى (ص)، فسأله فأخبره، حتى أخبره خبر الرجل كيف صنع، فدعاه فسأله قال: لِمَ قتلته؟ قال: يا رسول الله اوجع فى المسلمين، وقتل فلاناً وفلاناً وسمّى له نفراً، وإنّى حملت عليه فلما رأى السيف قال: لا إله إلا الله، قال رسول الله (ص):

أقتلته؟ قال: نعم، قال: فكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة، قال:

يا رسول الله استغفر لى، قال: وكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة، قال: فجعل لا يزيد على أن يقول: «كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة» (۱).

وروى مسلم أيضاً عن أسامة بن زيد أنه قال:

«بعثنا رسول الله (ص) فى سرية فصبحنا الحرقات (۲) من جهينة فأدركت رجلًا فقال: لا إله إلا الله، فطعنته، فوقع فى نفسى من ذلك فذكرته للنبى (ص) فقال رسول‌الله (ص): أقال لا إله إلّا الله وقتلته! قال: قلت: يا رسول الله إنما قالها خوفاً من السلاح، قال: أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا، فمازال يكررها علىَّ حتى تمنّيت أنى أسلمت يومئذ» (۳).

ورغم أنّ القتيل كان مقاتلًا يقاتل المسلمين فى صفوف الكافرين حتى اللحظة الأخيرة، ونطق بكلمة التوحيد فى اللحظة الأخيرة عندما وجد السيف على رأسه، وواضح من كل القرائن أنّ الرجل شهد ب- لا إله إلّا الله خوفاً من

۱- صحيح مسلم ۶۸: ۱- ۶۹

۲- الحرقات بضم المهملة والراء وقاف بعدها من جهينة، هم بنو حميس بن عمرو بن ثعلبة بن مودوعة بن جهينة، كما فى جمهرة ابن حزم: ۴۴۶

۳- صحيح مسلم ۶۷: ۱

ص: ۲۰۲

القتل، وليس عن إيمان، كما قال أسامة بن زيد .. إلّا أنّ رسول الله (ص) غضب غضباً واضحاً، وأنكر على أسامة بشدة وقوة، وكرّر إنكاره على أسامة حتى تمنى أسامة أن يكون قد أسلم فى ذلك اليوم، حتى يكون الإسلام قد جبَّ من ذنوبه ما سبق.

خطبة رسول الله (ص) بمنى

وهذه الخطبة ألقاها رسول الله (ص) فى جموع المسلمين الغفيرة بيوم النحر بمنى، وقد روى هذه الخطبة ثقاة المحدثين بألفاظ متقاربة، ونحن ننقل الخطبة برواية الإمام أبى عبدالله الصادق (ع)، ويغنينا اشتهار روايتها بين حفاظ الحديث النبوى عن ذكر مصادرها:
عن زيد الشحّام عن أبى عبدالله الصادق (ع) أنه قال:
«إنّ رسول الله ۹ وقف بمنى حين قضى مناسكها فى حجة الوداع فقال: أيها الناس اسمعوا ما أقول لكم، واعقلوه عنى، فإنى لا أدرى لعلىّ لا ألقاكم فى هذا الموقف بعد عامنا هذا، ثم قال: أىُّ يوم أعظم حرمة؟ قالوا: هذا اليوم، قال: فأىّ شهر أعظم حرمة؟ قالوا هذا الشهر، قال: فأىّ بلد أعظم حرمة؟ قالوا: هذا البلد، قال: فإنّ دماءكم وأموالكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، فى شهركم هذا، فى بلدكم هذا، إلى يوم تلقونه فيسألكم عن أعمالكم، ألا هل بلّغت؟ قالوا: نعم، قال: اللّهم اشهد، ألا من كانت عنده أمانة فليؤدّها إلى من ائتمنه عليها، فإنه لايحل دم امرئ مسلم ولا ماله إلّا بطيبة نفسه، ولا تظلموا أنفسكم، ولا ترجعوا بعدى كفّاراً»(۱).

۱- روى هذه الخطبة جمع غفير من الحفاظ والمحدّثين من الفريقين ولشهرتها نعرض عن ذكر مصادر الخطبة.

ص: ۲۰۳

ثانیاً: الجماعة، واللقاء، والحوار

اشارة

هذه ثلاثة عناوین یحبها الله تعالی، وهی أساس التقریب والتفاهم وجمع الشمل وهی:

(الجماعة) و (الاجتماع واللقاء) و (الحوار والتفاهم).

وهذه الثلاثة هی الأداة المفضلة فی دین الله لمکافحة الفتن الطائفیة، وإزالة التقاطعات، والوصول إلی الانسجام والتفاهم والتعاون.

وسوف نشرح هذه الثلاثة، ونقف وقفات قصیرة عند کل واحد منها:

الجماعة (الأمّة)

نقصد بالجماعة: الأمّة الإسلامیة الواحدة، وتتمیز هذه الأمّة من سائر الأمم فی العقیدة والشریعة والرسالة، و رسالتها التعاون والتضامن الاجتماعی، علی أداء هذه الرسالة، والدعوة إلی الله والأمر بالمعروف والنهی عن المنکر ...

(قُلْ هَذِهِ سَبِیلِی أَدْعُو إِلَی اللّهِ عَلَی بَصِیرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِی) ((۱)).

(وَلْتَکُن مِّنکُمْ أُمَّةٌ یَدْعُونَ إِلَی الْخَیْرِ وَیَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَیَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنکَرِ وَأُوْلَئِکَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) ((۲)).

(کُنتُمْ خَیْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنکَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ) ((۳)).

(وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِیَاء بَعْضٍ یَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَیَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنکَرِ وَیُقِیمُونَ الصَّلاَةَ وَیُؤْتُونَ الزَّکَاةَ وَیُطِیعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِکَ سَیَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ

۱- یوسف: ۱۰۸

۲- آل عمران: ۱۰۴

۳- آل عمران: ۱۱۰

ص: ۲۰۴

عَزِيزٌ حَكِيمٌ) ((۱)).

هؤلاء، جماعة هذه الأمة، يحملون هماً واحداً، ومسؤولية واحدة، هى الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وهم أسرة واحدة، متعاونة ومتفاهمة ومتعاطفة (بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ)، وهم يؤمنون جميعاً بالله ورسوله، ويطيعون الله ورسوله؛ فإنّ الدعوة إلى الله ورسوله، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، لايكون إلّا مع الإيمان بالله ورسوله، وطاعة الله و رسوله.

إذن هذه الجماعة تحمل ثلاث خصال:

۱- الإيمان بالله ورسوله، وطاعة الله ورسوله.

۲- الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإقامة الصلاة ..

۳- التفاهم والتعاون والتعاضد والتواصى بالحق والصبر فيما بينهم.

(إِلّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) ((۲)).

وعليه فإنّ مفهوم (الجماعة) بهذا التوضيح يلتقى مفهوم (الأمة)، ويتحد معه.

وهذه الأمة أمة واحدة، وليست أمماً شتى، لا ريب فى ذلك.

(إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ) ((۳)).

(وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ) ((۴)).

وهذه الأمة بعرضها العريض أمّة واحدة، لها عقيدة واحدة، وشريعة واحدة، و منهاجاً واحداً، ودعوة واحدة، وسبيل واحد، ورسالة واحدة، يؤدّونها مجتمعين.

وهذه الوحدة والاجتماع فى الأداء، وتحمّل المسؤولية، والوحدة فى العقيدة والشريعة والدعوة، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، هى التى تجعل من هذه

۱- التوبة: ۷۱

۲- العصر: ۳

۳- الأنبياء: ۹۲

۴- المؤمنون: ۵۲

ص: ۲۰۵

الأمة جماعة واحدة.

وقد ورد التأكيد على هذا الاجتماع، والوحدة في الأداء، والوحدة في الموقف والعمل في آيات عديدة من القرآن.

منها قوله تعالى: (وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا) فإنّ الآية الكريمة تحمل معنيين:

الاعتصام بحبل الله، وهذا هو المعنى الأول، وأن يكون هذا الاعتصام من قبل الجميع (جميعاً) وهذا هو المعنى الثاني.

ومنها قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً) ((۱)).

والآية الكريمة كذلك تحمل معنيين:

۱- الدخول في السلم.

۲- وأن يكون هذا الدخول من قبل الجميع، (كافة).

وقد ورد التأكيد في أحاديث كثيرة متضافرة على لزوم الجماعة، منها ما رواه الفريقان عن رسول الله (ص) في الخطبة التي خطبها في مسجد (الخيف) بمنى عام حجة الوداع، وإليك هذا الخطاب النبوي الشريف:

«نضر الله عبداً سمع مقالتي فوعاها، وبلغها من لم تبلغه، فربّ حامل فقه ليس بفقيه، وربّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ثلاث لا يغل عليهن قلب امرئ مسلم: إخلاص العمل لله، والنصيحة لائمة المسلمين، واللزوم لجماعتهم، فإنّ دعوتهم محيطة من ورائهم، المؤمنون أخوة تتكافأ دماؤهم، وهم يد على من سواه، يسعى بذمتهم أدناهم»(۲) .

وهذا خطاب شريف يتضمن ثلاث دعوات، وأية دعوات؟

۱- الإخلاص في العلاقة بالله.

۱- البقرة: ۲۰۸

۲- بحار الأنوار ۶۹: ۲۷ ح ۷

ص: ۲۰۶

۲- والنصيحة فى العلاقة بأئمة المسلمين وأولياء الأمر.

۳- واللزوم لجماعة المسلمين فى العلاقة بالأُمة.

وسلامة الفرد والمجتمع بسلامة هذه العلاقات الثلاثة:

۱- العلاقة بالله.

۲- والعلاقة بأئمة المسلمين.

۳- والعلاقة بجماعة المسلمين.

فإذا سلمت علاقة الفرد بهذه المحاور الثلاثة، يسلم الفرد، وتسلم الأمة.

اللقاء والاجتماع

ورد فى النصوص الإسلامية التأكيد على اللقاء والاجتماع والنهى عن الاختلاف والتفريق والتقاطع داخل الجماعة المسلمة، والنهى عن الخروج عن جماعة هذه الأمة والشذوذ عنها.

عن رسول الله (ص): «عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة»(۱) .

وعنه (ص): «اثنان خير من واحد وثلاثة خير من اثنين وأربعة خير من ثلاثة. فعليكم بالجماعة، فإنّ يد الله مع الجماعة، ولم يجمع الله أمتى إلّا على هدى، واعلموا أنّ كل شيطان (البعيد من الحق) هوى فى النار»(۲) .

وعنه أيضا (ص): «لا يجمع الله أمر أمتى على ضلالة أبداً، اتبعوا السواد الأعظم، من شذّ فى النار»(۳) .

وعن أمير المؤمنين (ع): «ألزموا السواد الأعظم، فإنّ يد الله مع الجماعة، وإياكم والفرقة، فإنّ الشاذ من الناس للشيطان، كما أنّ الشاذ من الغنم للذئب، فلا تكونوا

۱- ميزان الحكمة ۷۶۵: ۱

۲- كنز العمال ۲۰۵: ۱ ح ۱۰۲۵

۳- ميزان الحكمة ۴۰۶: ۱

ص: ۲۰۷

أنصاف الفتن، وأعلام البدع، وألزموا ما عقد عليه حبل الجماعة، وبنيت عليه أركان الطاعة»(۱) .

وعن الإمام الصادق (ع) انه قال: «إنّ قوماً جلسوا عن حضور الجماعة، فهمّ رسول الله ۹ أن يشعل النار فى دورهم حتى خرجوا وحضروا الجماعة مع المسلمين»(۲) .

وقد جعل الله تعالى فى لقاء المؤمنين رحمة وبركة وخيراً كثيراً، وجعل اللقاء والحوار من منازل رحمته وبركاته ...

كما أنّ الشيطان يجعل من التباعد سبباً للنفور والقطيعة والخلاف.

واللقاء لا يتمّ من غير حوار عادة، فهما متلازمان من ناحية اللقاء، وقد رأينا بركات كثيرة فى اللقاءات الأخيرة المعاصرة التى تمت فى إيران بعد قيام نظام الجمهورية الإسلامية ... بين المذاهب الإسلامية فقد كانت هذه اللقاءات مصدر خير كثير فى حياة هذه الأمة، تعارف خلالها بعضهم على بعض، وتحابوا، ووجدوا فرصاً واسعة للتفاهم والتعاون، لم يكونوا يعرفوها من قبل ... فى هذه اللقاءات إرتفع كثير من اللبس والغموض الذى كان ينظر من خلاله بعضهم إلى بعض من قبل، واكتشفوا مساحات مشتركة واسعة جداً فى الفكر والثقافة والمعرفة، كانوا يعدونها من قبل مما ينفرد بها بعضهم عن بعض.

(الجماعة) و (الجمعة)

إنّ اجتماع المؤمنين واللقاء بينهم أمر يحبّه الله تعالى، وما يحبّه الله يجعل فيه البركة والخير، ويجعله من منازل رحمته.

وهذا اللقاء، وما يستتبعه من الحوار يدخل فى صلب التشريع .. فقد شرَّع الله فى

۱- نهج البلاغة: الخطبة ۱۲۷

۲- مستدرك الوسائل ۴۵۰: ۶

ص: ۲۰۸

هذا الدين للمسلمين (الجماعة) و (الجمعة) و (الحج) ..

ويدخل في (الجمعة) صلاة العيدين الفطر والأضحى.

وهذه الثلاثة (الجماعة، والجمعة، والحج) تجمعات إسلامية ثلاثة تجمع المسلمين من مختلف الأقاليم و القوميات والمذاهب والاتجاهات والاجتهادات .. ولاشك أنّ الحالة العبادية والذكر في الصلاة والحج جزء لا يتجزأ من هذه الثلاثة ... إلّا أن حالة اللقاء والاجتماع أمر مقصود في هذه التشريعات الثلاثة من دون شك.

ورغم أن الإنسان يُقبل على صلاته في الخلوات أكثر من الإقبال عليها في الاجتماعات ... مع ذلك كله يفضّل الإسلام إقامة الفرائض اليومية جماعة على الصلاة بالانفراد، وذلك نظراً لأهمية التقاء المؤمنين وتواجدهم في ساحة واحدة.

وقد بلغ من اهتمام الإسلام بالجماعة أنّ رسول الله (ص) هدد أقواماً كانوا مقاطعين لصلاة الجماعة في المدينة بأن يحرق بيوتهم، كما في الرواية.

روى الشيخ الطوسي في التهذيب عن الصادق (ع): أنّ أناساً كانوا على عهد رسول الله (ص) ابطئوا عن الصلاة في المسجد، فقال رسول الله (ص): «ليوشك قوم يدعون للصلاة (يَدَعون الصلاة ظ) في المسجد أن نأمر بحطب فيوضع على أبوابهم فتوقد عليهم النار فنحرق عليهم بيوتهم» (۱).

وكذلك الاهتمام بأمر (الجمعة) في الإسلام وتحشيد المؤمنين من كل منطقة في جامع عام لإقامة الجمعة، وقد روى عن الإمام الباقر (ع):

«صلاة الجمعة فريضة، والاجتماع إليها فريضة مع الإمام، فإنّ ترك رجل من غير علة ثلاث جمع فقد ترك ثلاث فرائض، ولا يدع ثلاث فرائض، من غير علة إلّا منافق»(۲) .

۱- التهذيب ۲۵: ۳، ووسائل الشيعة ۳۷۶: ۵، نقلًا عن ميزان الحكمة ۴۱۰: ۵

۲- وسائل الشيعة ۴: ۵ نقلًا عن ميزان الحكمة ۴۲۶: ۵

ص: ۲۰۹

واجتماع الحج هو الاجتماع الأوسع للأمة كلها، تجتمع في موعد واحد ومكان واحد، لإقامة هذه الفريضة، وهو أوسع اجتماع يعرفه الناس على وجه الأرض .. يقيمه المسلمون في كل عام تلبية لأذان أبيهم أبي الأنبياء إبراهيم (ع) (وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ) (۱).

الجماعة والجمعة تجمعان كل الشرائح والمذاهب

وقد حرص الإسلام أن يحضر المسلون بكل مذاهبهم واتجاهاتهم هذه الاجتماعات الثلاثة لأداء الفريضة اليومية وصلاة الجمعة وفريضة الحج مجتمعين.

وكان أئمة أهل البيت: يؤكدون لشيعتهم حضور الجماعات والجمعات لأهل السنة.

عن الإمام الصادق (ع): «من صلّى خلفهم كان كمن صلّى خلف رسول‌الله ٩».

وفي حديث آخر عنه (ع): «إذا صليت معهم غُفِرَ بعدد من خالفك في قراء البسملة وحضر الصلاة في المسجد».

وذلك أنّ الأحناف من أهل السنة يلغون البسملة في القراءة، على خلاف مذهب أهل البيت: في اعتبار البسملة جزءاً من كل سورة، إلّا سورة التوبة.

ويشكو أحد الرواة إلى الإمام الصادق (ع) حاله في حضور صلوات جماعة أهل السنة يقول: إنّ لنا إماماً مخالفاً، وهو يبغض أصحابنا كلهم، فقال (ع): «ما عليك من قوله، والله لئن كنت صادقاً لأنت أحق بالمسجد منه، فكن أنت أول داخل وآخر خارج، وأحسن خلقك مع الناس، وقل خيراً».

ويقول الإمام الصادق لإسحاق بن عمار: «يا إسحاق أتصلي معهم في

۱- الحج: ۲۷

ص: ۲۱۰

المسجد؟ قال: قلت نعم، قال: صلّ معهم فإنّ المصلى معهم فى الصف الأول كالشاهر سيفه فى سبيل الله».

*** إنّ من الضرورى تعبئة الجماعات والجمعات بحضور الشرائح الإسلامية المختلفة من كل المذاهب والطوائف الإسلامية، وكسر الحواجز الطائفية والمذهبية فيهما.

ومن الضرورى أن يكون خطاب أئمة الجمعات والجماعات، خطاباً تقريبياً، وحدوياً، توحيدياً، يكسب كل الفرق والطوائف الإسلامية، ولا يفرّقهم ولايُنَفِّرُهم.

ومن الضرورى تعبئة الحج بالحوار الهادف الموجّه بين المسلمين فى شؤونهم السياسية والثقافية والاقتصادية.

مساحات اللقاء والحوار

أهم مساحات اللقاء والحوار، هى المساحة الثقافية، والمعرفية، والمساحة السياسية، والمساحة الاقتصادية، والاختلاط العائلى بالتزاوج والمصاهرة.

اللقاء، والحوار الموجّه فى شؤون الثقافة والمعرفة، يؤدى إلى تقريب وجهات النظر من المذاهب الإسلامية فى شؤون المعرفة والعلم، كالفقه واصول الفقه والكلام والتفسير.

ويؤدى إلى اكتشاف مساحات مشتركة بين المذاهب الإسلامية فى مختلف أبواب المعرفة، ويتبين لهم أنّ الخلاف فى ما بين المذاهب الإسلامية فى هذه المسائل لم يكن إلّا خلافاً لفظياً، وهم متفقون على جوهر هذه المسائل.

كما يؤدى إلى التكامل والتلاقح العملى لدى الجميع.

ص: ۲۱۱

وقد كانت هذه الطريقة مألوفة لدى العلماء، وطلبة العلوم من المذاهب الإسلامية المختلفة، فى التردد على المدارس، والحوزات العلمية المختلفة لتلقى العلم، رغم اختلاف المذاهب .. وكان لهذا الترافد العلمى والثقافى أثر كبير فى إثراء المعرفة والثقافة الإسلامية، وتكامل العلوم والمعارف لدى المسلمين.

المساحة السياسية مساحة واسعة ... وهذه المساحة اليوم أصبحت مساحة لهواة السياسة، والإنتهازيين، واللاعبين الدوليين فى السياسة، وأنّ للسياسة لاعبين، يلعبون فى هذه المساحة كما يلعب اللاعبون من هواة الشعبذة والمسرح .. ويقيسون العمل السياسى ويفهمونه ويقيّمونه بنفس المقاييس التى يفهم فيها الناس العاب التمثيل السينمائى .. يكذبون ويُكَذّبون حتى يصدقهم الناس، ويستخدمون بيوت أموال المسلمين بسخاء لكسب آراء الناس، ويبطلون الحقائق، ويحققون الزيف والكذب والباطل، بأدوات الكذب والتضليل والتغرير.

وللأسف أنّ المساحة السياسية فى العالم اليوم تحكمها هذه العصابات، إلّا ما ندر وشذّ، ولا نطيل فى هذا الحديث، وسوف يطول موقفنا بين يدى الله تعالى يوم السؤال الأكبر والمحاسبة الكبرى (وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ) ((۱)) تجاه هذه القضية.

فقد عرف الناس الظالمين، وسكتوا عنهم، وجاوروهم وتعاونهم معهم، ولم يحرّكوا ساكناً، ولم يزعجوهم بموقف أو كلمة، وتركوهم يمرحون ويلعبون بمصالح هذه الأمة وقضاياها الكبرى، وينهبون ثرواتها، ويمكّنون أنظمة الاستكبار العالمى من بلاد المسلمين، إلّا القليل النادر، الذين نهضوا بواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وجابهوهم بكلمة الحق، وكسروا كبريائهم وأذلوا غرورهم .. وهؤلاء

۱- الصافات: ۲۴

ص: ۲۱۲

قلة فی هذه الأمة، ولكنّها قلة مباركة.

والسبيل الوحيد إلی طرد هذه العصابات السياسية الانتهازيّة من الساحة الإسلامية السياسية هو حضور جمهور المسلمين فی هذه الساحة، حضوراً مُوحّداً بالإيمان والوعی والعطاء.

إنّ حضور الجمهور فی الساحة يغيّب هذه العصابات، ويسلب منهم الأضواء التی يتألّقون بها، وتكشفهم وتعرّيهم.

وهذا الحضور عبادة، بمستوی الأمر بالمعروف والنهی عن المنكر، لأنّه يطرد حملة المنكر من الساحة، ويفتح المجال للمعروف والعاملين به.

وهذا الحضور عبادة، كما أنّ الصلاة والصيام عبادة، وهو من مصاديق الأمر بالمعروف والنهی عن المنكر.

شريطة أن يكون هذا الحضور عن وعی وبصيرة، وليس حضوراً غوغائياً انفعالياً، وبشرط أن يحمل هذا الحضور خصلة المقاومة والعطاء، وليس حضوراً واهياً ضعيفاً انفعاليّاً، تفرّقه طلقات من الرصاص والغازات المسيلة للدموع.

وبشرط أن يكون هذا الحضور حضوراً وحدوياً، تتجسّد فيه وحدة الصف.

ويتم الحوار فيه علی أساس مصلحة الإسلام الكبری، ويتعامل الجمهور فی هذه الساحة من منطلق (الأمة الواحدة)، ويتفقون فيها علی موقف واحد ورأی واحد.

إنّ مثل هذا الحضور واللقاء والحوار عندما يعمّ الساحة الإسلامية، وينتشر فی العواصم والحواضر والمراكز الإسلامية، يكون له دور كبير فی توجيه قضايانا السياسية ... ولست أريد أن أشُطَّ فی الخيال وأقول: إنّ حضور الناس فی المساحة سوف يؤدی إلی تغيير شامل لأوضاعنا السياسية الفاسدة فی العالم الإسلامی، ولكننی أقول إنّ هذا الحضور الواحد الشامل سوف يُعدّل كثيراً من قرارات

ص: ۲۱۳

الأنظمة السياسـية الكبرى، مثل قرار (التطبيع)، وتبادل السلام بالأرض فى فلسطين، والموقف من الإحتلال الأمريكى للعراق وأفغانستان والموقف من المسألـة النوويـة الإيرانيـة، والموقف السـلبى الـذى اتخـذته الأنظمـة العربيـة من (حماس) فى خلافها مع (منظمة التحرير الفلسـطينية)، تبعـاً للموقف الأـميركى- الأـوربى- الإسـرائيلى، والموقف من التأييـد الأـمريكى لإسـرائيل والرفض الأـمريكى للمقـاومة الإسـلامية فى لبنـان وفلسـطين (حزب الله وحمـاس والجهاد)، و ضـرورة التفكيك بين (المقاومـة) و (الإرهاب)، واحترام الأول وتبنّيه، ونبذ الثانى ورفضه ...

إنّ مثل هـذا اللقاء والحوار فى الساحـة الإسـلامية العريضـة من أهم ضـرورات المرحلة، شـريطة أن نحصّن هذا اللقاء والحوار من نفوذ الأنظمـة واختراقاتهـا، فإنّ الأنظمـة الحاكمـة فى العالم الإسـلامى، تملك من وسائل إختراق الساحـة ما يهـدّد وحـدة الساحـة ووعيها، ويؤدى إلى تفريقها وتضليلها، وقد شاهدنا فى حياتنا السياسية المعاصرة نماذج كثيرة من هذا الاختراق والتضليل والتجهيل والتفريق.

شروط اللقاء والحوار

ولكى يكون هذا اللقاء والحوار نافعين يجب أن يتوفر فيهما الشروط التالية:

فقـد تتدافع الأطراف الإسـلامية فيما بينها، ولا يصـلون إلى قناعة مشتركة، عند ذلك يجب عليهم أن يقدّموا المصـلحة الإسـلامية العليا على كل مصـلحة .. وقد كان أمير المؤمنين على بن أبى طالب (ع) قدوة لكل المسـلمين فى ذلك .. يقول (ع) فيما جرى عليه من بعد رسول الله (ص) فى تقديم الآخرين عليه فى أمر الولاية والخلافة، وتنحيته عن حقّه فى هذا الأمر:

«فوالله ما كان يلقى فى روعى، ولا يخطر ببالى أن العرب تُزعج هذا الأمر من

ص: ۲۱۴

بعده ۹ عن أهل بيته، ولا أنهم مُنَحُّوهُ عنی من بعده، فما راعنی إلّا انثیال الناس علی فلان یبایعونه، فأمسکت یدی (عن البیعة)، حتی رأیت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام، یَدْعُون إلی محق دین محمد ۹، فخشیت إنْ لم أنصر الإسلام وأهله، أن أری فیه ثلماً أو هدماً، تکون المصیبة بها علیّ أعظم من فوت ولایتکم»(۱) .

إنّ سوء الظن إذا استولی علی الناس فی علاقة بعضهم ببعض أفسد اللقاء، وکانت نتائج اللقاء سلبیة .. وإنّ سوء الظن آفة کل لقاء وحوار وعمل مشترک ... وقد نهانا الله تعالی عن سوء الظن فی دائرة العلاقات التی تربط المسلمین بعضهم ببعض: (یَا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا کَثِیرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ)(۲) .

إنّ تعاطی سوء الظن فی العلاقة یفسد العلاقة ویلغیها.

عندما نکون فی منعطف تاریخی حساس، کالمنعطف الذی تعیشه الأُمّة الإسلامیة الیوم.

وعندما تکون الأمة الإسلامیة ناهضة، وتخوض صراعاً مریراً فی مواجهة الأنظمة المرتبطة بعجلة الاستکبار العالمی وأنظمة الاستکبار العالمی التی تقف خلف هذه الأنظمة.

وعندما تُحشّد أنظمة الاستکبار العالمی کل إمکاناتها لمواجهة التیار الإسلامی العظیم، الذی یعمّ کل العالم الإسلامی، وکان الموقف بیننا وبین الاستکبار العالمی

۱- نهج البلاغة: کتاب رقم ۶۲

۲- الحجرات: ۱۲

ص: ۲۱۵

موقفاً تاريخياً مصيرياً فاصلًا ...

أقول عند ذلك فإنّ من أفدح الأخطاء فى ظروف صعبة وعسيرة مثل هذه الظروف، أن تغلب العاطفة والانفعال والشعار على مواقفنا السياسية، ولقاءاتنا، وخطابنا لجماهيرنا، وحواراتنا المتبادلة داخل البيت الإسلامى الكبير.

إنّ لغة العاطفة والانفعال والشعار، كما هو نافع فى إثارة الهمم وإنهاض الجمهور، يُمكنُ أن يتحول فى بعض الحالات إلى ألغام سريعة الانفجار تُحَوّل الساحة إلى ساحات للسجال والجدال العقيم الضار.

ونتمنى، لو أنّ طرفاً أو جهة أو شخصاً أراد أن يستخدم هذه اللغة فى إثارة التشنج فى صفوف المسلمين، ويعكر صفو العلاقات الإسلامية داخل الصف الإسلامى ... من أىّ مذهب، وأيّة طائفة، نتمنى أن يواجهه الآخرون بالعقلانية الإسلامية، والدعوة إلى ما يأمرنا الله تعالى به من الاعتصام بحبل الله (وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ) والنهى عن التفرقة (وَلَا تَفَرَّقُواْ).

إنّ الحالة السياسية والإعلامية فى العالم، والعلاقات السياسية والاقتصادية بين أنظمة الاستكبار العالمى، والأنظمة التابعة لها فى العالم الإسلامى، والعلاقة بين السياسة والإعلام ... حالات معقدة شديدة التعقيد، ويدخل فى تكوينها عوامل غير مرئية كثيرة، وما يظهر على السطح من التصريحات والعلاقات لا يعبّر عن كل شيء ...

أذكر فى المصالحة التى تمت بين نظام عربى وإسرائيل بالوساطة الأمريكية ... فتصافح زعيمان من الطرفين أمام أضواء الكاميرات فى حضور الرئيس الأمريكى فاجأ الرئيس الأمريكى المسؤول العربى بالسؤال التالى:

ص: ۲۱۶

منذ كم كانت لكم علاقة وارتباط ولقاءات مع المسؤولين فى إسرائيل؟

فقال المسؤول العربى الكبير مأخوذاً بهذه المفاجأة ممتعضاً من هذا الإحراج: منذ عشرين عاماً.

إنّ هذا السؤال والجواب يكشف عن الاحتقار الأمريكى لجملة من زعماء الأنظمة العربية الذين تحميهم أمريكا نفسها، ويحمون مصالحها، كما تكشف عن عمق الفساد السياسى فى طائفة من الأنظمة العربية.

منذ عشرين عاماً يتعامل مع إسرائيل، ويتعاطى معها، ويلتقى بقادتها فى لندن وواشنطن .. ولا يعرف الناس على سطح الإعلام السياسى عنه إلّا لغة الشجب والتهديد لإسرائيل ..!!

إنّ هذه الأنظمة السياسية، بين الواقع والتصريحات التى يقدمونها للإعلام، تشبه الكتل الثلجية العائمة على مياه البحار، تسعة أعشار منها غاطسة فى الماء لا تُرى، وعُشْرٌ منها فقط تظهر على سطح الماء ...

إنّ هذه الأنظمة بين واقعها الغاطس فى مستنقع العلاقة بأنظمة الاستكبار العالمى، والشطر الظاهر المسموع والمرئى منها فى الإعلام، تشبه هذه الكتل الثلجية .. ومن أفدح الخطأ أن نتعامل مع هذه الأنظمة من خلال الإعلام المرئى والمسموع، ومن خلال الخطب والتصريحات السياسية التى يطلقوها بين حين وآخر.

إنّ لقاءاتنا السياسية، وخطابنا السياسى، يجب أن يمتلك خلفية غنية من الوعى السياسى، والإحاطة بالظروف السياسية المعقدة، والمعرفة بالخلفيات السياسية التى تقع خلف المواقف والقرارات والتصريحات السياسية.

ومن دون هذا الوعى السياسى سوف يقع جمهورنا وساحتنا فى تخبّط سياسى واسع ... ونحن قد تحدثنا عن ضرورة الوعى السياسى وأهميته الكبيرة فى هذه

ص: ۲۱۷

المرحلة ... وعلى علماء المسلمين، وخطبائهم، ومثقفيهم، والحركات الإسلامية، إشاعة الوعى السياسى ونشره، فى الأوساط الإسلامية الشعبية.

قد ينقلب الحوار إلى جدال عقيم، بل ينقلب إلى عائق يعيق حركة الأمة، وحجاب يحجب المسلمين بعضهم عن بعض، وقد يكون الحوار جسراً للتفاهم والتعاون والتلاقى فى المساحات المشتركة السياسية والثقافية والاقتصادية لهذه الأمة، وذلك عندما يكون الحوار بالأسلوب الذى علّمنا الله تعالى ب- (التى هى أحسن، وأقوم للعلاقة الحسنة والتفاهم بين المسلمين)، يقول تعالى: (وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) ((۱)).

ويقول تعالى: (وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ) ((۲)).

ولا سبيل لدفع (نزغ الشيطان) فى العلاقة بين أطراف هذه الأمة إلّا أن يخاطب بعضنا بعضاً بأحسن ما نستطيع عليه من القول.

إنّ علينا أن نحصّن هذه اللقاءات والحوارات الإسلامية من نفوذ الأنظمة التى تقع تحت سلطان أنظمة الاستكبار العالمى واختراقها، فإنّ هذه الأنظمة تملك من وسائل الإعلام والاستخبار ما يمكّنها من اختراق هذه اللقاءات والحوارات، وإحباطها وإفسادها ... ولكى نتمكن من تفعيل هذه اللقاءات واستثمارها يجب علينا أن نحصّن هذه اللقاءات من نفوذ هذه الأنظمة واختراقاتها.

۱- النحل: ۱۲۵

۲- الإسراء: ۵۳

ص: ٢١٨

أحاديث أهل البيت (عليهم السلام) فى ضرورة اللقاء والحوار

كـان أهـل البيت: يوجهون شـيعتهم واتبـاعهم دائمـاً إلى اللقـاء والاجتمـاع بأهـل السـنة، والحضور معهم فى جوامعهم، واجتماعـاتهم، ومجالسـهم، ونـدواتهم، وينهونهم عن الابتعاد عنهم، ويؤكـدون لهم بضـرورة التواجد فى الساحة الإسـلامية العامة، وحضور الجمعات والجماعات، وتوحيـد المواقف فى الحـج، ولم يردنا- ولا حـديث واحـد- عن انفراد أئمة أهل البيت: فى موقف من مواقف الحج عن الموقف العام الذى كان يحدده الحكام فى تلك البرهة، لعامة المسلمين.

وقـد تصـدى بعض المنحرفين عن أهل البيت: للـدسّ فى أحاديثهم: لعزلهم وعزل شـيعتهم عن الوسط الإسـلامى الكبير .. وكانت هذه الأحـاديث على أنحـاء، منهـا أحاديث الغلوّ، ومنها أحاديث التحريف، ومنها أحاديث فيها تخليط فى الفقه، ومنها أحاديث فيها انتقاص وتسقيط لأهل البيت:، ومنها أحاديث فى الطعن واللعن على خصومهم.

وكـانوا يعملون لإشاعـة هـذه الأحـاديث عنهم:، وقـد روى عن الإمام الصادق (ع) فى هـذا المعنى: «إنا أهل بيت صادقون، لا نخلو من كذّاب يكذب علينا، فيسقط صدق كلامنا بكذبه»(١) .

وعنه (ع) أيضاً: «إنّ المغيرة بن سـعيد دسّ فى كتب أصحاب أبى أحاديث لم يحدّث بها أبى، فاتقوا الله، ولا تقبلوا علينا ما خالف قول ربّنا وسنّة نبيّنا» (٢).

وروى عن يونس عن أبى الحسن الرضـا (ع)، قـال: «إنّ أبـا الخطاب كـذّب على على بن أبى طالب ٧، لعن الله أبا الخطاب، وكـذلك أصحاب أبى الخطاب، يدسّون من هذه الأحاديث إلى يومنا هذا فى كتب أصحاب أبى عبدالله ٧ فلا

١- رجال الكشى: ٣٠٥ الرقم ٥٤٩

٢- المصدر السابق: ١٩٥ ترجمة المغيرة بن سعيد.

ص: ۲۱۹

تقبلوا علينا خلاف القرآن»(۱) .

وعن أبى الحسن الرضا (ع) فى حديث إلى ابن أبى محمود: «يابن أبى محمود، إنّ مخالفينا وضعوا أخباراً فى فضائلنا، جعلوها على ثلاثة أقسام: أحدها الغلوّ، وثانيها التقصير فى أمرنا، وثالثها التصريح بمثالب أعدائنا، فإذا سمع الناس الغلوّ فينا كفّروا شيعتنا، ونسبوهم إلى القول بربوبيتنا، وإذا سمعوا التقصير اعتقدوه فينا، وإذا سمعوا مثالب أعدائنا بأسمائهم ثلبونا بأسمائنا» (۲).

وقد كان أئمة أهل البيت: يعملون لكسر هذا الطوق عنهم وعن شيعتهم بتكذيب هذه الأحاديث، وفضح الوضّاعين الذين كانوا يضعون عليهم من الحديث ما لم يتحدثوا به والتأكيد على رفض كل حديث يروى عنهم يخالف القرآن.

فكانوا يقولون: «فاتقوا الله ولا تقبلوا علينا ما خالف قول ربّنا وسنّة نبينا»، «فلا تقبلوا علينا خلاف القرآن» (۳).

وكانوا يطلبون من فقهاء شيعتهم، ورواة أحاديثهم، أن يتحرّوا الأحاديث الصادقة المروية عنهم: ويحذروا ما وضعه النواصب، والمنحرفون عنهم، عليهم من الأحاديث المنتحلة، وكانوا يضعون لهم الأـصول والقواعد العلاجية لمعرفة الأحاديث الصادقة من الأحاديث المتعارضة، والأحاديث الضعيفة، وكانوا يَدْعُون شيعتهم للتعايش مع سائر الطوائف الإسلامية، والانفتاح عليهم، والتعاطى العلمى والثقافى معهم وحضور اجتماعاتهم وصلواتهم.

وكانوا لاـ يرضون لشيعتهم أن يعتزلوا الوسط الإسلامى العام، فهم جزء من هذه الأمة الكبيرة، واختلافهم عن أهل السنة فى بعض الفروع والأصول، ومقاطعتهم للحكام الظلمة الذين كانوا يحكمون المسلمين فى العصر الأموى

۱– رجال الكشى: ۲۲۴ الرقم ۴۰۱

۲– عيون أخبار الرضا ۳۰۳: ۱

۳– بحار الأنوار ۲۵۰: ۲ ح ۶۲

ص: ۲۲۰

والعباسی لم یکن یحمل معنی الاعتزال عن الساحهٔ والانقطاع عنها.

وقد کان أئمهٔ أهل البیت: یعیشون معهم وفی أوساطهم، ویجتمع إلیهم المسلمون من کافهٔ المذاهب والاتجاهات، ویحضرون مجالسهم، ویأخذون منهم العلم، ولو أحصینا أهل العلم الذین أخذوا العلم عن الإمامین الباقر والصادق (علیهما السلام)، لوجدناهم امهٔ کبیرهٔ من أهل العلم، وکانت مجالسهم ومحاضرهم عامرهٔ بفقهاء المسلمین، وحملهٔ الحدیث النبوی، وأهل‌العلم من کل اتجاه ومن کل بلد ... وهذه الحالهٔ یعرفها جیداً من یعرف حدیث أئمهٔ أهل البیت: وسیرتهم، وهی تعبّر عن حالهٔ الانفتاح والتعایش المذهبی الإیجابی السلیم لکل الاتجاهات والمذاهب الإسلامیهٔ. فی الوقت الذی کان أهل البیت: یرسمون ویوضحون لشیعتهم وللمسلمین عامهٔ الخط الفکری الصحیح فی الاصول والفروع بوضوح وصراحهٔ وبشکل دقیق.

وفی أحادیث أهل البیت: دعوهٔ واضحهٔ وصریحهٔ إلی هذا الانفتاح مع المسلمین والتعایش الإیجابی، والتواصل، والتعاطف، والتعاون معهم، وإلیک نماذج‌من أحادیث أهل‌البیت: فی هذا الشأن:

روی محمد بن یعقوب الکلینی بسند صحیح فی الکافی عن أبی اسامهٔ زید الشحّام قال: قال أبو عبدالله (ع): «أقرأ علی من تری أنه یطیعنی منهم، ویأخذ بقولی السلام، أوصیکم بتقوی الله عزّ وجلّ والورع فی دینکم والاجتهاد لله وصدق الحدیث وأداء الأمانهٔ وطول السجود، وحسن الجوار، فبهذا جاء محمد ((ص)). وأدوا الأمانهٔ إلی من ائتمنکم علیها برّاً أو فاجراً، وأنّ رسول الله ((ص)) کان یأمر بأداء الخیط والمخیط.

صِلُوا عشائرکم واشهدوا جنائزهم وعودوا مرضاهم، وأدّوا حقوقهم، فإنّ الرجل منکم إذا ورع فی دینه، وصدق الحدیث و أدّی الأمانهٔ، وحسن خلقه مع

ص: ۲۲۱

الناس قيل: هذا جعفرى، فَيسُرّنى ذلك ويدخل علىّ منه السرور، وقيل هذا أدب جعفر، وإذا كان على غير ذلك دخل علىّ بلاؤه وعاره، وقيل هذا أدب جعفر، والله لحدثنى أبى ۷ إنّ الرجل كان يكون فى القبيلة من شيعة علىّ فيكون زينها، أدّاهم للأمانة، وأقضاهم للحقوق، وأصدقهم للحديث، واليه وصاياهم وودائعهم، تسأل العشيرة عنه فتقول: من مثل فلان أنّه أدّانا للأمانة، وأصدقنا للحديث» (۱).

وأيضاً بسند صحيح عن معاوية بن وهب قال: قلت لأبى عبدالله الصادق (ع): كيف ينبغى لنا أن نصنع فيما بيننا وبين قومنا، وفيما بيننا وبين خلطائنا من الناس؟ قال: فقال (ع) «تؤدون الأمانة إليهم وتقيمون الشهادة لهم وعليهم، وتعودون مرضاهم، وتشهدون جنائزهم»(۲) .

وأيضاً بسند صحيح عن معاوية بن وهب قال: قلت له (الصادق (ع)): كيف ينبغى أن نصنع فيما بيننا وبين قومنا وبين خلطائنا من الناس ومن ليسوا على أمرنا فقال: «تنظرون إلى أئمتكم الذين تقتدون بهم فتصنعون ما يصنعون فوالله إنهم ليعودون مرضاهم، ويشهدون جنائزهم، ويقيمون الشهادة لهم وعليهم ويؤدون الأمانة لهم»(۳) .

وفى رواية اخرى للكلينى فى الكافى بسند صحيح عن حبيب الحنفى قال: سمعت أبا عبدالله الصادق (ع) يقول: «عليكم بالورع والاجتهاد، و أشهدوا الجنائز، و عودوا المرضى، وأحضروا مع قومكم مساجدهم، وأحبّوا للناس ما تحبون لأنفسكم، أما يستحى الرجل منكم أن يعرف جاره حقه ولا يعرف حقّ جاره» (۴).

وبسند صحيح عن مرازم قال: قال أبو عبدالله الصادق (ع): «عليكم بالصلاة

۱- وسائل الشيعة ۳۹۸: ۸، كتاب الحجّ آداب أحكام العشرة، الباب الأوّل، ح ۱

۲- المصدر السابق، ح ۲

۳- المصدر السابق، ح ۳

۴- وسائل الشيعة ۳۹۹: ۸، كتاب الحجّ آداب أحكام العشرة، الباب الأوّل، ح ۴

ص: ۲۲۲

فی المساجد، وحسن الجوار للناس، وإقامهٔ الشهادهٔ، وحضور الجنائز، إنه لابدّ لکم من الناس، أنّ أحداً لا یستغنی عن الناس فی حیاته، والناس لابد لبعضهم من بعض» (۱).

ثالثاً– الأعمال والمشاریع المشترکهٔ

اشارهٔ

قرأنا فیما سبق أنّ النقاط الثلاثهٔ التالیهٔ من أفضل المناهج لمکافحهٔ الفتنهٔ الطائفیهٔ .. وهذه الثلاثهٔ هی:

۱– الوعی والخطاب.

۲– اللقاء والحوار.

۳– العمل المشترک.

وقد تحدثنا فیما مضی عن النقطهٔ الأولی والثانیهٔ، وها نحن نتحدث إن شاء الله عن النقطهٔ الثالثهٔ، وهی العمل المشترک، سواءً کان العمل فی المجال العملی والثقافی أم فی مساحهٔ العمل السیاسی، أم فی المساحهٔ الاقتصادیهٔ.

والتجارب العدیدهٔ التی مارسها المسلمون فی الآونهٔ الأخیرهٔ فی المشاریع الاقتصادیهٔ والفقهیهٔ تؤکّد هذا المعنی.

و نظراً للتحدیات العظیمهٔ التی یواجهها المسلمون الیوم لابدّ من مواجههٔ هذه التحدیات بالمشاریع الإسلامیهٔ السیاسیهٔ، والاقتصادیهٔ، والثقافیهٔ، التی یشترک فیها عامّهٔ المسلمین من کل المذاهب والشرائح الإسلامیهٔ، فلم تعد الأعمال الفردیهٔ، و التی تقوم بها طائفهٔ من المسلمین کافیهٔ لمقابلهٔ هذه التحدیات، فإنّ التحدیات التی تواجهنا فی ساحتنا أکبر من أن نقابلها بمثل هذه المشاریع.

إنّ مشاریعنا السیاسیهٔ والاقتصادیهٔ والثقافیهٔ والإعلامیهٔ یجب أن تکون بحجم

۱– المصدر السابق، ح ۵

ص: ٢٢٣

الأمة كلها .. عندئذ تكون يد الله مع هذه المشاريع، وعليها، إن شاء الله تعالى.

وعندئذ تكون هذه المشاريع والأعمال قادرة على مقابلة التحديات القويّة التى تواجهنا فى ساحة عملنا.

جدلية الشرعية و الواقع:

وسوف أتحدّث عن واحدة من هذه التحدّيات التى تواجهنا فى حياتنا السياسية والثقافية، و لايتأتّى لنا مقاومتها و إحباطها إلّا ضمن مشروع سياسى وثقافى كبير، وبتضامن إسلامى واسع على قدر سعة هذه الأمة.

أمامنا قضيتان متخالفتان ومتقاطعتان، فى ساحة حياتنا و يجب علينا أن نتعامل معها بالضرورة، وليس بوسعنا التشكيك فى أى منهما، وليس بوسعنا الإعراض عن أى منها أو كليهما ومقابلته باللامبالاة.

وليس بوسع أحد أن يشك فى هذه الحقيقة، وقد تلوت عليكم قريباً قوله تعالى: (إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ).

وقوله تعالى: (وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ).

وهذه حقيقة من حقائق الوحى.

و وحدة الأمة بوحدة ولائها وبراءتها، من غير شك ولا ترديد، وإذا تعددت الولاءات والبراءات تتعدد الأمة، ولا تبقى الأمة واحدة، كما تخبرنا بها سورة (الأنبياء) و (المؤمنون).

و لايمكن فصل القيادة السياسية والنظام والقرار السياسى عن مسألة الولاء.

كما لايمكن فصل التقاطعات والصراعات السياسية والعسكرية بين الأنظمة عن مسألة البراءة ...

ص: ۲۲۴

أقول إنّ وحدة الأمة بوحدة ولائها وبراءتها، فإنّ الولاء للقيادة السياسية الصالحة للأمة تأتى فى امتداد الولاية لله ولرسوله ولأولى الأمر .. يقول تعالى: (أَطِيعُواْ اللّهَ وَ أَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَ اوْلِی الأَمْرِ مِنکُمْ) ((۱)).

و وجود ولائين أو أكثر من ذلك- فى عرض بعض- ينافى وحدة الأمة ... فضلًا عما إذا كانت هذه الولاءات متعارضة فيما بينها، كما هو حاصل عادة فى الأنظمة السياسية المتعددة الواقعة على خطوط سياسية متعددة.

أما الولاءات السياسية الطولية (التى يقع بعضها فى امتداد بعض) فلا تنافى وحدة الأمة مهما تعددت وكثرت.

إذن لهذه الأمة، طبقاً لهاتين الآيتين الكريمتين من سورتى الأنبياء والمؤمنون قيادة واحدة صالحة .. وهذه هى الحالة الشرعية التى نطلبها فى نظام الحكم والقيادة السياسية للعالم الإسلامى.

هذه هى القضية الأولى (: الشرعية).

القضية الثانية: قيام أنظمة متعددة من الحكم فى طول العالم الإسلامى وعرضها ...

و هذه الأنظمة- فى الأغلب- لا تمثّل الحالة الشرعية لأنها غير صالحة، وغير مؤتمنة على دين الناس ودنياهم، وغير منتخبة من قبل الناس، وإنما تُفرض على الناس بآليات عسكرية، أو عبر وسائل أنظمة الاستكبار العالمى ... وهذه الأنظمة تفرض طاعتها والالتزام بقراراتها على الناس بالنار والحديد والعنف .. والتغرير والتجهيل الإعلامى.

ولابد للناس من الالتزام بقرارات هذه الأنظمة: وهذا هو (الأمر الواقع)

۱- النساء: ۵۹

ص: ٢٢٥

اللاشرعى.

و بين هذا (الأمر الواقع) و (الشرعية) تقاطع شديد ولكل منهما ثقافة، وسياسة، وقوانين، وأنظمة، وآليات، وقوة للتنفيذ.

هذه هى الجدلية القائمة بين (الشرعية) و (الأمر الواقع).

ماهو تكليف المسلم تجاه هاتين القضيتين (الشرعية المحظورة) و (الواقع المفروض).

(فلا يجوز) الاستسلام للأمر الواقع المفروض، وإلغاء الحالة الشرعية، و (لايمكن) تجاوز الأمر الواقع المفروض بالقوة من قبل الأنظمة ..

هذه هى الجدلية بين (ما لا يجوز) و (ما لا يمكن) وهى جدلية قديمة فى التاريخ الإسلامى.

فما هو موقف (الفقه الإسلامى) تجاه هذه الجدلية الصعبة.

منهج أهل البيت (عليهم السلام) الفقهى

إنّ منهج أهل البيت: الفقهى تجاه هذه الجدلية فى الفترة الطويلة التى عاشوها فى العصر الأموى والعباسى، تتلخص فى ثلاث نقاط:

١- النهى عن إسناد هذه الأنظمة ودعمها، وتحريم (التعاون مع الظلمة)، فلايجوز للمسلم أن يقوم بأىّ عمل فيه إسناد و دعم لهذه الأنظمة غير الصالحة بأى شكل، ولو كان ذلك بإعداد ليقة دواة للحاكم الظالم .. وقد وردت روايات كثيرة عن أهل البيت: فى هذا المعنى؛ راجع أبواب: (حرمة التعاون مع الظلمة) فى مباحث المكاسب المحرمة، و كتاب (الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر)، فى وسائل الشيعة وسائر كتب الحديث والفقه.

٢- الأمر بمعايشة الواقع السياسى الاجتماعى لأنّ الانفصال عنه بمعنى الخروج

ص: ۲۲۶

من ساحة الحياة والانتحار السياسی والاقتصادی.

ولا مناص للمسلمين من أن ينتظم أمر معاشهم ومعادهم ضمن هذا الواقع، و لامناص لهم من أن يعايشوا هذا الواقع، لتستقيم لهم أمور معاشهم و دينهم .. حتی لو يتطلب الأمر أن ينضمّ المؤمنون إلی مواقع المسؤولية من هذه الأنظمة الفاسدة، ولكن لا لغاية إنعاشها ودعمها، وإنما لغاية تحقيق الضمان لمعيشة المؤمنين وخدمة الناس فی معايشهم ومكاسبهم؛ (راجع الروايات الواردة فی مستثنيات التعاون مع الظلمة و أبواب التقية).

فلايستغنی الناس عن المدارس والجامعات، وجهاز الشرطة، والمستشفيات، والمؤسسات الخدمية وغيرها، وكل هذه المؤسسات مؤسسات قائمة ضمن هذه الأنظمة الفاسدة ... لاحيلة للناس عنها، فيجوز الدخول فی هذه المؤسسات لخدمة الناس، و يجوز الاستفادة من هذه المؤسسات، و من دون ذلک تتعطل حياة الناس، والله تعالی لا يريد تعطيل حياة الناس.

وبين الأمر الأول (المحظور)، والأمر الثانی (السائغ) فرق واضح.

۳- العمل علی تحويل هذا الواقع الفاسد إلی نظام صالح، و قيادة صالحة و قوانين وتشريعات صالحة.

و هذه النقطة الأخيرة تختلف من مجتمع إلی مجمع، فقد يتم ذلک عن طريق ثورة مسلحة، وقد يكون ذلک عن طريق الترحيل الثقافی والتبليغی للناس، و قد يكون بالوسائل الديمقراطية الحديثة، التی تمكّن الأكثرية الصالحة من الوصول إلی مواقع الحكم و تغيير الحكم إلی نظام صالح، و قيادة صالحة، بصورة سليمة، أو غير ذلک من الوسائل و الآليات؛ (راجع روايات باب الأمر بالمعروف والنهی عن المنكر وأبواب الجهاد).

و هذه ثلاثة مشاريع عمل إسلامية سياسية، تتطلب مشاركة عامة من

ص: ۲۲۷

المسلمین، من کل المذاهب والفرق والشعوب الإسلامیة التی تعانی من سلطة الحکومات الظالمة.

۱- مقاطعة الأنظمة الفاسدة وتحریم دعمها وإسنادها، ووجوب عزل هذه الأنظمة عن الأمة والتشهیر بها وتسقیطها.

۲- المشارکة الإیجابیة فی کل مسالک الحیاة السیاسیة، و الاقتصادیة، و الاجتماعیة، و النفوذ إلی مواقع مختلفة من الحکم بهذه الذهنیة، و لهذه الغایة.

۳- مشاریع أسلمة الأنظمة، وإقامة الدولة الإسلامیة، علی أسس شرعیة، و ترحیل الحالة السیاسیة إلی قیام حکومة عالمیة إسلامیة صالحة، کما وعدنا الله تعالی فی کتابه .. وهذا المشروع یختلف من بلد إلی بلد، و من حالة سیاسیة إلی حالة أخری، و لا یخضع لوصفة سیاسیة أو حرکیة واحدة.

المشروع السیاسی الإسلامی

الأنظمة فی العالم الإسلامی- فی الغالب- غیر صالحة، و لا یمکن الاعتماد علیها فی تقریر الموقف الإسلامی من القضایا السیاسیة الکبری فی العالم الإسلامی .. ومن الواضح أنّ المواقف الرسمیة للأنظمة تجاه القضایا الکبری تبقی خاضعة لتأثیر الدول الکبری، و لیس بوسع هذه الأنظمة أن تتجاوز الخطوط الحمراء التی ترسمها دول الاستکبار العالمی ...

نعم، هناک مساحات صفراء یتحرک علیها هؤلاء الحکام .. وقد تکون هذه الحرکة مخالفة لقرارات الدول الکبری ...

أما الخطوط الحمراء، فلیس بوسع هذه الأنظمة تجاوزها، مهما کان الثمن الذی تدفعها هذه الأنظمة .. مثل النفط، فلیس بوسع هذه الأنظمة أن تستخدم «النفط» فی قضایا الأمة السیاسیة، والعکس حاصل فعلًا، فانّ الدول الکبری، و مجلس

ص: ۲۲۸

الأمن يستخدمان العامل الاقتصادى سلاحاً قاطعاً فى قراراتها السياسية، و فى عقوبة الأنظمة التى تتجاوز الخطوط الحمراء، فى حين لا يجرأ حُكّامنا، أو لايملكون فى أكثر مناطق العالم الإسلامى، تجاوز الخطوط الحمراء، فيما يتعلق بأنظمة الاستكبار العالمى.

ومهما يكن السبب، فإنّ الساحة الإسلامية الواسعة، لاتمتلك اليوم مقومات القرار، و الموقف السياسى الراشد الإسلامى، إلّا ما يصدر بصورة عفوية من مواقف و قرارات، يتبناه جمهور المسلمين فى مختلف أقاليم العالم الإسلامى، كما رأينا ذلك فى التعاطف الشديد لمواقف المقاومة الإسلامية فى جنوب لبنان (حزب الله)، من جانب جماهير المسلمين فى كل أقاليم العالم الإسلامى، وفى المهاجر الغربية.

و رغم أنّ الأنظمة العربية- فى الغالب- كانت ممتعضة من انتصار المقاومة، و ماسجلتها من انتصارات باهرة خلال ۳۳ يوماً إلّا أنّ تيار التضامن و التعاطف الإسلامى مع حزب الله كان أقوى من أن تعاكسها الأنظمة، و أدواتها الإعلامية المسخّرة لخدمة مواقفها السياسية ... و لكن هذه الأنظمة تمكّنت أخيراً من إبراز كراهيتها لانتصار حزب الله، فى الاصطفاف الواسع الذى قامت به إلى جانب فؤاد السنيورة، وجعجع، والحريرى، وجنبلاط، فى إفشال مشروع حكومة الوحدة الوطنية التى دعت إليها المعارضة .. و فى مقدمتها حزب الله؛ ولولا التصرف العقلائى لحزب الله فى هذا الموقف المعارض لاستئثار الأقلية بالحكم فى لبنان، لكانت العاقبة حرباً أهلية واسعة فى لبنان، إلّا أنّ (حزب الله) آثر ممارسة الاعتراض، بصورة سلمية، حتى عندما كانت الحكومة تقابل المعارضة بالعنف .. و كفى الله اللبنانيين القتال.

ومهما يكن من أمر فلابدّ للساحة الإسلامية الكبرى من أدوات نابعة من

ص: ۲۲۹

إرادة الأمّة، و من عمق الساحة لتنضيج القرار السياسى الذى يهم الأمة- كلها- و لتوحيد الرأى، والموقف السياسى فى القضايا الكبرى، و تعميمها على كل الساحة الإسلامية، و تحشيد الرأى العام الإسلامى لإسناده، و الوقوف إلى جانبه، و تفعيله فى الساحة من خلال المسيرات، والاحتجاجات، والهتافات، والإعلاميات، والآليات المشاعة التى يمتلكها الشارع، للتعبير عن موقفه، ورأيه، واعتراضه، واحتجاجه، وحبّه، وبغضه.

ومن دون وجود مشروع سياسى- مثل هذا المشروع- ينضّج الرأى السياسى الراشد الناضج الموحّد، تبقى الساحة معرّضة لأمواج الفتن السياسية، و ضغوط وسائل الإعلام الرسمية التى تجعل من الحق باطلًا ومن الباطل حقاً، و تقرّب البعيد، و تبعّد القريب.

وتبقى الساحة الإسلامية تتخبط بين اختلاف الآراء والمواقف، والفتن، والضغوط الإعلامية.

ولكى تسلم الساحة الإسلامية الكبرى من هذا التخبّط، لابدّ من مشروع سياسى إسلامى كبير، خارج حوزة نفوذ هذه الأنظمة، تمارس هذه المسؤولية فى تنضيج القرار، والموقف الإسلامى، وتوحيده، وتعميقه، وتفعيله فى الساحة.

ولابدّ أن يمثّل هذا المشروع السياسى كل الشرائح والمذاهب والأقاليم الإسلامية تمثيلًا صادقاً حقيقياً، ليكون لرأى هذا التجمع الإسلامى، النفوذ والتأثير الفعلى على كل الساحة الإسلامية.

ويكون هذا التجمّع مركزاً لتنضيج القرار الإسلامى الراشد الذى تتبناه الساحة الإسلامية كلها، فى المسائل الأمّ الكبرى فى العالم الإسلامى، مثل قضية القدس والمسجد الأقصى، والقضية الفلسطينية، والاحتلال الإسرائيلى لأجزاء واسعة من أراضى الوطن الإسلامى من سوريا ومصر والأردن ولبنان؛ ومثل المشكلة

ص: ۲۳۰

الصومالیـة، و تـدخل القوی المتعـددة الجنسـیات فی دارفور؛ والمشـروع الإیـرانی النووی السـلمی؛ و الاحتلاـل الأـمریکی لأفغانسـتان والعراق؛ والموقف الأمریکی المعادی للقضیة الفلسطینیة، والداعم لإسرائیل؛ والموقف البریطانی، بل الاتحاد الأوروبی من دعم المرتد سلمان رشدی؛ والموقف الروسـی المتعنت من الولایات الإسـلامیة کالشـیشان، وقضـیة الصـحراء المغربیة، واضطهاد الأنظمة فی العالم الإسـلامی لأبنـاء الحرکـة الإسـلامیة، کمـا فی الجزائر وتونس ومصـر، وکمـا فی العراق فی عهـد الطاغیـة، ومثل الصـراع الفلسـطینی- الفلسـطینی بین حمـاس وفتـح، والـدعم الإسـرائیلی والأـوربی والأمریکی والعربی لفتـح، وتضـییق الحصار علی غزة وحماس إقتصادیاً وسیاسـیاً، وعزل حماس عزلًا سیاسـیاً کاملًا ... و أمثال ذلک، و التخریب الواسع الذی قامت به إسرائیل للبنان، انتقاماً لانتصار حزب الله علیها فی الحرب التی دارت بینها و بین حزب الله فی جنوب لبنان، و سـکوت الـدول الغربیـة- الأوروبیـة و الأمریکیة- برمّتها تجاه هذا العدوان السافر علی لبنان، و دعم الموقف الإسرائیلی بشکل مطلق، بکل أشکال الإسناد والدعم ... وأمثال ذلک.

و قد یتساءل أحد عن الصـیغة العملیة لهذا المشـروع السیاسـی ... فأقول: إننی لست بصدد عرض صیغة محددة لهذا المشروع السیاسی ... یمکن أن یکون علی هیئة مؤتمر دوری لأهل الحل والعقد من المسـلمین، ویمکن أن یکون بصیغة أخری ... و أیّاً ما تکون الصیغة العملیـة لهـذا المشـروع، فهو مرکز سیاسـی، یمثل الأمّـة الإسـلامیة، بعرضـها العریض، فی تنضـیج القرارات، و التوصـیات السیاسـیة، و الاقتصادیـة، و الثقافیـة، وغیرها، و بلورتها و تقـدیمها، فی الأمور التی تهمّ الأمّـة، و یکون هـذا المرکز فی مقابل مراکز القرار الرسـمیة للأنظمـة، یعبّر عن إرادة النـاس و انتمـائهم، و هویتهم الإسـلامیة ... و هو أمر قائم فعلًا، فی بعض الحـدود، و لکن یحتاج إلی تثبیت، و تطویر، و توسعة، و تعدیل، و تقنین، و تبنی من قبل المسلمین.

ص: ۲۳۱

تساؤلات حول هذا المشروع

وقد یثیر أحد حول هذا المشروع التساؤلات التالیة:

۱- أین یمکن إقامة هذا المشروع السیاسی المستقل، عن الإرادة الأمریکیة- و الدول الغربیة، و أمریکا تقول الیوم للسحاب: أینما تذهبین فإنّک تمطرین فی مساحة نفوذی و سلطانی.

۲- ما جدوی رأی هذا المرکز السیاسی إذا کان لا یملک آلیة التنفیذ فی مقابل قرارات الأنظمة التی ینفذها أصحابها بالإرهاب والإعلام.

۳- و کیف یمکن عزل رأی هذا المرکز أو توصیاته عن تأثیر و نفوذ الأنظمة ودول الاستکبار العالمی، فی هذه الدنیا المتشابکة المتداخلة.

والجواب عن السؤال الأول:

إنّ ارض الله واسعة، و نحن لدینا مناقشات جوهریة فی صدقیة النفوذ الأمریکی الکونی المطلق، لیس هنا مجال بسط الکلام فیها.

وعن السؤال الثانی:

أقول إنّ رأی هذا المشروع وتوصیاته، یکون مدعوماً بالرأی العام الإسلامی، وسوف یکون له دور واضح فی تعدیل القرارات السیاسیة للأنظمة إن لم تکن قادرة علی إلغائها.

وعن التساؤل الثالث:

لا- ننفی إمکانیة نفوذ الأنظمة ومن ورائها أنظمة الاستکبار العالمی إلی صلب هذا المرکز وآرائه وتوصیاته، ولکنه علی کل حال إمکانیة محدودة و لیست مطلقة، و لایمکن أن یحقق أی مشروع سیاسی فی هذه الدنیا المتداخلة المتشابکة غایته بصورة مطلقة.

ص: ۲۳۲

وبعد فإننا نری أنّ أمثال هذه المشاریع طموحات سیاسیهٔ واقعیهٔ، یمکن أن نسعی إلیها ولیست ضرباً من أحلام الیقظهٔ فی واقعنا السیاسی المعاش.

المرجعیهٔ السیاسیهٔ للعالم الإسلامی:

نحن الیوم أمهٔ فاعلهٔ قویهٔ علی وجه الأرض؛ و لهذه الأمهٔ ثقل کبیر فی المعادلات السیاسیهٔ، وحضور واسع فی القضایا السیاسیهٔ ذات الشأن بالحالهٔ الإسلامیهٔ خصوصاً، وبالحالهٔ الکونیهٔ عموماً.

ورغم أنّ أکثر الأنظمهٔ الحاکمهٔ فی العالم الإسلامی تعمل لتشتیت هذه القوهٔ الکبری علی وجه الأرض، لکن تبقی الأمهٔ الإسلامیهٔ التحدی الأکبر للغرب؛ و الذین یقرءون التاریخ و المستقبل من المنظّرین فی الغرب یفهمون هذه الحقیقهٔ، و ینذرون أنظمهٔ الاستکبار الغربی من هذا العملاق الذی بدأ ینهض من سباته فی القرن العشرین.

و فی ضوء هذا الفهم نقول:

۱- إنّ الحقائق المتقدمهٔ فی نهضهٔ الأمهٔ بعرضها العریض لایمکن أن تخفی علی مراکز الرصد الاستکباری فی الغرب.

۲- و لابدّ أن تلقی هذه الأمهٔ تحدیات صعبهٔ من ناحیهٔ الغرب لإحباط المشروع الإسلامی الکونی الکبیر.

۳- و لاتخصّ هذه التحدیات إقلیماً، أو قوماً و مذهباً من المذاهب، وإنما تعم الأمهٔ الإسلامیهٔ برمّتها، لأنّ هذه الأمهٔ هی التربهٔ الصالحهٔ للمشروع الکونی الذی یخبرنا به الله تعالی فی کتابه: (وَ لَقَدْ کَتَبْنَا فِی الزَّبُورِ مِن بعْدِ الذِّکْرِ أنّ الأرضَ یَرِثُهَا عِبَادِیَ الصَّالحوُن) والذی یتنبّأ به المنظرون فی الغرب.

۴- إذن المسلمون جمیعاً فی مواجههٔ صراع حضاری، وعسکری، وسیاسی،

ص: ۲۳۳

وثقافى قاس، من أقسى ما يعرفه تاريخ الإنسان من الصراعات الحضارية السياسية، والعسكرية، شئنا ذلك أم أبينا.

والمطالبة بالمعايشة السلمية، وشجب الحروب والصراعات، لايعفينا من هذه المعركة .. و لسنا نحن الذين ندفع الغرب إلى مثل هذا الصراع، و إنما العكس هو الصحيح، الغرب هو الذى يدفعنا إلى مثل هذه المعركة ... فإنّ الكيانات السياسية، والعسكرية، والثقافية فى الغرب، يرون أنهم قد وصلوا إلى نهايات التاريخ، والعاقبة التى آل إليها أمر الاتحاد السوفيتى ليس ببعيد عنهم، والقوانين والسنن التى آلت إلى سقوط الاتحاد السوفيتى هى التى تؤول بهم إلى تلك العاقبة؛ و هم يدافعون عن أنفسهم فى معركة مصيرية بالنسبة لحضارتهم، وكيانهم الاقتصادى، والسياسى، والعسكرى، ومن الطبيعى أن يكون هذا الصراع أشرس صراع يعرفه الإنسان، لأنه صراع على الموت والحياة.

۵- و من أفدح الخطأ أن ندخل هذا الصراع من غير الإعداد المكافئ لهذه المعركة الحضارية، ومن غير الإعداد لآليات هذا الصراع .. والدخول فى مثل هذه المعركة من غير الإعداد المكافئ لها يعادل الفشل والهزيمة فيها ... يقول تعالى: (وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ) ((۱)) وليست القوة كلها فى السلاح، وإن كان السلاح من مقومات ساحة القتال، إلّا أنّ دائرة الإعداد الذى يأمرنا به الله تعالى أوسع من السلاح.

۶- و من أهم الآليات التى تُعِدُّ هذه الأمة لدخول مثل هذه المعركة التىنتوقعها كل حين، بل نعايشها اليوم، دون أن ننتبه لها .. فى مقدمة هذه الآليات (: المرجعية السياسية الواحدة للأمة الإسلامية) ... فليس من الممكن أن تدخل هذه الأمة صراعاً سياسياً، وحضارياً واسعاً، وتواجه تحديات كثيرة، دون أن تمتلك الأمّة

۱- الأنفال: ۶۰

ص: ۲۳۴

(مرجعیة سیاسیة)، توحّد قرارها، وموقعها، وصفّها.

إنّ وحدة الأمة، و وحدة القرار السیاسی، لا تتحقق إلّا من خلال الآلیات التی أعدّها الله تعالی لذلک، وفی مقدمة هذه الآلیات المرجعیة السیاسیة التی یسمیها الفقهاء ب- (ولایة الأمر).

یقول تعالی: (أَطِیعُوا اللّهَ وَأَطِیعُواْ الرَّسُولَ وَ اولِی الأَمْرِ مِنکُمْ).

۷- و (الموقع الأول) و (الموقع الثانی) الذین تحدّثنا عنهما مؤسستان إسلامیتان للأمة الإسلامیة کلها تتکاملان، یؤدی الأولی دور الشوری وتنضیج القرار السیاسی الذی تشیر إلیه آیة الشوری (وَأَمْرُهُمْ شُورَی بَیْنَهُمْ) ((۱)) وتقوم الثانیة بدور (الولایة السیاسیة) فی حیاة المسلمین .. تنفیذاً لقوله تعالی:

(أَطِیعُوا اللّهَ وَأَطِیعُواْ الرَّسُولَ وَ اولِی الأَمْرِ مِنکُمْ).

(إِنَّمَا وَلِیُّکُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِینَ آمَنُواْ الَّذِینَ یُقِیمُونَ الصَّلاَةَ وَیُؤْتُونَ الزَّکَاةَ وَهُمْ رَاکِعُونَ) ((۲)).

فی المساحة الاقتصادیة

إنّ عملًا واسعاً یجری الیوم لإلحاق أسواق العالم الإسلامی، ومصادر ثرواته الطبیعیة بشبکة العولمة الاقتصادیة، وهو أمر حاصل بالفعل فی بعض الحدود، ولکن الحرکة التی تقوم بها الأنظمة فی العالم الإسلامی هی إلحاق أسواقنا فی العالم الإسلامی وثرواتنا الطبیعیة بشبکة العولمة الاقتصادیة بشکل کامل .. وهذا الأمر إذا تمّ یجعل من حرکتنا الاقتصادیة حرکة تابعة لاقتصاد الدول الصناعیة الکبری، وتجعل من أسواقنا معرضاً ومحلًا لاستهلاک ما تنتجه المصانع فی الدول الصناعیة الکبری، وتجعل مصادرنا الطبیعة للثروة مثل النفط، والکبریت، والصلب، والحدید،

۱- الشوری: ۳۸

۲- المائدة: ۵۵

ص: ۲۳۵

والقطن، وقصب السکر، والمطاط، والتمور، مصدراً لتموین المعامل والمصانع فی الغرب.

ونتحول من موقع الإنتاج والاکتفاء الاقتصادی إلی مرکز لتموین المصانع فی الـدول الصـناعیة الکبری بالمواد الخام التی تحتاجها هذه المصانع، ومحلًا لاستهلاک ما تنتجه هذه المعامل.

و هـذه العاقبـة، أسوأ عاقبـة اقتصادیـة للعالم الإسـلامی، وتؤدی هـذه التبعیـة الاقتصادیة إلی تبعیة سیاسـیة خالصة، وانهیارات اقتصادیة واسعة کما حصل لجنوب شرق آسیا قبل سنین، وتفقدنا حالة الاکتفاء الذاتی فی الاقتصاد، بشکل کامل.

وکما یسـتخدم الغرب الآلـة الصـناعیة والاقتصادیـة فی تحقیق (التبعیة السیاسـیة) فی العالم الإسـلامی، بشـکل واسع، کذلک یسـتخدم الغرب المقاطعـة الاقتصادیـة والحظر الاقتصـادی لإخضـاع أنظمـة العـالم الإسـلامی لإرادتهـا السیاسـیة، کمـا حصل ذلک لإیران ولیبیا وسوریا والسودان ... عندما امتنعت من تنفیذ إرادتها.

وقـد کان بوسع العالم الإسـلامی أن یسـتخدم الآلـة الاقتصادیـة، مثل تصـدیر النفط فی تعـدیل بعض المواقف الغربیة المتطرفة عموماً، والأمریکیـة خصوصاً، تجاه العالم الإسـلامی، مثل الجنوح المتطرف إلی جانب إسـرائیل، والوقوف إلی جانب إسـرائیل فی کل مراحل عدوانها علی فلسـطین ولبنان؛ والتشدید علی إیران بسـبب محاولاتها لتخصـیب الیورانیوم، والوصول إلی مرحلة استخدام الطاقة النوویة لإنتـاج الکهرباء وسائر الغایات السـلمیة، و السـکوت عن إسـرائیل ومفاعلاتها النوویـة وترساناتها التی تختزن أکثر من ۲۰۰ رأساً نوویاً جاهزاً للتفجیر والعدوان، کما یقول بعض المؤسسات العسکریة.

لو أنّ المسلمین کانوا یستخدمون الآلة الاقتصادیة فی تعدیل المواقف السیاسیة

ص: ۲۳۶

الغربیهٔ المتطرفهٔ تجاه العالم الإسـلامی لتغیّر وجه العلاقات الإسـلامیهٔ- الغربیهٔ، ولم یتمکن الغرب من أن یمارس هذا النفوذ الواسع فی العالم الإسلامی، ولم یسع الغرب أن یستهتر بهذه الصورهٔ بکل القیم الدبلوماسیهٔ، والسیاسیهٔ، فی علاقاتها بالعالم الإسلامی.

ولکن ما الحیلهٔ إذا کان حکام العالم الإسـلامی فی الغالب لا یجرءون علی التطوّل علی الإرادهٔ السیاسیهٔ الغربیهٔ، وبشکل خاص الإرادهٔ السیاسـیهٔ الأمریکیـهٔ، ولاـ یمتلکون الشـجاعهٔ الکافیـهٔ لاتخـاذ أی قرار سیاسـی أو اقتصادی یعارض مصالـح أنظمـهٔ الاسـتکبار العالمی، ویتجاوز الخطوط الحمراء المرسومهٔ لهم؟!

إنّ حرکـهٔ غاصـبهٔ عفویـهٔ قامت بها جماهیرنا فی مقاطعـهٔ البضائع الدنمارکیـهٔ، عنـدما أساءت صـحیفهٔ دانمرکیـهٔ إلی رسول الله (ص)، وامتنعـت الـدانمارک مـن الاعتـذار إلی المسـلمین ومعاقبـهٔ الصـحیفهٔ، کـان لهـا تـأثیر کـبیر فی تعـدیل موقـف الحکومـهٔ الـدانمرکیهٔ والحکومات الاسکندنافیهٔ، التی وقفت إلی جانب الدانمارک فی حینه.

إنّ الموقف الصـحیح فی هذه المسألهٔ الخطیرهٔ هو الحضور الملیونی الموحّد فی الساحهٔ، و الهتاف بمقاطعه العولمهٔ الاقتصادیهٔ الزاحفهٔ إلی العالم الإسـلامی، والمطالبهٔ باسـتخدام الآلهٔ الاقتصادیهٔ فی قضایانا السیاسـیهٔ الأُم، والمناداهٔ بتحریر أسواقنا من سـیطرهٔ البضاعهٔ التی تصدرها إلینا الدول الصناعیهٔ الکبری؛ والدعوهٔ إلی تحریر مصادرنا الطبیعیهٔ للثروهٔ وإنتاجنا الزراعی والحیوانی من نفوذ الدول الکبری، والمنـاداهٔ بـالوصول إلی حالـهٔ الاکتفـاء الـذاتی، والتشـهیر بالأنظمـهٔ والحکـام الـذین یسـتخدمون مـواقعهم فی الحکـم لتمکین النفـوذ الاقتصادی الغربی والشـرقی (الاسـتکباری) من أسواقنا ومصادرنا الطبیعـهٔ، ودعوهٔ الجمهور إلی اسـتخدام المقاطعـهٔ الاقتصادیـهٔ عنـدما یتطلب الأمر، ویتقاعس الحکّام، و یجبنون عن اتخاذ القرار الاقتصادی المناسب.

ص: ۲۳۷

إنّ الحضور الواعى القوى للأمة فى الساحة الإسلامية، فى كل المراكز والحواضر والعواصم الإسلامية يؤدى بالضرورة إلى تعديل قرار كثير من الأنظمـة، والحكام الـذين يحكمون العالم الإسـلامى، كما يؤدى إلى تعـديل القرارات الاقتصادية والسياسـية لدول الاسـتكبار العالمى تجاه العالم الإسلامى، وتخفيف الضغوط السياسية و الاقتصادية عليه.

الوعى والخطاب

الجماعة، واللقاء، والحوار

تعریف مرکز

بسم الله الرحمن الرحیم

جاهِدُوا بِأَمْوالِکُمْ وَ أَنْفُسِکُمْ فی سَبیلِ اللَّهِ ذلِکُمْ خَیْرٌ لَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علیّ بْنُ موسَی الرِّضا – علَیهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْیَا أمْرَنَا... یَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ یُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ کَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنـادِرُ البِحـار – فی تلخیص بحـار الأنـوار، للعلاّمـة فیض الاسـلام، ص ۱۵۹؛ عُیونُ أخبـارِ الرِّضـا(ع)، الشَّیخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائمیّة" الثّقافیّ بأصبَهانَ – إیرانَ: الشهید آیة الله "الشمس آباذی" – رَحِمَهُ اللهُ – کان أحداً من جَهابذة هذه المدینة، الذی قدِ اشتهَرَ بشَغفِهِ بأهل بَیت النبیّ (صلواتُ اللهِ علَیهِم) و لاسیَّما بحضرة الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (علیه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّریفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درایته، فی سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجریّة الشمسیّة (=۱۳۸۰ الهجریّة القمریّة)، مؤسَّسةً و طریقةً لم یَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَی و أحسَنِ مَوقِفٍ کلَّ یوم.

مرکز "القائمیّة" للتحرّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إیرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریّة القمریّة) تحتَ عنایة سماحة آیة الله الحاجّ السیّد حسن الإمامیّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّیجی الحوزات العلمیّة و طلاب الجوامع، باللیل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی: دینیّة، ثقافیّة و علمیّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشیعة و تبسیط ثَقافة الثّقَلَین (کتاب الله و اهل البیت علیهمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزیز دوافع الشَّباب و عموم الناس إلی التَّحَرّی الأدَقّ للمسائل الدّینیّة، تخلیف المطالب النّافعة – مکانَ البَلاتیثِ المبتذلة أو الرّدیئة – فی المحامیل (=الهواتف المنقولة) و الحواسیب (=الأجهزة الکمبیوتریّة)، تمهید أرضیّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافیّةٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البیت –علیهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققین و الطّلاّب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِج العلوم الإسلامیّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهیل رفع الإبهام و الشّبُهات المنتشرة فی الجامعة، و...

- مِنها العَدالة الاجتماعیّة: التی یُمکِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحدیثة متصاعدةً، علی أنّه یُمکِن تسریعُ إبراز المَرافِق و التسهیلاتِ – فی آکناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلامیّة و الإیرانیّة – فی أنحاء العالَم – مِن جهةٍ اُخرَی.

- من الأنشطة الواسعة للمرکز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ کتبٍ، کتیبة، نشرة شهریّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقیقیّة و مکتبیة، قابلة للتشغیل فی الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّلاثیّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّکة و... الأماکن الدینیّة، السیاحیّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتی "القائمیّة" www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضیّة، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمریّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعیّة، الاخلاقیّة و الاعتقادیّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسیم النظام التلقائیّ و الیدویّ للبلوتوث، ویب کشک، و الرّسائل القصیرة SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراکزَ طبیعیّة و اعتباریّة، منها بیوت الآیات العِظام، الحوزات العلمیّة، الجوامع، الأماکن الدینیّة کمسجد جَمکرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفیذ مشروع "ما قبلَ المدرسة" الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِکین فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعلیمیّة عمومیّة و دورات تربیة المربّی (حضوراً و افتراضاً) طیلة السَّنَة

المکتب الرّئیسیّ: إیران/أصبهان/ شارع"مسجد سیّد/ "ما بینَ شارع"پنج رَمَضان "ومُفترَق"وفائی/"بنایة"القائمیّة"

تاریخ التأسیس: ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریة القمریّة)

رقم التسجیل: ۲۳۷۳

الهویّة الوطنیّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البرید الالکترونی: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتی: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاکس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مکتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التِّجاریّة و المَبیعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمین ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

المیزانیّة الحالیّة لهذا المرکز، شَعبیّة، تبرّعیّة، غیر حکومیّة، و غیر ربحیّة، اقتُنِیَت باهتمام جمع من الخیّرین؛ لکنّها لا تُوافِی الحجمَ المتزاید و المتّسعَ للامور الدّینیّة و العلمیّة الحالیّة و مشاریع التوسعة الثّقافیّة؛ لهذا فقد ترجّی هذا المرکزُ صاحِبَ هذا البیتِ (المُسمَّی بالقائمیّة) و مع ذلک، یرجو مِن جانب سماحة بقیّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرَجَهُ الشَّریفَ) أن یُوفّقَ الکلَّ توفیقاً متزائداً لِإعانتهم - فی حدّ التّمکّن لکلّ احدٍ منهم – إیّانا فی هذا الأمر العظیم؛ إن شاءَ اللهُ تعالی؛ و اللهُ ولیّ التوفیق.


مركز القائمية اصفهان
للبحوث والتحريات الكمبيوترية
www
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٠٩